
بين
الأطلال
يوسف السباعي



يوسف السباعي



بين الأطلال

اذكريني



للمؤلف

أطياف (قصص قصيرة ١٩٤٧)

نائب عزرائيل (رواية ...... ١٩٤٧)

اثنتا عشرة امرأة (قصص قصيرة ١٩٤٨)

خبايا الصدور (» » ١٩٤٨)

يا أمة ضحكت (» » ١٩٤٨)

اثنا عشر رجلا (» » ١٩٤٩)

أرض النفاق (رواية ...... ١٩٤٩)

فى موكب الهوى (قصص قصيرة ١٩٤٩)

من العالم المجهول (» » ١٩٤٩)

هذه النفوس (» » ١٩٥٠)

إلى راحلة (رواية ...... ١٩٥٠)

مبكى العشاق (قصص قصيرة ١٩٥٠)

بين أبو الريش وجنينة ناميش (» » ١٩٥٠)

أغنيات (» » ١٩٥١)

أم رتيبة (مسرحية .... ١٩٥١)

هذا هو الحب (قصص قصيرة ١٩٥١)

صور طبق الأصل (» » ١٩٥١)

بين الأطلال (رواية ...... ١٩٥٢)

السقامات (» ١٩٥٢)

سمار الليالى (قصص قصيرة ١٩٥٢)

الشيخ زعرب (» » ١٩٥٢)

نفحة من الإيمان (» » ١٩٥٢)

وراء الستار (مسرحية .... ١٩٥٢)

ست نساء وستة رجال (قصص قصيرة ١٩٥٣)

هذه الحياة (» » ١٩٥٢)

البحث عن جسد	(روايـة . . . . . . ١٩٥٣)
جمعية قتل الزوجات	(مسرحية . . . . . ١٩٥٣)
فديتك ياليلى	(روايـة . . . . . . ١٩٥٣)
ليلة خمر	(قصص قصيرة ١٩٥٣)
همسة عابرة	(» » ١٩٥٣)
رد قلبى	(رواية فى جزأين ١٩٥٤)
ليالى ودموع	(قصص قصيرة ١٩٥٥)
طريق العودة	(روايـة . . . . . . ١٩٥٦)
أيام تمر	(مقالات . . . . . ١٩٥٧)
من حياتى	(» . . . . . . ١٩٥٨)
لطمات ولثمات	(» . . . . . . ١٩٥٩)
نادية	(رواية فى جزأين ١٩٦٠)
جفت الدموع	(» » ١٩٦١)
أيام مشرقة	(مقالات . . . . . ١٩٦١)
أيام وذكريات	(» . . . . . . ١٩٦١)
أيام من عمرى	(» . . . . . . ١٩٦٢)
ليل له آخر	(رواية فى جزأين ١٩٦٤)
أقوى من الزمن	(مسرحية . . . . . ١٩٦٦)
نحن لا نزرع الشوك	(رواية فى جزأين ١٩٦٩)
لست وحدك	(روايـة . . . . . . ١٩٧٠)
من وراء الغيم	(مقالات . . . . . ١٩٧٠)
أيام عبد الناصر	(» . . . . . . ١٩٧١)
ابتسامة على شفتيه	(روايـة . . . . . . ١٩٧١)
طائر بين المحيطين	(رحلات . . . . . ١٩٧١)
العمر لحظة	(قصة . . . . ١٩٧٣)

الإهـــداء

إلى الملهمة النائية ...

أينما كانت ...

وكيفما كانت ...

يوسف السباعي

مقـدمة

سألنى أحدهم عما يدعونى إلى هذه المقدمة التى تعوّدت أن أبدأ بها كتبى وأنبأنى أنها لا فائدة منها ولا داعى لها .

وقد يكون على حق ، فما حاولت من قبل أن أقرأ مقدمة كتاب ، بل إنى غالباً ما أتجاوز عن بضع الصفحات الأولى ، وأبدأ القراءة من أول الكتاب .

ويبدو لى أن هذا ما يفعله الكثير من القراء ، ومع ذلك فإنى مصر على أن أكتب المقدمة ، إذ أحس برغبة فى التحدث إلى قارئى ، وأكره أن أجهد نفسى فى كتابة كل هذه الصفحات ، ثم ألقى بها إليه بلا كلمة واحدة بينى وبينه .. بل أقدمها فى صمت .. وأنصرف عنه فى صمت .. بلا حتى « سلامو عليكم » أو « خذ اقرأ هذه .. علها تعجبك ! » .

وعلى ذلك فأنا أكتب المقدمة لأشعر نفسى أنى لا أكتب الكتاب ثم ألقى به فى بحر خضم متلاطم القراء .. مجهول الحدود ، مبهم التفاصيل .. بل أكتب لإنسان مميز معلوم أعرفه ويعرفنى .. وأحادثه ويجيب علىّ .

وقبل أن أذكر للقارئ شيئاً عن هذه القصة التى بين يديه ، أود أن أسرد له حديثاً جرى بينى وبين الأستاذ « بديع خيرى » عندما كنت أزوره فى المستشفى عقب عملية جراحية أجريت له ، وكان قد انتهى من كتابة مسرحية جديدة وهو طريح الفراش .. وقلت مبدياً رأيى فى المسرحية عقب مشاهدتها :

ــ إنها رائعة .. مضحكة جداً .

فأجابنى وهو يهز رأسه فى عجب :

ــ لو علم الذين ضحكوا منها كم قاسيت فى كتابتها لما ضحكوا .. لقد كنت أكتبها وأنا شاك موجع .. بين الحقن والغيارات .

ثم هز رأسه وأردف قائلا :

ـــ هذه حرفة.. لا بد من كتابتها فى أى ظرف وفى أى وقت.. لقد زرت ذات مرة صديقاً لى فى عزبته ، فأنبأنى بأنه سيهيىء لى جواً عظيماً للكتابة : نسيماً عليلا ، وماء سلسبيلا ، وخضرة صفتها كذا وكذا ، ووضعنى صاحبى فى هذا الجو الساحر .. فلم أكتب شيئاً ، ودهش صاحبى وسألنى : ما بـالك لا تكتب ؟ فقلت له : « يا عم أنا مش واخد على الحاجات دى .. متخسرنيش .. أنا واخد على الكتابة على الرصيف وسط الكلاكسات وصريخ العربجيـة الخنطور .. وهوّه انا لو كنت ما اكتبش إلا فى الخضرة والهدوء والنسيم العليل .. كان عمرى كتبت حاجة ؟.. ومنين بس حاجيب النسيم العليل ده كل ما احب اكتب » .

ويبدو لى أنى من نوع الأستاذ بديع .. أعنى كاتب غير مرفَّه .. لا أحتاج قط إلى نسيم عليل وماء سلسبيل .. فأنا عندما أبدأ الكتابة أصبح كالمحكوم عليه بالكتابة مع الأشغال الشاقة .. فأنا آخذ نفسى بغير رفق ولا هوادة ولا راحة .. بل أحبس نفسى فى حجرة .. وأظل أكتب ، وأكتب بلا توقف .. كأنى أخشى أن تفر منى القصة ، ويداخلنى إحساس بأنى لو لم أكتب القصة فى نفس واحد ، وكتبتها على فترات أعطى نفسى فى خلالها الراحة الكافية لخرجت القصة غير متماسكة ولا متناسقة .. بل مرقعة مهلهلة .

هذا هو ما أتخيله . لست أدرى مداه من الصواب والخطأ .

وهذه القصة كتبتها بنفس الطريقة .. طريقة السجن مع الكتابة .. فقد بدأتها فى رمضان سنة ١٣٧٠ هـ (١٩٥١ م) إذ وجدت الصيام يهيىء لى ساعات طويلة متواصلة من الكتابة بلا توقف .

وهكذا بدأت عملية الحبس يومياً من الساعة التاسعة صباحاً حتى الخامسة مساء ، وفى اليوم العشرين كنت قد انتهيت من القصة .

ومرة أخرى أشعر بقلق شديد . فإن هذا الاندفاع فى كتابة القصة أفقدنى

قدرتى على الحكم عليها ، وإن كان يطمئننى بعض الشىء .. التقدير الذى لقيته قصة « إنى راحلة » التى كتبتها بنفس الطريقة المندفعة السريعة .

وبعد .. هذه هى المقدمة .. — وكما سبق القول — إنى أعتبرها مجرد « سلامو عليكم » فهى تحية صداقة لقارئ قديم ، وتحية تعارف لقارئ جديد .. فإن لم يقرأها القارئ فلا سلام عليه ، وإن قرأها فعليه السلام .

يوسف السباعى

الجزء الأول

سوط على قلب

امتحان

١

أطالت « سامية » الوقوف أمام المرآة .. وأخذت تفحص نفسها جيداً .

إنها تشعر لأول مرة .. أنها تهم باستعمال سلاح طالما احتقرته .. واستكبرت عليه .. وأنفت من استعماله .

إنها توشك أن تستعمل سلاح جمالها وفتنتها .. وهو سلاح عتيق فى نظرها ما ظنت قط أن الظروف ستلجئها إليه .

ولكنها الآن وهى تستعرضه أمامها بعد أن باتت فى حاجة إليه .. ترى أنه لن يخذلها .. إنه ليس بمفلول ولا صدىء .

كانت « سامية » مخلوقة ذكية .. مفرطة الذكاء .. شديدة الثقة بذهنها وسلامة تفكيرها .. وقد دفعها هذا الاعتداد بعقلها .. إلى الانكباب على الدراسة والميل إلى التحصيل والاندفاع وراء الشهادات .

كانت تلميذة أكثر منها أى شىء آخر .

ويعلم الله أيهما كان أسبق من الآخر .. أو أيهما كان علة الآخر ، أهو برودها العاطفى وضعف الأنوثة فى نفسها الذى سبب اندفاعها فى الدراسة ، وإفراطها فى التحصيل والقراءة .. أم أن هذا الاندفاع والإفراط هما اللذان سببا برودها وعدم إحساسها بأنوثتها ؟

على أية حال .. سواء أكان هذا سبب ذاك .. أم ذاك سبب هذا .. لقد كانت هى لا تشعر بأية غرابة فى تصرفها وإحساسها . بل كانت تجد أن هذا هو الطريق الطبيعى الذى يجب أن تسير فيه كل فتاة .

كانت تدرك أن هذا هو طريق استقلال المرأة .. وحصولها على حريّتها فى التصرف فى الحياة .. والبت فى مصير نفسها .

كانت تعرف أن سبب الاستعباد هو العجز والحاجة ، فالمرأة مستعبدة .. لأنها تجلس على قارعة طريق الحياة .. منتظرة من يأخذ بيدها فيأويها ويطعمها

ويكسوها .. ويعطيها اسمًا ومعاشًا .. إن مصيرها فى الحياة وأملها فى الأرض معلقـان على عابر السبيل الذى سيتناولها من بين آلاف المنتظرات .. ليسير بها فى ركب الحياة .. وبغير هذا تبقى العمر مترقبة تتلهف فى إعياء ويأس .

حمق !! وغباوة !! هذا هو ما جعل النساء فى الأرض مستعبدات ذليلات .. إنهن يشكون لأن الرجل يتحكم فى مصيرهن !

ماذا يمنعه من ذلك ؟ . ما دمن هن قد وضعن مصيرهن فى يده ، وعلّقن به حياتهن .. لا .. لا .. يجب عليها ألا تجلس فى انتظاره .. إنها ستسير من البداية فى الركب .. إن حاجته إليها أكثر من حاجتها إليه .. ستسير معه جنبًا إلى جنب ، بل ستسبقه فى السير .. ستكون هى المسيطرة على نفسها .. المتحكمة فى مصيرها .. وإنها لن تجلس قط فى انتظار « العروس » .. بل لن تحاول أن تشعر نفسها أنها فى حاجة إلى رجل .. ولن تدع مخلوقًا يتحكم فى مصيرها .

وبهذا التفكير .. أخرجت من ذهنها ومن قلبها كل إحساس بأنوثة .

كانت تكره العجز والاستكانة ، وكانت تشعر فى نفسها أنها أذكى من كل من حولها .. فلِمَ لا تسير فى طريق الاستقلال دون أن يكون لأحد سيطرة عليها .. كقلب .. أو روح .. أو جسد ؟

ولقد نجحت فى خطتها ولا شك .. إن طبيعتها الهادئة ، وتفكيرها الرزين ، وتربيتها الطيبة .. وعاطفتها المستكينة فى هدوء بلغ حد البرود .. كل ذلك قد ساعدها فى ميلها ، وجعل منها نموذجًا لطالبة علم .

وإن لم تحاول « سامية » أن تتبع طريق الوقار والجد والتحفظ ، والمبالغة فى الاحتشام والانطواء ، فقد كان هذا لا يلائم طبيعتها ولا ذكاءها ، وكانت تعرف أن هذا طريق كبت ووجوم لا يلبث أن يؤدى بها إلى الضيق بحياتها والتبرم بدراستها .

وكانت مخلوقة ، ضاحكة ، وكان مظهرها المرح لا ينبىء عن هذا التفوق الذى تحصل عليه ، ولذا فقد كانت دائمًا موضع دهش مدرّساتها اللاتى كن

يتهمنها دائماً بأنها « لعبية » .

وعندما حصلت على « البكالوريا » أنبأت أمها أنها تريد أن تتم دراستها فى الجامعة ، فرحبت أمها بطلبها ، إذ كانت دائمة الترحيب بكل مطلب لها فهى شديدة الحب لها والثقة بها .

وفى الجامعة وجدت مشقة كبيرة فى الاستمرار على طريقتها فى معاملة الناس ، فقد كان من العسير عليها المحافظة على سمعتها الطيبة مع مرحها وعدم تكلفها .

كانت المسألة تختلف كل الاختلاف عن مدرستها الثانوية التى لم يكن بها سوى البنات ، والتى لم يكن هناك موضع لسوء تأويل مرحها وبساطتها وضحكها وحبها لزميلاتها .

لقد بدأت تقاسى فى الجامعة من الفتية ما لم تتعوّده . كانت كل ضحكة استهتاراً ، وكل ابتسامة .. غمزة ؛ وكل كلمة رقيقة وقوعاً فى هوى .

قاست طبيعتها فى أول الأمر .. ولكنها لم تلبث أن تفرض عليهم شخصيتها كما هى ، ولم يلبث الكل أن فهموها على حقيقتها ، وعندما فشل كل فتى فى أن يجعل منها حبيبة خاصة ، أحبوها بالإجماع حباً يملؤه الاحترام والتقدير وجعلوا منها صديقتهم جميعاً .

كانت مخلوقة جذابة مسيطرة .. لم تحاول قط أن تستعمل فى سيطرتها سلاح المرأة .. فقد كانت تعلم أنه قد يكون مرهفاً حاداً ، ولكنه قصير الحد ، سطحى الإصابة ، محدود الأثر .. أما سلاح الذكاء وفطانة الذهن ، وطيب الخلق ، وحسن المعاملة ، فقد كان أوسع أثراً وأبعد مدى .

وكانت تكره أن يمتدح أحد مظهرها ، ولم تحاول قط أن تفحص بعين الإعجاب وجهها أو تتبين قوامها .. فقد كانت لا تجد فى هذه الميزات السطحية ما يستحق الفخر ، وكانت دائمة الصد لكل هجوم عاطفى .. شديدة التباعد عن كل إرهاف للحس وإثارة للمشاعر .

وانتهت الدراسة الجامعية ، وحصلت على دبلوم الآداب بتفوّق .. ولم تكن

سنها تزيد على الاثنين والعشرين عاماً .

وسألتها أمها وهى تقبلها وتضمها إليها :

ــ ماذا تنوين بعد هذا ؟

ــ الدكتوراه .

وهزت أمها رأسها فى عجب وتساءلت :

ــ وما آخر هذا .. إنك تجهدين نفسك ، وأنت لست فى حاجة إلى كل هذه الشهادات .. إن مصيرك إلى الزواج كمصير أى فتاة ، ولن تكون الدكتوراه التى ستتعبين نفسك فى الحصول عليها ، بذات أثر كبير عند ما تقبعين فى بيتك .

ــ لن أقبع فى بيت .. سأواصل الدراسة حتى النهاية . إنى لن أتزوج ، ولن أفكر فى الزواج .

وضحكت أمها وربتت على كتفها وقالت لها كأنها غدت طفلة غريرة :

ــ بل ستتزوّجين يا حلوة .. وستنسين كل هذه الخرافات التى تدرسينها ولن تحتاجى إلا إلى مهارتك فى تربية أولادك والسهر على راحتهم وترويض زوجك على ما فيه سعادتكما ، ولا أظن الدكتوراه ستمنحك خبرة كبيرة فى هذه المسائل .

ــ لا تخشى علىّ .. ستسمعين عنى فى الغد .. سأجعلك أُمًا لأول وزيرة فى مصر . إن لِى أهدافاً كبيرة .. سأحرر المرأة وأعطيها حقوقها .

وهزّت الأم رأسها فى يأس . وقالت لها :

ــ يالك من فتاة حمقاء !.. ألا تعلمين أن حق المرأة فى بيتها .. بين زوجها وأولادها !

ــ إن هذا هو الذى يفسد كل شىء . إن حق المرأة فى الحياة والمجتمع كحق الرجل سواء بسواء .

ــ ما علينا .. أنت وما تشائين .. قومى للعشاء .

واستقر رأيها أخيراً على الطريقة التى تحصل بها على الدكتوراه .

كان عليها أن تدخل معهد الصحافة ، فتدرس به ثلاث سنوات .. فإذا ما حصلت على الماجستير أمكنها أن تتقدم برسالتها للحصول على الدكتوراه

وكان سبب اختيارها لمعهد الصحافة .. هو ميلها إلى الكتابة واعتقادها أن طريق الصحافة هو خير وسيلة لتحقيق غرضها وبلوغها أهدافها التى تسعى إليها فى تحرير المرأة .

وكان عليها أن تؤدى امتحان الدخول . وفى عصر اليوم المحدد كانت تجلس فى المدرّج المتسع لمئات الطلاب والطالبات ، وكان المدرّج يطن بأحاديثهم كأنه خلية النحل وقد أخذوا يتحدثون قبل بدء الامتحان .

واستطاعت أن تميز الكثيرين والكثيرات من زملائها وزميلاتها فى الكلية ، وأخذت توزع التحيات والابتسامات والضحكات هنا وهناك ، وكان بين الممتحنين كثيرون من خريجى الكليات الأخرى ممن لم ترهم من قبل .

وبدأ المراقبون يتوافدون الواحد بعد الآخر ، ثم أخذوا فى توزيع أوراق الإجابة ، وبعد برهة قصيرة أقبل أحد الأساتذة يحمل مظروفاً به ورق الأسئلة ، ووزّعت الأسئلة ، وساد السكون إلا من بضعة أسئلة تتصاعد من هنا وهناك .. ما لبثت حتى خفتت وانهمك الكل فى الإجابة .

ولم تكن قد استعدت للامتحان استعداداً خاصاً ، فقد كان الامتحان غير محدود الأبواب وكان لا يستلزم إلا معلومات عامة .. كان امتحاناً فى العربية والإنجليزية والترجمة .

ولم تكن تقيم وزناً لامتحان العربية .. فقد كانت تعتبر نفسها فى العربية أستاذة .. كانت كاتبة مجيدة ، وكثيراً ما نشرت لها الصحف الكثير من المقالات .

ولم تكن أيضاً تأبه للترجمة ، لأنها كانت تعرف أنها ترجمة من الإنجليزية إلى العربية ، ولو كانت العكس .. لأقضت مضجعها .

أما الذى كانت تكرهه وتخشاه فهو امتحان الإنجليزية.لقد كانت على قوّتها فى

كل المواد .. تكاد لا تحصل فى الإنجليزية من الدرجات إلا على الكفاف ، على ما يكاد يجعلها تمر ، وكانت تقول مازحة .. إنها تقصد مقاطعة الإنجليز وإعلانهم بكرهها لهم ورغبتها فى جلائهم .

وكان أول امتحان هو الإنجليزية .

وجلست تقرأ الورقة مرة ثانية ، وهى تتسلى بقضم أظافرها .. عادة مخزية فى مثل سنها .. إذ كانت لا تترك لأظافرها فرصة النمو والطلاء ، ولكنها لم تكن تستطيع التخلص منها .

كان الامتحان لا يزيد على كتابة موضوع إنشاء .. وكانت مطمئنة إلى أنها ستعرف كيف « تدردش » . وإن عجزها فى الإنجليزية لن يمنعها عن ملء بضعة صفحات بالكلام « الفارغ » .

ولكنها فوجئت فى رأس الموضوع الأول ، بكلمة لا تعرف لها معنى .. كلمة لم تسمع بها من قبل .

وتركت الموضوع الأول . حمداً لله . إن لديها فرصة للاختيار .

وهبطت بنظرها إلى الموضوع الثانى .. إنه يبدو سهلا !! ولكن سحقاً له .. ما معنى هذه الكلمة ؟. إنها لم تسمع بها أيضاً من قبل .

وتملكها ارتباك شديد .. ماذا يقصدون بهذا ؟ وماذا تستطيع أن تكتب وهى لا تفهم ماذا يطلبون منها ؟

وتلفتت حولها فى قلق فلم تجد أحداً تعرفه ممن يحيطون بها .

ويحها ! أهكذا يخذلها الامتحان هذا الخذلان ؟ أترسب فى امتحان الدخول وهى التى أنبأت أمها بثقة وسذاجة أنها قد نوت الحصول على الدكتوراه ؟. أتقف كلمة فى سبيل مستقبلها ، وتحريرها للمرأة ؟

لو تعرف نساء مصر أن مصيرهن معلق بهذه الكلمة ، لأحضرن لها قواميس الأرض .

ولكنها لن تخذل . لن تيئس .. إنها ستسأل جارها .. إنه يبدو سميناً

« كالحلوف » وقد أكب على ورقته ، وأخذ يزفر ، وينفخ ، ويمسح العرق المتصبب من وجهة ، كأنه فى عراك مع ورقة الإجابة . ترى من أية كلية هو ؟ إنه لا يبدو متخرجاً فى كليات .. إن به شبهاً كبيراً من بقال رومى قريب من دارهم . كيف سمحوا له بدخول الامتحان ؟ ولكن ما لها هى ولهذا . إن عليها أن تسأله فقد يجيبها .

وتلفتت نحوه ، ثم همست متسائلة عن معنى الكلمة . ولم يبد عليه أنه سمعها .. فعادت تهمس مرة أخرى . وأخيراً تلفت إليها فى ضيق ، ونفخ بأنفه نفخة حارة .. ثم عاود الانكباب على الورق .

وأحست بالخيبة ، وعادت تقرأ ورقة الأسئلة ، ثم هزت رأسها فى يأس .

وتلفتت نحو المراقبين ، وقد تناثروا فى أنحاء المدرّج . إنها تعرف أحدهم ، معيداً فى اللغة العربية . ترى هل يعرف معنى الكلمة ؟ لا تظن ، وياللسخافة !! ما فائدة أن يحضروا مدرّس العربية فى امتحان الإنجليزية !

وهى تعرف البعض الآخر بمجرد النظر .. سبق لها أن رأتهم فى أنحاء الكلية ، ولكنها لا تعرفهم معرفة شخصية . ولا شك أنهم لن يبخلوا بالإجابة .

ولكن من هذا ؟.

إنه فتى صغير ، يتحدث مع أحدهما ، لا شك أنه طالب . ولكن ماذا أوقفه فى زمرة المراقبين ؟. ولماذا لا يجلس للامتحان ؟ قد يكون طالباً من الخارج ، يسأل عن أى شيء ؟ ولكن ما له يتحدث هكذا بدون كلفة ، ويتكئ بيده على المنضدة ؟ قلة أدب ، إنه طالب وقح .. إنها تكره الطلاب الوقحين ، على أية حال هذا ليس وقته الآن .. المهم أن تجد من يذكر لها معنى الكلمة .

ووجدت الفتى قد غادر موقفه أمام المراقب ، ثم أخذ يتجوّل فى المدرج .. منتهى قلة الأدب . إن شكله لا بأس به .. فهو أنيق إلى حد ما .. ولكن هذا لا يعطيه الحق فى التجول فى مدرّج الامتحان . إنه يقترب منها .. يقتـرب . يقترب .. لقد وصل بجوارها .

ورفعت رأسها تحدق فيه بدهش .. وأصابه من تحديقها شيء من الارتباك . وتحسس كرافتته وياقته ، ليطمئن على أن ليس به شيء مثير .. ثم لم يتمالك أن هزّ رأسه وسألها مستنكراً :

ـــ فيه حاجة ؟

وقاحة . ماله ومالها .. وسألته بنفس الاستنكار :

ـــ ماذا تفعل هنا ؟

وعلت وجهه الدهشة وأجابها ببساطة :

ـــ أراقب .

ـــ تراقب ؟ تراقب من ؟

ـــ الممتحنين .. أنت وأمثالك ؟

ـــ أنت مراقب ؟

ـــ أجل ! أفى ذلك ما يزعجك ؟

ـــ أبداً .. أبداً .. فقد ظننتك طالباً .

وبدأ كأن الحديث قد أزعج « الحلوف » المنهمك فى الكتابة بجوارها . فقد التفت إليها فى غيظ وقال مسكتاً إياها وعلى وجهه علامات الحنق :

ـــ هش .

وأومأت برأسها مهدئة ، وقالت له :

ـــ حاضر .. لقد سكت .

وأكبت على الورقة فى صمت .. فسألها الفتى (كانت تأبى أن تسميه فى ذهنها إلا كذلك) المراقب :

ـــ ما بالك لا تكتبين ؟

ـــ سأكتب .

ـــ ولكن مضى نصف ساعة أو أكثر وأنت لم تكتبى شيئا !

ـــ وما أستطيع أن أكتب ، وأنا لا أعرف ماذا يريدون منى أن أكتب ؟

ــ ماذا تقصدين ؟
ــ لست أفهم رأس الموضوع .
ــ اكتبى عن الآخر .
ــ ولا الآخر .
ــ كيف ؟
وعاد « الحلوف » ينظر إليها مغتاظاً ويزجرها بقوله :
ــ هش .
ولكنها صاحت به ثائرة :
ــ هش أنت .. بلاوى .. حد عملك حاجة ؟.
ثم أردفت قائلة للمراقب :
ــ يوجد كلمة لا أعرف لها معنى .
ــ ما هى ؟
ــ أتظنك ستعرفها ؟
ــ ربما .. فإنى مدرّس إنجليزية .
ــ أنت . مدرّس إنجليزية ؟
ــ أجل !
ودفعت الورق أمامه، وأشارت بقلمها إلى الكلمتين واضعة خطاً تحت كل منهما.
وأجابها المراقب ببساطة :
ــ هذه تعنى كذا ، وتلك تعنى كذا .. أظنك تستطيعين الكتابة الآن ، بدل الحملقة فى المراقبين ، والتشويش على الممتحنين .
وخرجت من الامتحان راضية.. وعادت إلى الدار فقصّت على أمها القصة ضاحكة.
وبعد بضعة أيام انتهى الامتحان .
وبضعة أيام أخر ظهرت النتيجة ، فإذا بها قد اجتازت الامتحان .

هزلت

٢

وفى أكتوبر حل موعد الدراسة ، وكانت قد حصلت من قبل على جدول الدراسة ومواعيدها .. كانت الدراسة تبدأ يومياً من الرابعة إلى الثامنة ، وكانت العلوم فى نظرها (لطيفة) ولا شىء يبدو معقداً ، أو عسيراً .. ومعظم الأساتذة الذين سيقومون بالتدريس لها هم الذين درسوا لها فى الكلية : أستاذ العربية ، والانجليزية ، والترجمة .. أما بقية العلوم كالقانون والمذاهب الاجتماعية ، فإن الذين سيقومون بتدريسها أساتذة معروفون سبق أن سمعت بهم ، وكذلك ما يختص بالصحافة .

وكانت تقطن فى « الدقى » فى أحد الشوارع المتفرّعة من ميدان «عبد المنعم» فى « فيلا » صغيرة كانت تسكنها هى وأمها منذ طفولتها ، وقد تعوّدت أن تقطع المسافة بينها وبين الجامعة سيراً على الأقدام ، إلا إذا كانت فى عجلة ، أو كان الجو رديئاً .

ولم تكن اليوم فى عجلة ، وكان الجو خريفاً صحواً إلا من قصاصات السّحاب المتناثرة فى السماء ، المتلاحقة على وجه الشمس ، وكانت تشعر بنشاط وسعادة ، لأنها مقبلة على مرحلة جديدة من الدراسة ، الدراسة العليا التى ستهيئها للدكتوراه ، وستجعل منها « الدكتورة سامية » رئيسة الحزب النسائى ، ومحررة المرأة ، ووزيرة الشئون الاجتماعية وربما (لو اختشى الحظ على دمه وتساهل معها) تكون رئيسة وزراء .

ولم تكن تحمل حقيبتها ، التى تعوّدت أن تحملها دائماً وهى ذاهبة إلى

الجامعة ، فهى لا تعرف ماذا سيطلبون منها من كتب .. كل ما كانت تحمله هى كراسة بيضاء ، كتبت الجدول فى صفحة منها .

وكانت ترتدى ثيابها التقليدية التى لا تحاول تغييرها وهى « التايير » أبيض فى الصيف ، ورمادى فى الخريف ، وكحلياً أو بنياً فى الشتاء .

كانت ترى أن هذا هو الزى النموذجى للدراسة . وأنه يجب أن يوحد بين جميع الطلبة والطالبات ، على أن يستبدل بالجيب بنطلون للطلبة ، وكان وجهها نظيفاً أبيض متورّداً بلا مساحيق ولا طلاء .. وشعرها معقوصاً فى مؤخرة رأسها وكانت تسير بخطوة منتظمة أشبه بالمشية العسكرية .

ولم تكن بها فى الواقع أنوثة فيّاضة أو جمال فاتن .. لم تكن ناعسة الطرف ، ولا دعجاء ، ولا حوراء ، ولا كان بها ما يبهر أو يثير أو يبعث على الاشتهاء ، ولكنها كانت ما نسميه « لطيفة » . لم يكن فيها إغراء يجذب عن بعد ، ولكن عندما يجالسها المرء ويتمعن فيها ، ويسمع حديثها ، يحس بجاذبيتها ، ويحبها ، ولا يصيبه منها ملل ولا سآمة ، ويود أن يطيل الجلوس إليها ورؤيتها مرة ثانية وثالثة .

كانت ساذجة فى كل شىء .. ساذجة حتى فى تركيب جسدها ووجهها .. فهى أميل إلى النحافة ، لا بروز كبير فى صدرها وردفيها ، ولكنها مع ذلك لم تكن ممسوحة جرداء .. بل ملفوفة فى شىء من الضمور « مكَسَّمَة » ، رشيقة فى غير امتلاء .. أما وجهها فكان منتظم التقاطيع ، دقيق الملامح ، بفمها بعض الاتساع ، ولكنه اتساع مستحب ، ينفرج عن أسنان منتظمة بيض ، وينتهى بفرجتين لطيفتين .

ووصلت إلى الجامعة واتجهت يميناً إلى مبنى الكلية ، وأقبل عليها فرّاش المعهد ، وكان يعرفها جيداً وحياها بقوله :

ـــ مبروك يا ست سامية .. عقبى للماجستير والدكتوراه إن شاء الله .. أظن الدراسة ستكون فى المدرّج « جـ » أول مدرّج على يدك اليمنى .

ـــ ألم يحضر أحد من الطلبة بعد ؟

ـــ أظن واحداً قد حضر ، ودخل المدرّج .. والدكتور « زكى » حضر .. وهو منتظر فى مكتب الأساتذة .

واتجهت إلى المدرج ودلفت إلى داخله ، فوجدت به الطالب الوحيد الذى حضر .. ولم يكن غريباً عليها .. كان « الحلوف » المتأفف من حديثها فى الامتحان .

عجيب أن ينجح .. إن عليها أن تحتمل رفقته ثلاثة أعوام !

وأومأت إليه برأسها بتحية خفيفة ، فصاح مرحباً :

ـــ أهلا وسهلا .. نهارك سعيد مبارك .

واتخذت مكانها فى أول مقعد فى الصف الأول .. وأخذت تتسلى بقراءة مجلة كانت تحملها مع الكراسة البيضاء .

وبدأ صاحبها يجاذبها أطراف الحديث . قال بصوت أجش وهو يجفف عرقه بمنديل فى يده :

ـــ حضرتك خريجة الآداب ؟

ـــ أجل !

ـــ أى قسم ؟

ـــ الفلسفة .

ـــ فلسفة ؟ وأى صلة بين الفلسفة والصحافة .. ماذا دفع بك إلى هذا المعهد ؟

ـــ كلها دراسة ، وكل دراسة تنفع .

ـــ طبعاً !

ـــ وأنت متخرّج فى أى كلية ؟

ـــ من الطب البيطرى .

ولم تستطع أن تكتم ضحكتها ، ولم تستطع كذلك أن تكتم النكتة التى انطلقت إلى شفتيها .. وكان ذلك من شر عيوبها ، وسألته ضاحكة :

— طبيب . وإلا .. مريض ؟

وهزّ « الحلوف » رأسه .. إنه لم يفهمها . هذا ستر من الله . وإلا ماذا كان مصيرها . لو فهمها ؟!

وواصلت هى حديثها بسرعة حتى لا تعطيه فرصة لإعادة التفكير فيها .. خشية أن يكتشف ما فيها من إهانة .. قالت بلهجة حادة :

— الصلة كبيرة بين الطب البيطرى والصحافة . أقوى بكثير من صلة الفلسفة بالصحافة . والواقع أنك ستستفيد كثيراً من دخول المعهد .

وأشار برأسه مؤمناً على قولها .

وبدأ الطلبة يتوافدون . وانتظموا فى أماكنهم بعد بضع تحيات فيما بينهم ، وكانت تعرف منهم البعض ممن شاركوها دراستها فى الكلية ومن بينهم فتاة تدعى « زينب زكى » خجولة صامتة ، لا تنبس بأكثر من بضع كلمات فى الساعة .

ودقت ساعة الجامعة الرابعة مؤذنة ببدء الحصة ، ولم تكد تنتهى دقاتها حتى أقبل الأستاذ .

كانت قد سمعت عنه من قبل ، وكان له ما يقرب من عشرة مؤلفات ، وكانت تجدها فرصة طيبة لأن تعرفه وتسمع محاضراته ، ولكنه لم يكد « يهل » من الباب حتى تذكرت المثل « تسمع بالمعيدى خير من أن تراه » .

دخل الأستاذ المعيدى .. وبيده « منشة » ، وباليد الأخرى كتابان ، وعلى عينيه منظار « دوبلكس » سميك ، ووجهه أبيض منتفخ ، وجسده قصير بدين أكرش ورأسه أبيض لامع من غير سوء إلا بضع شعرات مرفوعة من جانب الرأس فى شبه فرق وملقاة على « قرّاعة » الرأس فى محاولة لحجب الصلع ، وقد التصقت بلحم الرأس والتوت أطرافها فى شبه علامة استفهام .

ولم يكن شكله أو تكوين جسده بمثير عجبها أو بخافض من قدره فى نظرها ، إذ لم تكن تقيم للشكل وزناً كبيراً .

وكانت ترى أن هذا الشكل هو المفروض أن يكون عليه الأساتذة والعلماء

والكتبة والعرضحالجية والحلاقون وغيرهم من عباد الله المشتغلين بالرءوس .. رءوسهم .. أو رءوس الغير .. لم يكن هذا بالعجيب فى أستاذ القانون ولكن العجب كان فى إفراطه فى الأناقة بطريقته الخاصة التى تثير الضحك .

كان يرتدى حلة كحلية ، وحذاء أصفر شبيهاً « بالبلغ الفاسى » ، وصديرياً أصفر من الصوف ورباط رقبة أصفر بنقط حمر .

كان به شبه كبير من « القرد أبو صديرى » لا يكاد يفترق عنه إلا بوردة حمراء فى « عروة الجاكتة » ، وبأن « القرد » ليس بأستاذ وليس له عشرة كتب .

ولا شك أن الأستاذ كان يمكن أن يكون معتدلا .. لولا « الطقم » الأصفر الفاقع الذى شذ به عن الناس ، ولا شك أيضاً أن عنده مرآة رأى فيها نفسه ، ولا شك أن عنده بعض التمييز ليرى أنه يبدو مخلوقاً مضحكا ، ومع ذلك فقد ارتداه .

وجلس على مقعده ، وكما ارتدى اللبس الذى لم يكن يجب أن يرتديه .. جلس الجلسة التى لم يكن يجب أن يجلسها . لقد وضع ساقاً على ساق ، وساقاه قصيرتان ، وبطنه مدلى والأمر يحتاج إلى جهد ، والجلسة غير مريحة ، ومع ذلك فعلها ، وكشف — بتشمير ساق البنطلون — عن ساق بيضاء جرداء .. كأنها قطعة من العجين .

ولكن مالها ولكل هذا ، لعنة الله على عينيها الناقدتين ، وعقلها الساخر .. بكل شىء .. أليس من الخير أن تنظر إلى وجه الرجل وتركّز ذهنها فى حديثه بدل هذا التنقيب فى شكله ورسمه ؟! ثم .. إنه أستاذ .. رجل علم .. ومفروض فيه أن يكون على شىء من الشذوذ .

وأخيراً عندما نجحت فى تركيز ذهنها فى حديثه .. كانت قد مضت نصف الحصة ، وبدأت تلتقط بضعة ألفاظ عامة عن حرية الرأى ، والتشريع ، والقانون .

وبدأ الأستاذ الإملاء ، وانهمكت فى الكتابة ، فلم يكن لديها فرصة سانحة فى معاودة فحص بقية الطلبة .

وانتهت الحصة ، وانتهت التي بعدها ، وغادرت الجامعة عائدة إلى البيت .

كان الظلام قد حلّ ، وكانت قد أحست بشيء من التعب ، فسارت متجهة إلى محطة الأوتوبيس ، ولكنها ما كادت تتحرك بضع خطوات حتى سمعت صوتاً يصيح :

— إنى ذاهب إلى ميدان الإسماعيلية ، من يريد أن أوصله فليتفضل .

ونظرت خلفها فوجدت أحد الزملاء يقف أمام سيارة فخمة داعياً زملاءه لتوصيلهم .

وبمنتهى البساطة عادت إلى السيارة وقالت له :

— تسمح بتوصيلى فى طريقك إلى ميدان عبد المنعم ؟

— بكل سرور .

وجلست بجواره وجلس طالب آخر فى المقعد الخلفى ، ولم يجب الدعوة غيرهما من الزملاء .

وأمام البيت هبطت من العربة وحيته شاكرة ودلفت إلى الداخل .

ومضت أربعة أيام ، وفى كل يوم عندما تنتهى الدراسة كان يدعوها للركوب فتلبى دعوته ببساطتها المعهودة .

وعرفت منه أنه يعمل بالمحاماة ، وكان يبدو إنساناً رقيقاً مهذباً ، حسن المظهر ، عريق الأصل ، طيب المنبت .

وكانت تجده إنساناً محتملا .. يمكن احتماله خلال بضع الدقائق عندما تركب بجواره ليوصلها إلى بيتها ، ولم تكن حمقاء حتى لا تدرك أن ركوبها بجواره سيثير لغط الزملاء ولكنها لم تكن تخشى اللغط ولا تحاول تجنبه ، بل كانت تقدم على ما لا تجد فيه خطأ ولا جرماً ، وتترك اللغط يثار ، وتستمر فى مظهرها المرح الساذج وحقيقتها الجادة المستقيمة .. حتى تصمت الألسنة خجلا أو يأساً ، وحتى يهبط الغبار من حولها ، وتبدو محبوبة بشخصيتها المحترمة وخلقها القويم .

ولم تكن تجهل أنها تثير مطامعه بركوبها بجواره . وأنه قد يتوهمها غنيمة

سهلة ، ولكنها لم تكن المرة الأولى أن تتعرّض لمثل هذه التجارب ، ولو كانت المرة الأولى التى تخرج منها .. مرفوعة الرأس ، موفورة الكرامة .

وكانت بعض الزميلات ينصحنها بأن توفر على نفسها هذه التجارب ، ولكنها كانت تحب المقاومة وتكره الهدوء والانطواء .

وفى اليوم الخامس ذهبت متأخرة بعض الوقت .. إذ استلقت فى فراشها بعد الظهر ، وكانت قد سهرت فى الليلة السابقة ، واستغرقت فى النوم فلم تستيقظ إلا فى الرابعة .

ارتدت ثيابها على عجل وهرولت فى الطريق ، وتصادف مجىء الأوتوبيس فصعدت إليه ، وبعد بضع دقائق كانت فى طريقها على سلم الكلية .

وصادفت عبد السلام الفراش ، وكانت تجد فيه شخصية هزلية تساوى المعهد بأكمله .. كانت له آراء عجيبة فى المدرّسين والأساتذة ، و لم تكن هذه الآراء بالطبع أو على الأقل معظمها .. مما تنشرح له نفوس الأساتذة .

كان عبد السلام سمين الجسد أسمر البشرة ، دائم احمرار العينين ، غير حليق ولا ملتح .. بل يتناثر الشعر الرمادى الخليط بين الأسود والأبيض على ذقنه ورقبته وصفحة وجهه ، وهو دائماً — أعنى شعر ذقنه — بنفس الطول .. ولست تدرى كيف يبقى على حاله .. إن كان يحلقه فلا بد أن يقصر فى أى يوم .. وإذا كان لا يحلقه فلا بد أن يطول فى اليوم الآخر ، ولكنه يبدو كأنما يحلقه ولا يحلقه ، وهو يرتدى حلة صفراء من حلل جنود الجيش المصرى ، ولكن يبدو أن الجيش المصرى لا يعترف بحجم عبد السلام ، فالسترة لا يكاد يزرر منها إلا زراران العلوى والسفلى .. أما الباقية فهى مفتوحة حتى تعطى لبطنه الفرصة للتحرر والانطلاق فهو يبدو كأنه قتيل متحرك ذو كرش مفتوح .. أو بطن مبقور .. لا سيما وأن البنطلون قد اشترك مع الجاكتة فى تهيئة فرصة التحرر هذه .. فلم تنطبق أزراره العلوية وبقى مفتوحاً من أعلى لا يستبقيه فى مكانه من بطن عبد السلام إلا « دكة لباس » ربط بها .

أما الحذاء فقد بدا كأنه من الممتلكات السابقة لأستاذ القانون .. إذ به أثر

لصفرة حائلة وبه نفس الكعب العالى الذى تعوّد أن يلبسه الأستاذ .

وأقبل عليها عبد السلام مرحباً وهى تهرول مسرعة نحو المدرّج فقال لها :

ـــ على مهلك يا ست سامية .

ـــ عندنا درس إنجليزى . المستر « لى » يكره التأخير

ـــ إن المستر « لى » لم يأت

ـــ لم يأت بعد ؟

ـــ ولا قبل ، ولن يأتى .. إنه لم يحضر من أجازته من بلده ، وقد عينوا بدله مدرّساً جديداً .. جدع صغير ، لا يملأ العين ، لقد هزلت ، منذ بضع سنين كان الأستاذ ...

ولم تسمع « سامية » بقية حديثه عن الأساتذة منذ بضع سنين ، بل طرقت الباب ودخلت ، وفى أذنها يطن قول عبد السلام « لقد هزلت »

حقاً .. لقد هزلت .. إنه هو بعينه ، الفتى التى قد ظنته طالبا .. إنه سيقوم بالتدريس لها ، هذه منتهى المهزلة .. ولكن لا بأس .. إنها لن تزيد عن حصة أو حصتين ، يحضر بعدها المدرّس الأصلى .

ونظر إليها المدرّس الفتى ، وأشار لها فى شىء من العبوس والتجهم :

ـــ تفضلى .

ماله يعبس هكذا .. كأنما يظن نفسه مدرّساً حقاً .. ولكنه لا شك يعتريه مركب النقص .. إنه بالطبع سيبالغ فى الجد .. حتى يبدو محترماً .. لا بأس عليه ، ستعرف كيف تزيل هيبته وعبوسه .

وكان قد وقف أمام المنضدة ، ووضع أمامه كتاباً مغلقاً وأخذ يتحدث بالإنجليزية الملتوية :

ـــ سنعيد ما قلنا من أجل الآنسة .. كنا نقول إن المنهج المقرر هذا العام سيشمل عصر النهضة ، ثم تطور الفكر فى أوروبا فى خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وسنقدم لهذا بالطبع بشىء عن الحضارة الإغريقية ثم دراسة

موجزة لعهد الاقطاع أو ما نسميه العصور المظلمة لأوروبا ، وسأملى عليكم الآن المراجع التى يمكن الرجوع إليها .

ثم أخذ يملى عناوين بضعة كتب إنجليزية

وكتبت هى حوالى عشرة عناوين ، ثم رفعت رأسها فى دهشة متسائلة :

ــ سنقرأ كل هذه الكتب ؟

ــ هذا هو المفروض

ــ وغير المفروض ؟

ــ إلا تقرئيها ترسبى ، ولا أظنك ستجدين دائماً من يذكر لك معانى الكلمات فى كل امتحان !

إذاً فهو يذكرها . يذكرها كمخلوقة غبية بالطبع.لا بأس ! ستريه كيف يحترمها . إنه مخلوق مغرور ، صعب المراس ، ولكنها ستعرف كيف تروضه

وعاود الأستاذ حديثه قائلا فى تؤده وثقة كبار الأساتذة :

ــ إن طريقتى فى الدراسة هى التركيز فى الجوهر ، وهذه هى الطريقة التى أنصح باتباعها ، إذا قرأ أحدكم كتاباً أو موضوعاً ، فيجب أولا أن يعرف الهدف الذى يرمى إليه الموضوع . ثم يتحسس بذهنه صلب الموضوع .. أو الأركان التى يرتكز عليها .. إن كل موضوع يرتكز على بضع نقط يمكن تلخيصها فى بضع كلمات .. أما طريقة العلاج أو الحشو فهى تأتى بعد ذلك فى الأهمية .. لأنك لو علمت النقط الأساسية ، لاستطعت بشىء من المران فى اللغة أن تملأ الموضوع .. على أية حال أنا أحب التركيز وأكره الإسهاب ، وأفضل لأى منكم أن يكتب فى الامتحان صفحة واحدة صواباً من أن يكتب أربع صفحات خطأ

وهزت رأسها فى شىء من الدهش وتمتمت قائلة :

ــ طبعاً هذا بدهى معروف .. مفهوم تماماً .. ولكن الذى نود التأكد منه مسألة أخرى .

ــ ما هى ؟

— إن صفحة صواب خير بالطبع من ثلاث صفحات خطأ .. ولكن عندما لا يعرف الإنسان الصواب (وهو الأمر الذى غالباً ما يحدث) فأى شىء تفضل .. صفحة خطأ أم ثلاثاً خطأ ؟

وحاول المدرّس أن يكسو نفسه حلة من الوقار وأن يكتم ضحكة توشك أن تفلت من شفتيه ، ولاحظت هى ذلك و لم تستطع أن تمنع نفسها من أن تقول له بسذاجة :

— اضحك ما شئت .. فالضحك ليس ممنوعاً على الأساتذة .. قد يحرّم الأساتذة الضحك على الطلبة ؛ ولكن الطلبة لا يحرّمونه على الأساتذة .

وضحك الطلبة .. وضحك المدرّس .

هذه الفتاة .. دمها خفيف ، ولكن يجب ألا يتساهل معها أكثر من ذلك ، إذ تبدو أنها من نوع لعوب .. يجب قمعها حتى لا تتمادى

وبعد أن تمالك نفسه أجابها فى تؤدة :

— صفحة من الخطأ تستوى مع ثلاث صفحات ، لأنى لن أقرأ سوى بضعة أسطر .. ثم أشطب الباقى .

— إذاً من الأفضل كتابة بضعة الأسطر التى ستقرؤها ولا داعى للباقى حتى نوفر عليك مشقة الشطب .

بهذا بدأت المعرفة بينهما ، هو يراها فتاة لعوباً ، قبيحة طويلة اللسان ، قليلة الأدب .. وهى تراه فتى دفعه الحظ إلى أن يسبقها فى الدراسة بسنة أو سنتين فأضحى مكانه أستاذاً لها ، بدل أن يجلس كتلميذ بجوارها أو بدلا من أن تكون هى أستاذة له .

هذه هى عقبة أخرى من العقبات .. ستزيلها من طريق المرأة .. يجب أن تتخذ المرأة مكانتها فى الجامعة كأستاذة وكعميدة .

صبراً .. صبراً .. أيها الرجال .. ستريكم الدكتورة « سامية » مركزكم وقيمتكم .

غيبة

٣

انتهى الدرس ، وكان الأستاذ يتحدث بطلاقة وثقة ، ولكنها مع ذلك أصرت على احتقاره ، وإن كانت لم تستطع أن تمنع عينيها من استراق النظر إلى وجهه وقوامه وثيابه .

إن وجهه جذاب ، ولكن ذلك لا يعنيها فى شىء ، ولن تشفع له وجاهته ، فهى لا بد أن تزيل غروره .

وغادر المدرج دون أن يلقى إليها بنظرة .. لقد أشار بتحية عامة للطلبة جميعاً ، تماماً كما يفعل كبار الأساتذة .

وأبصرته وهو يجلس فى سيارة صغيرة ثم يغادر الجامعة.وجلست هى بجوار صاحبها الذى تعوّد أن يوصلها إلى بيتها وتحركت بهما السيارة .

وفى الطريق سألها ببساطة :

ــ أتذهبين إلى السينما ؟

ابتدأت المحادثات ، وابتدأت السخافات ، هذه هى أول بشائر الهجوم العاطفى الصبيانى !

والتفتت إليه فى دهش وقالت :

ــ وهل هناك مخلوق متمدين لا يذهب إلى السينما ؟

ــ أعنى تذهبين وحدك ؟

ــ ولِمَ ؟

ــ أقصد أن نذهب معاً لكى نتسلى برفقة بعضنا

— إنى أذهب إلى السينما لمشاهدة السينما ، بحيث لا يكون لدىّ وقت للتسلية برفقة أحد ، وهذا لا يعنى أنى أكره أن أذهب إلى السينما معك .. فأنا أجلس أحياناً بجوار رجال ، إذ لا أستطيع أن أحجز صفاً من السينما ليكون خالياً لى ، ولا أستطيع أن أجلس فى (لوج) بمفردى .. وسواء عندى أن أجلس بجوار غريب أو بجوارك ، فلا أظنك ستضايقنى كثيراً .. ولكن ليس هناك ما يدعو لأن نذهب معاً عن قصد .. اذهب أنت إلى السينما وسأذهب أنا إلى السينما ، فإذا تصادف أن كانت السينما واحدة وتصادف كذلك أن كان مقعدانا متجاورين جلسنا معاً .. ولكنى لا أرى هناك ما يدعو أن نكلف نفسينا مشقة تحديد المواعيد وارتباط كل منا بموعد الآخر . ليس بيننا ما يحتم علينا هذه المشقة . أليس كذلك ؟ اللهم إلا إذا اعتبرت جميلك فى توصيلى إلى البيت بسيارتك ، يعطيك حقاً على ، ويحتم علىّ ردّه

وكانت قد وصلت إلى بيتها ، وأحس صاحبنا أنها قد لقنته درساً هادئاً ، ولم يملك إلا أن يقول لها متمتما :

— إنى آسف

— لا داعى للأسف .. كان لا بد من شىء كهذا لكى تفهمنى على حقيقتى .

وفى اليوم التالى عند انتهاء الدراسة وجدته يسير بجوارها متردداً ثم يهمس بقوله :

— هل أستطيع أن أوصلك كما تعوّدت ؟

وهتفت بصراحتها وسذاجتها :

— طبعاً .. إذا لم أكن قد أغضبتك بقولى أمس ؟

— لا .. لا .. إنى أرجو ألا أكون أنا أغضبتك !

— أبداً .. لا غضب مطلقاً ، نستطيع أن نعتبر المسألة انتهت فى وقتها .

وجلست بجواره فى السيارة كعادتها ، وأوصلها حتى البيت دون أن ينبس أحدهما ببنت شفة

ومرت بضعة أيام .. وفى يوم الأربعاء . أحست وهى ترتدى ثيابها للذهاب إلى الجامعة ، بشيء من الحبور والرضا .. لقد كانت منشرحة الصدر فى معظم أوقاتها ، ولكنها أحست بمزيد من الانشراح وهى ترتدى ثيابها .

كان انشراحاً أكثر مما يستلزمه ذهابها إلى الجامعة ، كان انشراح الذاهبة إلى حفلة لطيفة ، أو الذاهبة إلى السينما لتشاهد رواية جيدة . كان اليوم موعد الدرس الإنجليزى وسيسرّها أن ترى الأستاذ المغرور ، وتقدم إليه بعض ما عندها من المشاكسات والسخريات

إنها بالطبع ليست معجبة به ، ولو أن به بعض ما يستحق الإعجاب .. ولكنها فقط ، تجده موضع تسلية

وجلست فى المدرّج تنتظر هى وبقية الطلبة .. وكانت تسأل زميلها « الحلوف البيطرى »

ـــ ما آخر أنباء مرضاك ؟

ـ بخير والحمد لله ، يهدونك أزكى السلام .

ودخل صاحبنا ، الأستاذ الفتى ، وهو يتأبط كتابه ويكسو وجهه العبوس اللازم ، وبدأ دراسته جاداً .

استمر فى حديثه عن السفسطائيين وأفلاطون ومذهب الفرد والدولة ، وهى محدقة فيه ، يشرد ذهنها تارة ليجول جولة فى شتى المتناقضات ، ويحضر تارة أخرى ليلتقط بعض الرذاذ من المعلومات المتقطعة عن جورجياس وبروتاجوراس وأنتيفون وجلوكون ، ولم يحاول هو أن يوجه إليها نظرة واحدة رغم تنقل بصره بين الطلبة . كان يتجاوزها بنظره كأنها غير كائنة .

وضايقها ذلك وقويت لديها الرغبة فى تحديه ومشاكسته ، ولم يكن هناك بد من تركيز ذهنها لكى تعى ما يقول حتى تستطيع معارضته ومناقشته

وأنصتت إليه وهو يسترسل فى الشرح قائلا :

ـــ كان مذهب كاليكليز هو الرفض التام لعدل القانون العرفى والإيمان

المتطرف بأن الحق الطبعى هو القوة أينما وجدت ، لأن القانون جميعه نتاج للعقود التى صاغها الضعفاء ليخدعوا بها الأقوياء عن حقهم العادل الذى تخوّلهم إياه قوتهم ، فالقانون يشرع أخلاق الأرقاء وهى ليست أخلاقاً حقيقية ، لأن الطبيعة والقانون يتعارضان ، والطبيعة هى السنة الحقيقية للحياة الإنسانية ، وعدم المساواة هى قاعدة الطبيعة . أما العرف ، فيطالب الناس بالمساواة . والقوة فى كاليكليز هى قوة الجسم والعقل ، ولو نهض السربرمان فى قوته فسيلغى سيطرة القطيع وسيتجلى فيه عدل الطبيعة .

وهنا وجدت فرصة سانحة للجدل والمعارضة والمشاكسة ولكن الإقدام عليها لم يكن بالأمر اليسير ، ولم تكن المشكلة فى مجرد المعارضة ، فهى طويلة اللسان قوية الحجة ، ولكنها كانت فى لغة المعارضة .. لقد كان عليها أن تتحدث بالإنجليزية ، فهو — من فرط « غروره » — يرفض أن يقبل كلمة واحدة بغير الإنجليزية خلال الدرس ، وهى تعتبر إقدامها على المناقشة باللغة الإنجليزية مغامرة فى حد ذاتها . فهى لا بد أن تحضر فى ذهنها مقدماً ما تنوى قوله ، وكان هذا على صعوبته مستطاعاً أما الذى لم يكن مستطاعاً أبدا ، فهو الرد على ما يمكن أن يرد عليها به .. رداً سليما وسريعاً وبدون أخطاء .. وإلا أصبحت محل استهزاء وسخرية .

ورغم كل هذا فقد دفعتها روح العراك والمشاكسة إلى مقاطعته بقولها.

— هذا محض خطأ .. فالمساواة هى قاعدة الطبيعة .. ولقد خلقنا الله ....

وتوقف المدرّس عن حديثه ؛ ونظر إليها فى دهش وقال لها بهدوء :

— أولا .. هذه الكلمة لا تنطق كما تنطقينها ولكن تنطق كذا (ونطقها نطقاً سليما) ، أعيدى نطقها من فضلك.يجب عليك أن تتعوّدى النطق الصحيح

ولم تجد بداً من أن تكرر الكلمة عدة مرات كأنها تلميذة فى الروضة

وعاد هو يقول فى هدوء :

— وثانياً نحن لا نستعمل هذه الكلمة بالمعنى الذى تقصدينه ، ولكننا

نستعمل .. كلمة كذا .

أحست بالدم يتصاعد إلى وجهها ، والخجل يتملكها بعد أن أوقفها موقف الصبية الصغيرة بمنتهى السهولة .

واستمر هو فى قوله :

ـ وثالثاً أنا لا أحب أن يقاطعنى فى حديثى أحد

وهنا وجدت منفذاً لغضبها فقالت فى حدة :

ـ ولكن مادمت لا أقر رأيك هذا ، فيجب أن أبدى رأيى ..

ـ تستطيعين أن تنتظرى حتى نهاية المحاضرة ، ثم تبدى ما تشائين من الآراء .

ـ إن ما أريد أن أبديه كثير ، فأنا أخالف رأيك على طول الخط .. وإن لم أبد رأيى أولا فأولا .. فسأنسى فى النهاية ما أريد أن أقوله .

ـ تستطيعين أن تكتبى نقطاً تذكرك بما تودين إبداءه.ثم إنه ليس هناك ما يبرر أن تزعجينى وتزعجى نفسك بمخالفتى فى الرأى ، لأنه ليس رأيى أنا .. إنه رأى كاليكليز ، وقد أكون أنا نفسى أخالفه فى الرأى ، ولكن ذلك لا يمنع من عرض رأيه وشرحه ، وبعد كل هذا أرجوك ألا تقاطعينى .. وإلا اضطررت إلى منعك من حضور محاضراتى .

قالها فى حدة وشدة وإصرار ، ثم واصل الحديث فى موضوع المحاضرة .

واحمر وجهها خجلا ، و لم تملك سوى الصمت .. لقد كانت تحب الجدل ، ولكن ذلك لم يكن يدفعها إلى أن تبلغ حد الوقاحة .

كان أقصى ما فعلته هو أن قطبت جبينها وكست وجهها سيماء التجهم طول الدرس .

هذا الفتى المغرور قد هزمها فى المعركة وانتصر عليها أعظم انتصار .. لقد هزأ بها وسخر منها وعرف كيف يسكتها ، ويوقفها عند حدها ...

وجلست فى السيارة بجوار الأستاذ « أنور » المحامى وعلى وجهها علامات الغضب ، وتحركت السيارة فى طريقها إلى البيت .. ونظر إليها « أنور » فوجدها

مازالت مقطبة الجبين ، فقال لها فى رقة :

— لا تضايقى نفسك بما قال .. إنه وقح قليل الأدب ، جاهل محدث .. ثقيل الدم .. الحمد لله أنه لن يستمر فى التدريس طول العام ، فلا يلبث حتى يأتى المدرّس الأصلى ، ويريحنا من ثقله وغطرسته .

هذا ما قاله صاحبنا محاولا الترفيه عن نفسها . ولكنها مع ذلك لم تشعر من قوله بشىء من الترفيه .. بل أحست منه بضيق شديد .

والواقع أنها لم تكن فى حاجة إلى ترفيه .. إذ لم يكن هناك — فى قرارة نفسها — ما يحزنها ، ولم يكن عبوسها إلا استمراراً لذلك العبوس المصطنع الشكلى الذى كست وجهها به عندما نهرها المدرس !.

عجيب أنها لم تكرهه ، ولم تشعر بضيق منه ! وعجيب أن كرهت صاحبنا الذى يجلس بجوارها لأنه انهال عليه بالسباب ، وتضايقت منه لأنه ذكرها بأنه لن يستمر فى التدريس لهم حتى نهاية العام .

إن هناك ما يعجبها فى هذا المدرس الفتى المغرور .. قد يكون غروره ، وقد يكون شكله ، وقد تكون طريقة حديثه ، أو « ربطة كرافتته » ، أو تصفيف شعره .. شىء ما يحدث لها ذلك الانشراح الذى تحس به وهى مقبلة على درسه ، ويسبب لها تلك المتعة الخفية التى تحسها وهى ترقبه خلال انهماكه فى الدرس .

إنها ترقبه بنفس المتعة ، التى كانت ترقب بها « الأراجوز » فى طفولتها ولكنه ليس فى نظرها « أراجوزاً » . بالطبع . فهو يمتاز عنه بعض الشىء ملبسه أنيق ، وكبرياؤه أشد .

وابتسمت لنفسها وهى تتصور حاله لو سمع رأيها فيه ، وعرف أنه يشبه عندها « الأراجوز » .

وظن « أنور » من ابتسامتها أنه قد نجح فى تبديد عبوسها بسبب المدرس المأفون ، فأردف يقول ضاحكاً :

— على أية حال .. لقد عرفت كيف تهزئين به ، وتسكتينه .

كذاب منافق ، إنه هو الذى عرف كيف يهزأ بها ويسكتها ، ولكنها مع ذلك لم تملك إلا أن تجاريه فى قوله فقالت ضاحكة :

ــ وبسأريه إن شاء الله فى الدرس القادم ، سأعرفه قيمته ومركزه ...من أين حصل على شهادته ؟

ــ يقولون إنه حصل عليها من كمبردج ، لقد تخرّج حديثاً ...

ــ ألهذا ينفخه الغرور ؟

ــ محدث !

ــ سأريه من منا الذى سيمنع الآخر من حضور المحاضرات .

وكانت السيارة قد وصلت إلى البيت وستر الظلام قد بدأت فى التهدل ، وكان بالجو ريح أميل إلى البرودة والشدة ، تنفخ فى أشجار الكافور التى اصطفت على جانبى الطريق ، الذى قام به المنزل .

ومدت يدها تصافحه وهى تطلق ضحكة مرحة ساخرة ، وهمت بجذب يدها والدخول إلى البيت ، ولكنها أحست أنه قد تشبث بيدها مستبقياً إياها فى كفه .

وأصابتها دهشة خفيفة وارتباك بسيط ، واشتمت رائحة سخافة جديدة من صاحبها .

ويحه لقد نسى الدرس ، ولكنها ستعطيه درساً جديداً .

ولم تحاول أن تسحب يدها بحركة عنف فاستبقتها قليلا عله يتركها من تلقاء نفسه ، ولم تجد بداً من التشاغل بأى حديث حتى لا يزيد الصمت من حرج الموقف ، وقالت متسائلة :

ــ ماذا لدينا باكراً ؟

ولم يجبها ، وبدأ كأنه مصر على شىء .

وعادت هى تجيب نفسها :

ــ أظن ترجمة ؟

ولم يجبها أيضاً ، ولكنها سمعته يهتف باسمها بطريقة هامسة مرهفة .. هذا

الأحمق .. مصر على أن يلقى بحماقته ، ليلقها إذاً ولينته ، وأجابته على همسه بهدوء وفتور :

— نعم .

واستمر هو بنفس لهجته الحارة .

— أريد منكِ مطلباً !

ترى ماذا يريد هذه المرة .. لقد كانت السينما فى المرة السابقة ، أما الآن فلعلها تكون نزهة خلوية . كلهم كذلك يأبون إلا أن يندمجوا فى أدوار العشق والصبابة ، لا جديد على وجه الأرض .. أو لا جديد بين جدران الجامعة ، لقد كانت كل نظرة ترسلها .. أو كل كلمة رقيقة تقولها ، يؤولها متلقيها على أنها بداية غرام .

وأية غرابة فى أمر صاحبنا .. إذا كان الحلوف البيطرى ، قد بدأ ينسج حولها شباك غرامه .. ألم يعطها بالأمس « فلة » وسألها أن تحتفظ بها !!

وغيره ، وغيره .. من الزملاء والأساتذة ، زميلها الصيدلى ، وطبيب الأسنان ، وموظف الإذاعة ، هذا الخليط العجيب قد بدأ كله يصوّب إليها سهام الغزل والحب والتودد .. كل واحد على حدة وبطريقته المضحكة الخاصة . كل يريد أن يختص بها نفسه ، وهى لا تصدهم ، ولن تصدهم ، ولكنها — كعادتها — ستجعلهم يحبونها بالجملة كزميلة وصديقة ، لا كأنثى معشوقة .

. . وبدا لها أن صاحبنا هذا أكثر جدياً فى حبه وأشد هياماً ، فهو لا ينفك يصوّب إليها النظرات الولهى خلال الدرس ، لا يكاد يحوّل عنها بصره وهو يقف الآن شارداً واجماً ، وقد أطبق على يدها ، يأبى إفلاتها ، وهو يقول لها فى صوته الصب إن له مطلباً .

وأجابته فى لهجة لا تخلو من الاستنكار :

— ما هو ؟

وصمت برهة وبدا عليه التردد .

لعل الأحمق يريد موعد غرام ، أو مقابلة ما

فقالت له باسمة :

ــ أفصح وانته ، لا فض فوك . ماذا تريد ؟

وأخيراً نطق فى همس ووجل :

ــ أريد أن أقبل يدك .

وكان لا بد لها أن تضحك .. يقبل يدها مرة واحدة ؟ كأنها شيخ معمم مبجل ! ولى من أولياء الله !. ولكنها كتمت ضحكتها ، فهى لا تريد أن تسخر منه ولا تريد أن تشجعه .

وتمالكت نفسها وقالت فى هدوء :

ــ ولكن ليس هناك أى موجب ولا مبرر لتقبيل يدى . إن الزملاء لا يقبلون أيدى بعضهم .

وأجابها فى استعطاف :

ــ أرجوك .. لا تسخرى . إنك دائماً تأبين إلا مجابهتى بعقلك لا بعواطفك ، إنى أسالك بحسى ، فأجيبنى بحسك .

ــ وإذا لم يكن لدىّ حس ؟

ــ غير معقول ؟

ــ ولكنى كذلك ، إنى مخلوقة بعقل وبلا حس

ــ ولكن حتى بعقلك .. لا أظنك ترفضين أن تدعينى أقبل يدك .. إنها ستمنحنى متعة كبرى ، ولن تضيرك بشىء . لن تضير كرامتك ولن تؤذى مشاعرك .

ــ إننى لا أخشاها ، ولكنى أخشى ما تشجع عليه .. أخشى ما يمكن أن يتلوها أو يسأل بعدها .

ــ أقسم لك .. إنى لن أسألك بعدها شيئاً ، ولن أطمع فى شىء . إنها أقصى ما أريد

ولأول مرة أحست الفتاة المرحة .. الطليقة القلب .. المتحررة من قيود العاطفة ، المتملكة زمام مشاعرها ، المطيعة لعقلها ، الراضخة لسلامة تفكيرها .. لأول مرة تحس الفتاة بما يشبه رجفة فى القلب .

هذا المخلوق الرقيق المهذّب .. يعتبر تقبيل يدها هو أقصى أمانيه .. قد يكون أحمق .. ولكنه صادق مخلص .

وصمتت لحظة ، وتخلصت من جمودها وأجابته بصوت رقيق :

ـــ خذها

وفى سكون أحنى هامته ورفع يدها بمنتهى الرفق كأنه يخشى عليها من التفتت وألصق بها شفتيه برهة ، ثم تركها تهبط بهدوء وهمس :

ـــ شكراً .

وانطلق بسيارته فى الطريق المظلم ، ودخلت دارها وهى تهز رأسها عجباً !

قاتل الله كل قلب مرهف خفاق .. إنه يورد صاحبه موارد المذلة والضعف والحاجة .

قبلة من يدها ؟! ما قيمتها حتى يتوسل لطلبها كل هذا التوسل ؟!

يدها ؟!

وأخذت تقلب يدها .. ثم انطلقت منها ضحكة ساخرة . وهتفت :

ـــ حمقى .. مخابيل .. وقانا الله مثل مصيرهم

دخلت هى الدار ، وانطلق هو بالسيارة .. هى متعجبة دهشة ، وهو راض قرير هانئ سعيد .

يالها من مخلوقة عجيبة !! هكذا كان يحدث نفسه ، وهو يحرك عجلة القيادة ببطء بين يديه !

لقد عرف من قبلها الكثيرات وصاحب الكثيرات ، فهو إذاً لم يكن محدث غرام .. بل كانت سيارته الفخمة تسهل له اصطياد أية فتاة .. وكانت قلوبهن مفتوحة أمامه على مصراعيها .

ولكن هذه الفتاة ، من نوع لم يصادفه من قبل .. أو على الأصح ، هى ليست من نوع أصلا .. لأنها فرد بذاتها ، لا شبيه لها .. إن لها شخصية عجيبة مسيطرة ، وهى تجبر من أمامها على أن يضعها فى مستوى فوق مستواه .. وعلى احترامها قبل حبها .

إنه لا يشتهيها ولكنه يقدّسها .. رغم أنه عندما أبصرها أول مرة فى امتحان الدخول ، لم تثر به أى اهتمام نحوها ، ولا وجد بها ما يلفت النظر .

إنها أول مخلوقة تجعله يفكر فى الزواج .. إنه يتمنى لو تصبح أم أولاده وربة بيته ، ولقد خيل إليه أول الأمر أنها تبادله بعض الشعور ، وبدا له من رضائها وركوبها سيارته .. أنها تكنّ له إحساساً خاصاً ، ولكنه على مرّ الأيام تبين له أنها لا تعتبره أكثر من زميل .

واتجه إلى البيت مباشرة .. لم يمر على جروبى أو سميراميس حيث تعوّد أن يمضى وقته مع بعض الرفاق ، فقد كان يحس برغبة فى الاختلاء بنفسه . كان يرغب فى التمتع بطعم القبلة فى هدوء .

وصل إلى بيته فى جاردن سيتى .. بيت جميل مطل على النيل ، ووضع العربة فى (الجاراج) وانطلق يصعد الدرج فى خفة ومرح .

والتقى بأمه فطبع على جبينها قبلة ، ثم ذهب إلى حجرته وجلس فى الشرفة يرقب النيل . وعندما حان موعد العشاء وجلس هو وأمه وأبوه وإخوته ، سأل أمه ضاحكا :

ـ متى تنوين أن تفرحى بى ؟

ونظرت إليه أمه فى تشكك وسألته مستنكرة :

ـ بتتنأور والا إيه ؟

ـ أبداً والله .

ـ لِمَ ؟! ماذا حدث فى الدنيا ؟ أمات يهودى ؟

ـ أفى هذا غرابة !! إنى أتكلم جاداً

ـــ متى ؟

ـــ لا بد للإنسان أن يتزوج ويستقر .. إن الزواج أفضل شيء للمرء !

ـــ واللف ، والدوران ، والجرى وراء بنات الناس ؟ أتستطيع الكف عنها ؟

ـــ سأطلقها ثلاثاً .

ـــ عجباً !. ماذا جرى لك ؟ كنت دائماً لا أكاد أذكر سيرة الزواج أمامك حتى تهب فىّ كأنى كفرت .. كنت تقول عن الزواج جنون .

ـــ كنت طائشاً .

ـــ والآن عقلت ؟

ـــ جداً .

ـــ الحمد لله الذى هداك .. إن لدىّ عروساً لك .. مدهشة .

ـــ لست أريد عرائسك .. سأختار عروسى بنفسى ، نحن فى القرن العشرين ، لقد مضى عهد الخاطبة .

ـــ اختر من تشاء .

وتدخل أبوه فتساءل ضاحكا :

ـــ كيف يختار من يشاء ؟ يجب أن يعرضها على أبيه أولا .

وقالت الأم فى يأس :

ـــ لا تتعب نفسك .. إنه يهزر . مادامت لديه « المدعوقة » السيارة ، فلن يفكر فى الزواج .

ولكنه مع ذلك كان يفكر جدياً ، وكان لا يكاد يخلو إلى نفسه حتى يتخيلها بجواره ، تنهى وتأمر فى داره ، وتنهر وتزجر بنيه ، وتسأله ماذا يريد أن يأكل اليوم . وأين يريد أن يذهب .

إنه لن يسمح لها بإتمام الدراسة ، فليس هناك أحب إليه من أن يراها ترتدى فوطة بيضاء وتتحرك فى المطبخ أو تتجول فى الحديقة .. إنها توحى إليه دائماً

بالقدرة والحياة :

آه لو تركت يدها على شفتيه فترة أطول .. لقد كانت قاسية معه ، ولكنه يحب قسوتها .

وفى تلك اللحظة التى ازدحمت فى ذهنه الخواطر والأسئلة .. كانت هى — يعنى المخلوقة التى كان يفكر فيها — قد استلقت فى فراشها متمطية متثائبة، وكانت تحدث نفسها بمثل قوله .

كانت تقول لنفسها .. لقد كان قاسياً معى ، ولكنى أحب قسوته . ولم تكن تقصد صاحبنا الذى شرد ذهنه فيها .. بل كانت تقصد مخلوقاً آخر ، هى أبعد ما تكون عن ذهنه فى تلك اللحظة .

كانت تفكر فى الفتى مدرّس الإنجليزية .. الأحمق المغرور ، اللطيف المنظر ، وكانت تحس أنها تفكر فيه أكثر مما يجب .. ولكنها مع ذلك لم تحاول أن تنهى نفسها عنه .

إنها لا تنهى نفسها أبداً .. لأنها واثقة من نفسها مطمئنة إليها .

إنها إذا فكرت فيه .. كان تفكيرها لا يزيد على أنه (أراجوز) أو كما كانت تفكر فى (الأراجوز) عند انصرافها عقب مشاهدتها له .. تفكر كيف تحرّك ، وكيف تكلم .

ولم يكن هناك خطورة عليها من تفكيرها فى أراجوز طفولتها ، وكذلك لن يكون هناك خطر عليها من تفكيرها فى أراجوز صباها

أجل ! إنه لا يزيد على مبعث تسلية .

كان قاسياً فى نهره لها ، ولكنها لا شك قسوة مصطنعة .

لقد هزمها فى أول جولة ، ولكن صبراً .. الأيام دول ، والحرب سجال

وهكذا كان صاحبنا « أنور » مستلقياً على فراشه يفكر فيها كزوجة مثالية ، وكانت هى مستلقية فى فراشها تفكر فى « كمال » ، كلعبة مسلية لطيفة

ترى فيم كان يفكر « كمال » وقتذاك ؟ وأين كان ؟

كان فى داره .. الفيلا الكائنة بحدائق القبة فى أحد الشوارع المتفرعة من شارع (الملك) والتى كان يقطنها هو وأبوه والحاجة .

و لم يكن يفكر فيها بالطبع ، ولا كان يخطر بباله أن يفكر فيها .

إن كل تأثيرها فى نفسه لا يتجاوز وقت الدراسة . كان يراها مخلوقة لطيفة ، بوجهها المميز بين عشرات الوجوه ، المميز بدقة قسماته ودائم بسمتـه ، والفرجتان فى طرفى شفتيه .

كان بودّه لو استطاع إطالة النظر فى وجهها ، وبودّه أيضاً أن يبادلها مرحها وضحكها ونكاتها ورغبتها فى الجدل والمناقشة والمشاكسة ، فهو لم يكن قط مخلوقاً فظاً عبوساً ، ولكن لم يكن يستطيع أن يترك نفسه تفعل ما تشاء ، فقد كانت رغبته فى المحافظة على هيبته ووقاره ، تغلب أية رغبة أخرى . كان يخشى من هذه الفتاة المرحة أن ينساق معها فتذهب وقاره وتضيّع قيمته . فهذا النوع من الطالبات ، يجب أن يحذر منه ، فإن أى تشجيع لها سيجعلها تمعن فى مزاحها ومجونها . ولن يستطيع بعد ذلك السيطرة عليها أو ردعها ، ولا شك أنها ستثير حوله القيل والقال ، وهو ما زال فى مستهل عمله .

وعلى هذا عزم على أن يوقفها عند حدها . وكان صده لها ، وزجره إياها عن سابق تفكير ، فهو صدّ مع سبق الإصرار ، بل لقد كان يتحين لها الفرصة حتى يوجه إليها صدمة توقفها عند حدها .

ولكنه مع ذلك شعر بأسف شديد عندما أبصرها مقطبة الجبين عـابسة الوجه ، ولكن هذا أفضل حتى ترتدع .

ولكنه أساء إليها ، وأساء إلى نفسه ، فلا شك أنها ستحتفظ له فى ذهنها بصورة مشوّهة لا تطابق حقيقته ، ستتصوّره فظاً قاسياً جلفاً ، وهو ليس كذلك .

لتتصوره كما تشاء ، فهى لا تهمه فى شىء ، إنها تلميذة فحسب ...

ولكنه مع ذلك يستطيع على مر الزمن أن يضيع هذه الصورة المشوّهة . أجل . أجل . إنه سيمحوها من رأسها .

رويداً .. رويداً .

هذا هو أقصى ما طاف برأسه عنها ، فى الدرس ، وبعد الدرس ، وهو فى طريقه إلى السيارة ، متجهاً إلى داره .

لم يذكرها بعد ذلك قط ، ولم تخطر على مخيلته فقد كان فى ذهنه من المشاغل ما هو كفيل بطردها شر طردة .

كان فى اللحظة التى تفكر هى فيه وهى مستلقية فى فراشها قد جلس فى (الصالة) على مقعد خيزران أمام أبيه الذى اضطجع بدوره فى كرسى (فوتيل) وكان هو فى جلسته هذه محنى الظهر ، متكئاً بمرفقه على ركبته ، واضعاً ذقنه فى راحته ، وقد تدلت ذراعه الثانية فوق ساقه الأخرى .

وكان يبدو على الاثنين — الأب والابن — تجهم شديد ، ولم يكن السكون السائد بينهما ينبىء بخير ، بل كان يجزم بعاصفة على الأبواب .

وكان الابن أول من تكلم . قال :

— لقد استقر رأيى على أن أرسل فى إحضارها ، ما رأيك ؟

— ما دمت قد كبرت وأصبح رأيك حراً فى أن يستقر على ما تشاء ، فلماذا تستشيرنى ؟ ثم إنك تعرف رأيى تماماً فى الموضوع ، فما الفائدة من تكرار الكلام فيه ؟

— لست أعرف سبب إصرارك على رأيك .. لست أرى له أى مبرر ؟

— عجباً .. لا ترى أى مبرر لرأيى ؟ ولكنك ترى المبررات كثيرة لرأيك أنت . إنك ترى منتهى الحكمة والعقل ، أن ترسل فى إحضار زوجة أجنبية من لندن كأن مصر كلها قد عقمت فلم تنجب الزوجة التى تنفع لك ، وتملأ عينيك . ما شاء الله !! من تكون ؟ نبى ، أو إله ؟ وهذه الإنجليزية التى تنوى إحضارها ستعيش بها فى المجتمع المصرى بين أهلك المصريين وأصدقائك المصريين ؟ أم ترى تنوى أن تعيش بها فى السفارة الإنجليزية ، وفى نادى الجزيرة ؟ ستجعلها تهضم بسهولة المجتمع المصرى أم ستظل أنت متجلنزاً مثلها ؟ هل

تعرف أنها ستكون أما طيبة لأولادك المصريين المسلمين ؟

ــ لست أول من تزوج إنجليزية ، ولن أكون أول من ينجب أولاداً من إنجليزية :

ــ أجل . أجل . أعرف هذا .. لن تكون أولهم ، ولا آخرهم ، ولكنك ستكون أحدهم ، أحد هؤلاء « الولايا » الذين أنجبوا أبناء لا يمتون لهم بصلة ولا شبه ، ولا كان لهم سلطان على نشأتهم وتربيتهم . أنا أعرفهم جيداً.. أعرف واحداً منهم له ابن اسمه براين أو جم.. أو شيء من هذا القبيل، والرجل « المرأة » يقول من باب التفاخر ، إن ابنه لا يعرف العربية . وأعرف آخر مسلماً قد أنجب ابنة تذهب إلى الكنيسة فى كل يوم أحد ، وهى لم تسمع باسم محمد .. إلا كبواب فى بيتهم . وأعرف آخر يسمع بأذنيه احتقار امرأته للمصريين .. فلا يثور ، ولا يمنعها ، بل يشاركها فيه . فإذا سرّك أنت أن تكون أحد هؤلاء ، فإننى لا يسرّنى ــ بعد أن اشتركت فى ثورة ١٩١٩ لإخراج الإنجليز ــ أن أكون على آخر الزمن جداً لأحفاد إنجليز ، وأن آوى فى بيتى امرأة إنجليزية .. مهما دار الزمن ، ومهما فعلت وقلت ، فلن تنزع من نفسها احتقارها للمصريين .

ــ لا داعى لأن تسكنها فى بيتك ، فلم أطلب أنا منك ذلك ، سأعيش فى بيت مستقل .

ــ عش حيثما تشاء ولكنى لن أعرفك ، ولن أدخل لك بيتاً . سأقطع كل صلة لى بك ، وأعتبرك فى حكم الأموات .. فإذا لم يزعجك هذا كثيراً .. فأحضرها ، وتزوجها .

ــ لا داعى لهذا العناد والإصرار يا أبى ! أنت تعرف قيمتك لدىّ ، ومنزلتك عندى .. وتعرف أنه ليس لدىّ فى الدنيا سواك ، وليس لديك فى الدنيا سواى ، ولن يستطيع أحدنا أن يستغنى عن الآخر . وأنت رجل عاقل متحرر الذهن ، سليم التفكير ، سديد الرأى ، وما كنت فى وقت من أوقات حياتك بالرجعى الجامد ، بل كنت دائماً تتركنى حراً فى أن أختار ما يحلو لى ، فلماذا تصر على أن

تفرض علىّ مسلكاً معيناً فى أمر أنا وحدى الذى يجب أن يبت فيه ، أمر تتوقف عليه حياتى أنا ، وليست حياتك أنت .. إنى أكثر الناس فهماً لموقفى ، وتقديراً لمصلحتى وإدراكاً لما يجب أن أفعله !!

ــ افعل ما تشاء .

ــ سأفعل ما أشاء ، ولكن يجب أن تشاءه أنت أيضاً قبل أن أفعله ، يجب أن تكون مقتنعاً به تمام الاقتناع وإلا فلن أفعله .. حتى ولو أدى إلى تدمير حياتى وتبديد سعادتى .

ــ أقتنع بماذا ؟ إذا كنت تستطيع إقناعى فأقنعنى ؟ أقنعنى كيف أقبل أن أكون جداً لإنجليز ؟

ــ أى إنجليز ؟ لا تقل هذا أبداً .. إنى سأجعلها هى مصرية ، إنها تحبنى وتحترمنى ، وتحب المصريين وتحترمهم من أجلى .. إن نشأة الأبناء تتوقف على سيطرة الأب وشخصيته ، فإذا كان رجلا ضعيفاً قد جرفته شخصية امرأته فأنجبت أولاده حسبما تريد هى لا كما يريد هو ، فليس هذا داعياً لأن تتخذ الأمر قاعدة ، فتجعل كل ابن هو ابن أمه . ثم إنى أحبها .. ولقد اتفقنا على الزواج وانتهى الأمر . لقد كانت خير عون لى .. وأنا غريب فى بلادها .. إنها مرضتنى ثلاثة أشهر لم يغمض لها جفن ليلة واحدة ؟ إنها لم تخذلنى قط .. فكيف أخذلها الآن ؟

ــ إذاً هى مسألة شفقة ، ورد جميل ، ووفاء بوعد ؟

ــ ليكن هذا أو ليكن غيره ، أى ضرر فى ذلك ! لقد تركتنى حراً فى أن أختار كل شىء فى حياتى .. أفلا تتركنى حراً فى اختيار زوجتى .. على أية حال ، إذا كنت ــ بعد كل ما قلت لك ــ لم تقتنع ، فإنى لن أفعل إلا ما يرضيك ، فمشيئتك أولا ، ويأتى بعد ذلك كل شىء .

وصمت الأب وأطرق ، ومضت برهة سكون ، وأخيراً رفع رأسه ، وقال :

ــ ليس هناك ما يقنعنى بأن أكون جداً لإنجليز ، ولكنى مع ذلك لا أملك إلا

أن أترك لكَ الخيار فى أن تفعل ما تشاء .. إنك لم تعد صغيراً ، والمسألة كما قلت حياتك أنت وليست حياتى أنا .

ونهض الابن فضم الأب بذراعيه وقبله قائلا :

ــ لا تخش أن يكون أحفادك برَين وجيم ، سأنجب لك حنفى وزينهم وزكية وسنية ، وسأجعلهم يحفظون القرآن .. هذا عهد بينى وبينك .

و لم يملك الأب إلا أن يزيل العبوس من وجهه وينهض مقهقهاً .. وجلس « كمال » إلى مكتبه يكتب لصاحبته فى لندن يسألها الاستعداد للمجىء .. وإخباره بموعد مجيئها

* * *

مضى أسبوع على تلك الليلة .. والثلاثة : سامية وأنور وكمال .. لم يطرأ عليهم جديد .. « سامية » فى حياتها المرحة البسيطة بين أمها والزملاء وكراريس المحاضرات والسينما فى بعض الأحيان .. و « أنور » مندفع فى حبه الجديد .. وفى تصميم مشروع زواجه وحياته المستقبلة .. و « كمال » فى دروسه وانتظاره رد صاحبته .

وعندما حل يوم الأربعاء .. يوم المحاضرة الإنجليزية .. بدأ الانشراح المعهود يتسلل إلى نفس « سامية » منذ صباح اليوم .. بل منذ الليلة السابقة له .. هذا إذا تجاوزنا الانشراح الدائم الذى كان يداخلها طول الوقت .

كانت ترتب فى ذهنها الأحاديث والمشاغبات والمهاجمات ولكن لم تكد الساعة تبلغ العاشرة حتى أحست بتثاقل فى رأسها وسخونة فى جسدها .

واستلقت على الفراش ، تتطلب الراحة .. ولكنها ازدادت تعباً وشعرت بمرض يثقل عليها ساعة بعد أخرى ، فلم يحل موعد ذهابها إلى الجامعة حتى تغلب عليها المرض وكانت تستلقى فى إنهاك تام .

وأصابها ضيق شديد ، ضيق بالمرض كمرض ، وضيق بالمرض كمانع من ذهابها إلى الجامعة والتسلية بمشاهدة « الأراجوز » الذى يقوم بتدريس اللغة

الإنجليزية .. كان نفس الضيق الذى يصيبها عندما تمرض وهى طفلة فى يوم عيد أو قبيل نزهة لطيفة .

ولم يكن أمامها سوى الاستسلام والرقاد ، والتعرض لجزع أمها ، والرضوخ لأوامر الطبيب ونصائحه وأدويته، وكشف الأطعمة التى حرّم عليها تناولها .

وعندما دخل الأستاذ « كمال » إلى المدرج فى ذلك اليوم ، أحس بشىء من الخيبة .. وهو يبحث عن وجهها المميز الصبوح الضاحك ، فلا يجدها ، كان يود أن يزيل ما علق بذهنها عن فظاظته وغلظته ، وكان يأمل أن يتلطف معها حتى يذهب أثر نهره وزجره ، ولكنها بعدم مجيئها قد خيبت أمله .

لماذا لم تحضر ؟ أتراها قد غضبت منه ونوت أن تقاطعه فلا تحضر هى محاضراته من تلقاء نفسها ؟ أتراها قد أساءتها الإهانة إلى هذا الحد ؟ أجل .. لا بد أن يكون هذا هو ما حدث .

قاتله الله .. كان يجب أن يكون أكثر رفقاً بها فهى لم تفعل ما تستحق عليه أن ينهرها بمثل هذه القسوة .. وهى مخلوقة لطيفة مهذبة . إنه يشعر كأن المدرج ينقصه شىء هام ، ينقصه شىء من الرونق والبهاء كانت تضفيهما عليه ، ولا شك أن بقية الطلبة يشعرون بذلك ويفتقدون غيابها ، فهم وجوم كالبوم ، ولكن ربما لا تكون قد غضبت ، وربما تكون آتية فى طريقها ، أو تكون تأخرت بعض الوقت .

أجل .. إنها لا شك قادمة فى الطريق .

وبهذا الاقتناع ، استمر يلقى درسه ، وهو ينتظر قدومها بين آونة وأخرى ، ولكن الدرس انتهى دون أن تحضر .

وتمنى لو استطاع السؤال عنها ، ولكن خشى أن يثير سؤاله لغط الطلبة ، وهم — كما يعرف جيداً — سفلة رعاع ، يجيدون اللغط والتشكك وإثارة الإشاعات .

لا .. لا .. يجب ألا يسأل عنها .

ولكن لِمَ ؟. إنها طالبة ضمن بقية الطلبة والطالبات ، وهو أستاذ ، وليس بعجيب أن يسأل أستاذ عن طالبته ، عندما تغيب ، على الأقل من باب الذوق وتأدية الواجب . إنه لا شك سائل عن أى طالب عنده إذا ما غاب ، ولكن أحقاً سيفعل ذلك ؟ بل .. أحقاً سيكشف غيبة أى طالب إذا ما غاب ؟ بل هل يعرف وجوه الطلبة الذين يدرس لهم واحداً واحداً !! حتى يميز من غاب ومن حضر ؟!

إنه يمكر بنفسه ويخدع نفسه ، ومع ذلك فسيسأل عنها ، ليقولوا ما يقولون فلا بد من الاطمئنان عليها .

وفى طريقه إلى الباب تمهل قليلا ثم تساءل بطريقة سريعة عابرة :

ـــ أين ؟

وأشار إلى مكانها الخالى ، ولم ينطق باسمها كأنه لا يعرفه ، ثم حاول تعريفها بقوله فى سخرية :

ـــ .. صاحبتنا الثرثارة ؟

وتطوّع أحد الطلبة بالرد قائلا :

ـــ لم تحضر اليوم .

ـــ خيراً .. ماذا بها ؟

ـــ لا أعرف .. لقد كانت هنا أمس وأول أمس ، ولم تغب إلا اليوم .

لعلها غاضبة كما توقع ، أو لعل عذراً طارئاً قد منعها . لا بأس .. سيراها فى الأسبوع القادم .

ولم يطل المرض بـ « سامية » فقد كان مجرد إنفلونزا ، لم تلبث حتى أبلت منها فى اليوم التالى .

وواصلت « سامية » كعادتها ذهابها إلى الجامعة فى بقية الأيام .. حتى حل يوم الأربعاء التالى .

وكان الطلبة قد أنبأوها بسؤاله عنها ووصفه إياها .. « بالثرثارة » .

ولقد أظهرت امتعاضها واستياءها ووصفته بأنه « قليل الأدب » ، ولكنها فى باطنها سرّها كثيراً أن يسأل عنها ، وأن يفتقد غيابها ويصفها « بالثرثارة ».وماذا فى ذلك ؟ ألا تصفه هى فيما بينها وبين نفسها « بالأراجوز الإنجليزى » ؟

لقد سرّها أن يزج بنفسه معها فى معركة ، فهى تستطيع أن تعتبر وصفها بالثرثارة كتحد منه ، وأن تستند إليه كبداية معركة طويلة .

وكانت ترسم فى رأسها الخطط وتحضر الأقوال حتى أضحت تحفظها عن ظهر قلب .. كانت لا تريد أن تخطئ فى الإنجليزية ، حتى لا تدع له مجالا للسخرية بها ، ولإخراجها عن موضوع الحديث .

أعدت الأقوال وحفظتها .. ومع ذلك لم تقلها .. لأنها لم تذهب .

كانت أمها هذه المرة هى السبب .. فلقد استيقظت متوعكة المزاج ، وظلت فى فراشها طول اليوم .. مرتفعة الحرارة مثقلة الأجفان ، ورغم أن « سامية » كانت تتوق إلى الذهاب إلى الجامعة فى هذا اليوم بالذات .. ورغم أن بقاءها فى الدار كان سيثقل عليها كثيراً ، فقد اضطرت إلى البقاء لأن أمها كانت أعز عليها من كل شىء ، ولم يكن هناك سبب — أياً كان — يجعلها تترك أمها فى مرضها .

أمنية تتحقق

٤

أقبل « كمال » على الدرس وقد أعد فى ذهنه ما يمكن أن يصالحها به ويزيل كل ما علق بنفسها منه ، وكان لا يستطيع أن ينكر من نفسه ذلك الحنين إلى رؤيتها والشوق إلى سماع جدلها الإنجليزى الركيك .

ولم يحاول أن يكسو وجهه ذلك العبوس المصطنع الذى كان يتخذه كلما دخل الفصل ، فقد شغله التفكير فيها .. عن التفكير فى وقاره وهيبته ، ولكن العبوس ما لبث حتى علا وجهه .

هذه المرة .. كان عبوساً طبيعياً ، منشؤه أنه لم يجد الوجه المحبوب لديه مرة أخرى .. ما بالها لم تأت بعد ؟. أمريضة هى ، أم غضبى ؟

ولم يستطع أن يكتم السؤال فى جوفه طويلا ، فقد كان ضيقه من غيبتها لا يدع له مجالا للتروى والتمهل .

وسأل ببساطة :

ــ ألم تحضر سامية ؟

وتطوع جارها بالإجابة :

ــ لقد حضرت طيلة الأسبوع ، ولم تغب إلا اليوم .

إذن فقد ذهب الشك ووضح اليقين .. إنها غضبى !

الحمقاء الصغيرة !! أتنوى حقاً أن تقاطع محاضراته ؟ ولكن علام كل هذا ؟! إنه لم يفعل ما يغضبها بهذا القدر .

ولكن ألم يهددها بالطرد من محاضراته ؟ ياله من وقح محدث ؟! كان يجب أن يكون أكثر من هذا أدباً . لو لم تكن الفتاة مهذبة لعرفت كيف ترد عليه وتسخر منه كما سخر منها ...

ولكن ما العمل الآن ؟ إنه على أتم استعداد لأن يعتذر لها فى صراحة .. وأمام الطلبة إذا أرادت . ولكن كيف يعتذر .. إذا كانت لا تأتى فى يومه ؟ كيف

يلقاها ؟ أيحضر لها فى أى يوم آخر غير يوم محاضراته ؟ ولكن ماذا يقول الطلبة ؟ إن هذا هو حقاً مما يستدعى لغطهم وأقاويلهم .. سيقولون إنه أتى خصيصاً لمقابلتها .. وهو المفروض فيه أن يكون أستاذاً محترماً ؛ لا .. لا .. إنه لن يفعل هذا .. لعنة الله عليها .. مخلوقة متعبة .

ولكن هناك طريقة أسهل ، قد تكون ناجحة وتردع الفتاة .. إنه يستطيع أن يلجأ إلى تهديدها ، وأن يطلب من الطلبة تحذيرها من التخلف وإلا فقد يخفض نسبة الحضور التى يجب أن تحصل عليها واضطر إلى حرمانها من الامتحان

أجل .. أجل .. هذه خير وسيلة .

ولكن من يدريه أن الفتاة العنيدة لن تركب رأسها وتتحداه فلا تحضر .. وهى لن تعدم الوسيلة فى الدخول إلى الامتحان كما يفعل معظم الطلاب .

على أية حال يجب أن يفعل شيئاً .

وأخيراً استقر رأيه على حل وسط .. وقال للطلبة ببساطة :

ــ إذا حضرت فى الغد فأنبئوها ألا تتغيب عن الدرس القادم .. وإلا فلن تستطيع اللحاق بنا بعد ذلك .

هذا قول معقول جداً ، لن يثير لغط الطلبة ، ولن يثير تحديها

وفى اليوم التالى أنبأوها بقوله .. وتملكها منه غبطة شديدة ؛ وإن كانت تعرف أنها لم تكن فى حاجة إليه .. فقد كانت عازمة على الحضور فى الحصة القادمة مهما حدث .

ومضى الأسبوع .. و « أنور » مستمر فى توصيلها كل يوم كعادته ؛ ولم يكن يحاول أن يزعجها بشىء من مظاهر حبه .. ولم يضايقه هذا .. فقد كان قانعاً برؤيتها كل يوم فى المعهد .. وتوصيلها إلى بيتها ، قريراً بآماله فيها ، مطمئناً إلى مستقبله معها .

وفى يوم الأربعاء التالى .. كانت قد أعدت نفسها مرة أخرى للمعركة . ولكن استعدادها هذه المرة قد طرأ عليه شىء جديد ، لم يكن مجرد استعداد ذهنى .. بل استعداد شكلى

كان سلاحها دائماً هو عقلها ولسانها ، فما حاولت قط ـ كما سبق القول ـ أن تستعمل سلاح المرأة الطبيعى فى أى هجوم لها ، فقد كانت تزدريه كسلاح ، وكانت ترى نفسها أسمى وأعقل من أن تستعمله .

ولكنها اليوم أطالت الوقوف أمام المرآة ، وأخذت تدور حول نفسها وترفع رأسها وتدير عنقها يمنة ويسرة .

« مش بطالة » !!

ولو فكت هذه العقصة فى شعرها وتركته ينسدل على كتفيها لبدت أحسن كثيراً .. أجل .. هكذا .

ووجهها « فى جملته » لا بأس به ، وعندما تضحك يكون شكلها أفضل ، فالغمازتان تضفيان عليها نوعاً من الفتنة .

وضحكت فى المرآة ، ثم عادت فعبست ، وعادت فضحكت مرة أخرى .

ما هذا البله الذى صارت إليه ؟. يجب أن تحتشم ، فهى فتاة عاقلة .. تدرس دراسة عليا ، وتنوى الحصول على الدكتوراه ، وستصبح فى يوم ما شيئاً هاماً فى هذا البلد الذى ليس به أى شىء هام .

ولكن ما دخل هذا فى أن ترى شكلها .. و .. ليس هناك من يراها .. وهى تستطيع أن تفعل فى خلوتها ما تشاء . .

إن جسدها لا بأس به . إن الثياب لا تبديه كما يجب ، إنه بلا ثياب أفضل كثيراً .. فالثياب لا تظهر جيداً بروز ثدييها واستدارة ردفيها .

ولكن لِمَ تريدأن تظهر هذه الأشياء التى لم تحس بها من قبل ؟ إذا كانت الثياب لا تظهرها ، فلتسر بلا ثياب ، وماذا فى ذلك ، ألم تجن ؟! إن هذا هو ما ينقصها بعد كل ما فعلت .

لعنة الله عليها .. إن فى نفسها كثيراً من التفاهة المستترة ، إن الناس مخدوعون فيها كثيراً ، يجب أن تعقل وأن تحتشم .

ولكن بعض الأحمر الخفيف جداً ، الذى يكاد لا يظهر . لو وضع على

خديها ، لجعلها تبدو أكثر بهاء وأكمل رونقاً .

وما من داع هناك لهذا التأيير ، «ككبيرة المرشدات» إنها تبدو أكثر امتلاء وفتنة فى الفستان الحريرى الأزرق ذي النقط البيض .

لكن لمَ كل هذا ؟

أمن أجل «الأراجوز» ؟

لا .. لا .. !!

ونفت بشدة عن نفسها هذا الجواب ، إنه مجرد تغيير ، لا أكثر ولا أقل .

ومن يكون هو .. حتى تلبس من أجله ثوباً مخصوصاً ؟

وانتهت من ارتداء ثيابها ، وأنبأتها آخر نظرة عما فى المرآة ...أنها جميلة ، بل جميلة جداً .

وأكدت لها أمها حديث المرآة بقولها وهى منصرفة نحو الباب :

ــ ما هذا الجمال والأناقة .. أذاهبة إلى حفلة ؟

ولم تعرف كيف تجيب ، ولكنها اضطرت إلى الكذب فقالت موافقة باختصار :

ــ أجل !

ــ أى حفلة ؟

ــ حفلة شاى لتكريم الأساتذة .

وغادرت البيت متجهة إلى الجامعة .

وعندما اجتازت بهو الكلية فى طريقها إلى المدرّج صادفت فى طريقها «عبد السلام» الفراش فحياها قائلا :

ــ أستاذ الإنجليزى سأل عليك . فقلت له لم تحضر بعد .

ــ وأين هو ؟

ــ جالس فى حجرة الأساتذة .

وأحست بدافع خفى شرير يدفعها إلى أن تذهب لمقابلته فى حجرة

الأساتذة .. لِمَ يسأل عنها ؟ لا شك أنه يريدها فى مسألة عاجِلة !

واتجهت رأساً إلى حجرة الأساتذة وهى تعلم تماماً أنه ليس بينها وبينه أمور مستعجلة ، ولا غير مستعجلة .. وأنها تستطيع أن تنتظر فى حجرة الدراسة لتلقاه مع بقية الطلبة ، ولكنها مع ذلك لم تشأ أن تترك فرصة لقائه على حدة تفلت منها .. إنها تستطيع أن تكون أكثر حرية فى الاقتصاص منه .

« ثرثارة ! » ستريه أنها حقاً « ثرثارة » . وستريه كيف يهددها بالطرد من حصته .. حقيقة إن له جميلا سابقاً عليها وأنه لولاه لما دخلت المعهد ، ولكن ذلك لا يرغمها على قبول وقاحته ، والسخرية منها .

وبفرحة المقدمة على مشاهدة « الأراجوز » اجتازت باب غرفة الأساتذة ، فوجدته قد جلس وحيداً على أحد المكاتب وقد أخذ يقلب كتاباً بين يديه فقالت باسمة :

ـ نهارك سعيد يا أستاذ .

ـ أهلا وسهلا .. نهارك سعيد .

كان وجهه بادى البشاشة ، خالياً من تلك العبوسة التى تعوّدت أن تكسوه خلال الدراسة ، لقد سبب دخولها المفاجئ عليه فرحة شديدة لم يستطع أن يخفيها ، بل لم يأبه لأن يخفيها .. ولا سيما وأنهما وحدهما .

وسألته فى لهجة جادة :

ـ بلغنى أنك سألت عنى ؟

ـ أجل !

ـ من أجل ؟

وحاول أن يكسو وجهه مظهر الجد وأجاب بقَوله :

ـ من أجل مصلحتك ، إنى أخشى إن استمررت فى التغيب أن تكون النتيجة رسوبك فى نهاية السنة .

ـ لم أعرف الرسوب فى حياتى .

— لا يمنع ذلك من أن تعرفيه الآن .. فلا بد أن يعرف الإنسان كل شىء . حتى الفشل .

— أهذا كل ما تريدنى لأجله ؟

وعلت وجهه ابتسامة ، وزالت عنه مظاهر الجد وهو يقول ضاحكا :

— ولقد أوحشتنى غيبتك ، وخشيت أن أكون قد أسأتك فى المرة الأخيرة وأردت الاعتذار إليك .

— شكراً .. المسألة بسيطة لا تستحق الاعتذار.ولقد كنت أنوى ردّها إليك ، ولكن ما دمت قد اعتذرت .. فكفى الله المؤمنين القتال .

— الحمد الله على أنها « جت سليمة » .

ومضت برهة صمت .. أحس كلاهما بشىء من الارتباك ولكنه ما لبث حتى سألها :

— أتجدين أى صعوبة فى دراسة ما أخذناه حتى الآن ؟

— لا صعوبة ولا سهولة ، لأنى لا أعرف ماذا أخذنا .

— ولكن يجب أن تقرئ أولا فأولا .

— لا أستطيع .. إنى أنتظر حتى آخر العام .. وآخذها كلها جرعة واحدة ، كما نفعل تماماً بالدواء المر .

— إلى هذا الحد ؟

— وأكثر . إنى لا أكره شيئاً فى حياتى كاللغة الإنجليزية ولى فيها ماض غير مشرف .

وضحك من قولها وأجابها :

— ولكن يبدو أن لك مستقبلا مجيداً ؟

— بعد هذا العمر ؟

— ولم لا ؟

— إنى أقول .. يا الله حسن الختام .. لا أمل لى فى إتقان هذه اللغة اللعينة .

— ولكنى أستطيع أن أجعلك فيها قوية جدا .

— وكيف ؟

— بالقراءة .. اقرئى كثيراً .

— أقرأ كثيراً ؟ ولو كنت أستطيع أن أقرأ كثيراً ، أعتبر نفسى ضعيفة فى الإنجليزية ! . إنى لا أستطيع أن أقرأ لا كثيراً ولا قليلا .. ليس أثقل علىّ من قراءة الإنجليزية .. إنى أقرأ كثيراً جداً .. ولكن بالعربية .. لغة بلادى .. أما بالإنجليزية فإنى أكاد لا أقرأ إلا الدروس .

— شيئاً فشيئاً ، يجب أن تبتدئى بالقراءة فى موضوعات سهلة لطيفة مشوقة .

— مثل ؟

— هذا الكتاب الذى فى يدى مثلا ، إنه مجموعة قصائد الشاعر كيتس .. آية فى البداعة .. لن تمليه قط .

— شاعر إنجليزى ؟ أنا أقرأ شعر إنجليزى ؟ إنك حسن الظن بى !

— ولِمَ لا تقرئينه ؟

— لأنى لا أفهمه .

— إنى أستطيع تفهيمك وشرح ما يبهم عليك .

— ومن أين لى بأستاذ مثلك أستعين به فى كل قراءة . الأساتذة ليسوا بمثل هذا الرخص وهذه الوفرة ، إذا كانت كل تلميذة تستطيع أن تحصل على أستاذ يبقى تحت تصرفها ليشرح لها كل سطر ، لما بقى فى مصر جاهل ولا جاهلة .

— أنت غلباوية .. قلت إنى على استعداد لمعاونتك فى القراءة ، وأنا أعنى ما أقول . على أية حال خذى الكتاب وحاولى أن تقرئيه .. وفى المحاضرة القادمة أنبئينى عما استطعت قراءته .

ودقت ساعة الجامعة مؤذنة بالرابعة ، فنهض من مكانه وهو يعطيها الكتاب فأخذته وهى تقول :

— شكراً .. سأحاول قراءة أكبر قدر ممكن منه .. وسأستعين بالقاموس .

ـــ أظننا قد اصطلحنا ؟

ـــ طبعاً .

ـــ لم يبق فى نفسك شيء منى ؟

ـــ شيء واحد .

ـــ ما هو ؟

ـــ لم أنبئك بعد برأيى فى كاليكليز .

ـــ دعينا منه .. إنه سخافة دراسية .. هذه أشياء لا بد من قولها .. لأنها فى البرنامج .. لا تضايقى ذهنك بها كثيراً .

ودخلا معاً مدرج الدراسة .. وجلست هى فى مقعدها وجلس هو على منضدته وبدأ الدرس .

وفى خلال الأسبوع التالى لم يكن لها من عمل سوى القراءة فى كتاب « الشعر » .

حقيقة أنها كانت ضعيفة فى الإنجليزية ، ولكنها كانت قوية الإرادة .. شديدة الجلد .. وكانت تعتبر المسألة واجباً لا تسلية ، فقد أرادت أن تكون كفئاً للنقاش معه وألا يعاملها كمجرد تلميذة .

وانتقت قصيدة قصيرة سهلة .. وانكبت على حفظها .

وفى يوم الأربعاء ذهبت مبكرة عن موعد الدراسة ما يقرب من نصف الساعة .. وسألت عنه عبد السلام .. فأنبأها بوجوده فى المكتب .

لقد التقى الاثنان فى خططهما ، لقد قدم هو مبكراً بأمل أن تكون هى قد جاءت مبكرة ، وقدمت هى معللة بنفس الأمل .

وقصدت توا إلى حجرة الأساتذة .. وطرقت الباب طرقاً خفيفاً .. ثم دلفت إلى الداخل قائلة :

ـــ نهارك سعيد يا أستاذ .

ـــ نهارك سعيد يا سامية .

كانت المرة الأولى التى يناديها بغير « يا آنسة » وأحبت منه نطقه باسمها .. أو أحبت اسمها حين نطق به .

ومدت يدها إليه بالكتاب وهى تقول :

— شكراً .. كتاب لطيف .. لم أجد صعوبة فى قراءته ، على عكس ما كنت أظن .

— ألم أقل لك ؟.. ماذا أعجبك به ؟

وكان هذا السؤال الذى أعدت نفسها تماماً للإجابة عليه وأخذت تسرد عليه بضعة عناوين ، وفى النهاية قالت :

— أما القصيدة التى هزت مشاعرى فهى قصيدة « عيد الميلاد » لقد قرأتها مرتين فحفظتها عن ظهر قلب .

ثم اندفعت تتلوها .

فلما انتهت قال بإعجاب :

— مدهشة ! لماذا تدعين إذاً كرهك للإنجليزية ؟

— الظاهر إنى شاعرة دون أن أدرى .. أو شاعرة .. دون أن أشعر .. لقد أحببت الشعر كثيراً .

— وعلى ذلك لست فى حاجة لمساعدتى ؟

— بل فى أشد الحاجة إليها .. إن هناك قصائد كثيرة لم أفهمها .

— نقرؤها معاً إذاً !

— متى ؟

— فى أى وقت تريدين .

— وأين ؟

— حيث تشائين .. إنى تحت أمرك .

هكذا مرة واحدة ؟ هذا العبوس المغرور المتكبر قد أضحى تحت أمرها .

وبدون كثير تفكير قالت متسائلة :

— بعد انتهاء الدرس ؟

— ليكن .

— أين ؟

— يوجد كازينو هادئ على النيل .. نستطيع القراءة به فى أتم هدوء .

— كما تشاء .

وغادرت الحجرة متجهة إلى مدرّج الدراسة .

طائشة .. حمقاء ؟! لقد أحست لأول مرة فى حياتها أنها قد اندفعت فى خطأ .

ما هذا الذى فعلته ؟ أى شعر هذا الذى ستقرؤه معه فى كازينو على النيل ؟ كازينو هادئ ، أشبه بملجأ للعشاق .

أبينهما من العشق ما يستدعى هذا الحرج والاندفاع ، وتعريض السمعة للأقاويل والشبهات ؟

إن حجتها دائماً فى كل ما أقدمت عليه ، هى أنها سليمة القصد .. وبسلامة قصدها كانت تدحض كل إشاعة سوء تلحقها . إنها كانت تقدم بشجاعة على كل ما توحى به نفسها . لم تكن تأبه كثيراً بأقوال الناس ، ما دام غرضاً صائباً .. وكان الناس يحترمونها دائماً فى النهاية ، ويندمون على ما قد ظنوه بها من سوء .

ولكن الآن .. هل تستطيع أن تحتج على هذا العمل الأخرق الذى توشك أن تقدم عليه .. بحسن القصد ، أو بصواب الغرض ؟

لا .. لا .. يجب ألا تخدع نفسها .. يجب أن تكون صريحة فى هذا الأمر .. على الأقل مع نفسها .

إن هذا الشخص بالذات قد نال من نفسها اهتماماً خاصاً واتخذ مركزاً ممتازاً .. إنها تشعر من التفكير فيه بسرور .. وسواء ادعت أنه كالأراجوز ، أو غير الأراجوز .. فهى تحب لقاءه والتفكير فيه . ومن العبث أن تنكر هذا ..

وهى بلا شك لا يهمها كثيراً .. الشعر الإنجليزى .. ولو قال لها قائل :

اجلسى فى كازينو على النيل واقرئى كتاب شعر إنجليزى لضحكت ملء شدقيها ، واتهمته بالجنون .

أما الآن فهى تقدم على هذا العمل ببساطة وبرغبة .. لأنه سيزيد على الشعر الإنجليزى والكازينو على الشاطئ ، شىء جديد ، هذا الشىء هو : هو .. فوجوده إذاً جعل ما كان الإقدام عليه يسمى جنوناً .. قد أضحى عملاً طبيعياً لا غبار عليه .

إذاً فهو قد أضحى نقطة التحول فى تصرفاتها وفى تفكيرها وهى لا تستطيع أن تنزعه من نفسها ، ولا تستطيع أن توقف تلك المشاعر الداخلة فى باطنها ، التى يثيرها فيها .. مشاعر السعادة والمتعة . هذه أشياء أصابتها برغمها ، وستبقى برغمها أرادت أم لم ترد .

ولكن ذلك لا يمنع من أنها تستطيع بشىء من الإرادة السيطرة على أعمالها الظاهرة ، والحد من ذلك الاندفاع ، والحرية التى كانت تسمح بها تصرفاتها من قبل ، عندما كان باطنها خالياً .. لا يشوبه شعور معين .. ولا يتجه لناحية بالذات .

أجل ! يجب عليها من الآن أن تتصرف بحذر .

عندما كانت خالية بريئة ، كان لها أن تفعل كل ما تشاء . أما الآن وهى تشعر فى داخلها أنها مذنبة ، وغير خالية . فيجب أن تتروى ، وأن تحسب حساباً لأقوال الناس ، وإشاعاتهم ، لأنهم هذه المرة سيجدون أساساً يستندون إليه .

كل ذلك دار بذهنها وهى تجلس أثناء المحاضرة .

وكان تفكيرها إذ ذاك منطقياً سليما .. انتهى بها إلى وجوب الاعتذار عن موعد اليوم .. لا اعتذاراً نهائياً ، ولكن تأجيله إلى « فرصة » مواتية تكون فيها الأمور أكثر تدبيراً .

ولم يخل ذهنه هو أيضاً من نفس التفكير .. لقد اقتنع بأنه يميل إلى الفتاة ، وأنه يسعد بلقائها والحديث معها .. ولكنه اقتنع أيضاً بأن من الحمق والوقاحة أن

يخرج وإياها من الجامعة أمام الطلبة فى سيارته ، وأن يجلسا معاً فى كازينو .. أقل ما يقال فيه إنه ليس مكاناً لدراسة شعر ، ولا للقاء أستاذ بطالبة !

وهكذا ما كاد ينتهى الدرس ، حتى تبعته وهو فى طريقه إلى حجرة الأساتذة وقالت له :

ـــ أظن من الخير أن نؤجل موعد اليوم يا أستاذ .. لأنى تذكرت أن لدىّ عملا هاماً .

ـــ حسن .. نستطيع أن نؤجله إلى أى وقت تشائين . أى موعد يناسبك ؟

ـــ فى الغد .. فى مثل هذا الوقت سأنتظر عند محطة الجيزة .. ولا أرى داعياً للجلوس فى هذا الكازينو.. فأنت تعلم أقوال الناس .

ـــ أجل ! أجل . سنتفق غداً على أى مكان ترغبين .

وركبت السيارة مع أنور إلى البيت فى هذا اليوم كعادتها وهى شاردة واجمة .. وعندما ذهبت إلى الفراش لتستسلم للنعاس أصابها الأرق طويلا قبل أن يغمض لها جفن .

كانت قلقة . إنها تعوّدت التحرر والانطلاق .. تعوّدت أن تذهب مع هذا وذاك حيث تشاء .. ولكن لم تشعر بمثل هذا القلق الذى تشعر به الآن ، إن بها قلق المقدم على مغامرة المقبل على أمر خطر .

وفى اليوم التالى اعتذرت لأنور عقب الدراسة وأنبأته أنها لن تذهب إلى البيت .. لأنها على موعد مع إحدى الصاحبات فى بيت قريب وستسير إليه على أقدامها .

وألحّ « أنور » فى توصيلها حيث تشاء ، ولكنها أصرت على الاعتذار شاكرة له جميله .

وبعد لحظات كانت تقف فى قلق ، وإحساس بالوزر ، فى ميدان الجيزة .. ولم تنتظر إلا قليلا ، حتى أقبل عليها « كمال » بسيارته واتجها فى طريق الهرم .

وران صمت طويل .. صمت بالإحساس بالخطأ .. ولم يحاول أحد منهما

بينه وبين نفسه أن يتعلل بالشعر ، فقد كان كل منهما يعرف أنه لم يكن أكثر من معبر للقاء . وأن كلا منهما يحب الجلوس بجوار الآخر ، ويرغب فى رؤيته ، وسماع حديثه .. هذا هو ما يريد كل منهما .. فلا داعى بعد ذلك للتعلل بالشعر ، والارتكاز على القصائد .

ومع ذلك فلم يجرؤ على المصارحة بمشاعره ولا سيما هو ، فقد كان يحس بفداحة ذنبه ، وعظيم جرمه .

كانت الأفكار تصطخب فى رأسه ، فلا تترك له فرصة للإحساس بمتعة وجودها إلى جواره ، والخلوة معاً فى مكان ناءٍ بعيد .

ما قصده من كل هذا ؟ إنه يحب الفتاة ويقدرها ويحترمها وكان خليقاً به ، والأمر كذلك ، ألا يندفع فى خلق علاقة بينهما تتجاوز علاقة المدّرس بالطالب . كان خليقاً به ألا يجلسها الآن بجواره حيث يتجهان وحيدين فى طريق خال بلا قصد معين أو بقصد مضحك ، هو قراءة كتاب من الشعر .

ماذا يريد منها ؟!

لو أنه إنسان غير مقيد ، لقالها بملء فمه : الزواج .

أجل ! إنها لا شك تستطيع أن تسعد أى مخلوق متزوج .. إنها مخلوقة نموذجية .

ولقد أحس منذ رأى وجهها وبسط عشرات الوجوه أن لها موضعاً خاصاً فى نفسه ، وأنها يمكن أن تكون ذات شأن فى حياته .

كل ذلك مقبول وحسن لو أنه حر يستطيع زواجها . أجل . ليس هناك ما يمنعه من الاندفاع نحوها والانسياق فى حبها ، ولقائها والخروج معها ، لو أنه يستطيع أن يختم كل هذا بخاتمة جدية .

أما أن ينساق معها لمجرد إرضاء النفس ، فهذا هو العبث والحمق ، وإثارة اللغط والأقاويل وتشويه السمعة ، سمعته وسمعتها .

إنه يعتبر نفسه فى حكم المتزوج ، ففى خلال أيام يصل إليه رد خطابه ، الذى

ستحدد فيه زوجته القادمة موعد مجيئها .

لقد كان أبوه على حق فى كل ما قال .

أجل . ليس هناك وجه للمقارنة على الإطلاق بين الفتاة الإنجليزية القادمة ، والمصرية الجالسة بجواره .

ماضرّ القدر لم ساقها إليه قبل ذلك بقليل ! ما ضرّه لو جعله يحس بقيمتها فى قلبه قبل أن يرسل الخطاب الذى حدّد به مصيره وقيد به نفسه ؟

أهو يحب الإنجليزية حقاً ؟ أم أن المسألة لا تعدو — كما قال أبوه — مجرد شفقة ووفاء بوعد ؟

أى وعد !! إنه لم يعدها بزواج ، ولكنه عاهد نفسه على أن يرسل فى طلبها بمجرد المجىء إلى مصر .. إنه مجرد عهد بينه وبين نفسه .

تباً له من مغرور أحمق !

ولكن ما فائدة كل هذا الآن . إن خير ما يفعله هو أن يكون رجلا ، فلا يحاول أن يزج بالفتاة فى علاقة لا فائدة له منها .. يجب ألا يورطها أو يتورط معها .

إلى هذا انتهى به تفكيره اليائس ، ألا ينزلق معها وأن يبعد نفسه عنها ، وأن يتحاشاها قدر ما يستطيع .

ولكنها لم تكن فى تفكيرها كذلك ، لم تكن قط يائسة ، على النقيض إنها كانت تحس — رغم قلقها من الجلوس بجواره — بالأمل ينساب أمامها .. أملا يفتح آفاقاً متسعة لم تتفتح من قبل .. كانت تشعر أن هذا المخلوق العزيز عليها الجالس بجوارها ، يمكن أن يصبح ملكاً لها فى يوم ما .. ويمكن أن تصبح ملكاً له ، وأن يضمهما بيت واحد ويربطهما أولاد مشتركون .. أجل . يمكن أن يكون كلاهما مخلوقاً واحداً .

هذا شىء جميل .. ممتع .. أمتع كثيراً من الدراسة والدكتوراه ؛ ورئاسة الحزب النسائى ؛ والوزارة ؛ ورئاسة الوزارة .. إن كل هذه تبدو سخافات ومهاترات أو زبداً ذاهباً جفاء .

أما هذا الاندماج الذى باتت تتلهف عليه . فهو الثابت الباق ، هو الربح الحقيقى الذى يمكن أن تحصل عليه من الحياة .

لقد كانت تعيب على المرأة جلوسها على قارعة الحياة ، ومد يده لعابر سبيل يتولى أمرها وتشاركه حياته وربحه ومصيره .

كانت تكره ذلك .. وتعيبه على النساء .. ومع هذا فلشد ما يسعدها أن تجلس الآن لتمد يدها إلى ذلك الجالس بجوارها لكى يتناولها ويضمها إليه .. ويمتلكها ويشرك مصيرها فى مصيره .

لقد كانت تكره تبعية المرأة للرجل .. ومع ذلك فلشد ما باتت — وهى تجلس بجواره مرهفة الحس — تتلهف على هذه التبعية .

إن المرأة إذا أحبت .. فهى تفضل مسح حذاء زوجها على رئاسة الوزارة .

حمداً لله .. أن خلق بعض النساء بحيث لا يمكن أن يندمجن فى حب ، حتى يستطعن المناداة بحق المرأة وحريتها .

كانت تشعر .. وهى تجلس بجواره .. أنها لأول مرة . قد باتت أنثى . وكانت تتوق إلى الالتصاق به والارتماء بين أحضانه .

هكذا كانت مشاعرها ، وذلك كان تفكيرها . ومع ذلك فقد كانت لا تملك إلا الجلوس فى قلق وشرود وخوف واضطراب .

وأخيراً وقفت العربة .. وسألها فى رقة :

— أتفضلين البقاء فى العربة .. أم الجلوس فى هذا المقهى ؟.

— الجلوس فى العربة أفضل .

وببساطة .. أخرج كتاب الشعر .. وفتحه وبدأ فى القراءة والشرح .

ما هذه الغباوة ؟ من قال له إنها تريد أن تسمع شعراً ؟ إنها تريد أن تسمع حديثه هو عن نفسه وعن آماله وعن حياته .

ومع ذلك فقد استمر فى القراءة والشرح .. كان عازماً على المقاومة ، وعلى الوقوف عند هذا الحد ، حد الأستاذ والتلميذة .

و لم تملك هى إلا الإنصات بذهن شارد تائه .

وأخيراً نظر إلى الساعة ثم قال :

ــ أظن هذا يكفى اليوم ، ومن الخير أن نعود الآن ؟

ــ أجل . يكفى هذا اليوم .

وأدار العربة ثم عاد من حيث أتى .

وتملكها أثناء عودتهما خليط من الإحساس بالخيبة والفشل .

أحقاً يظنها فى حاجة إلى تعلم الشعر الإنجليزى ؟! أكل ما يشعر به نحوها هو مجرد رغبته فى تعليمها ؟

تباً له من أحمق مأفون .

ولكنها مع ذلك لم تملك سوى الشعور بالارتياح والغبطة من مجرد جلوسها بجواره ، هذا خير من لا شىء .

وعندما وصلت العربة إلى ميدان عبد المنعم طلبت منه الوقوف أول الشارع و لم تتركه يوصلها حتى باب البيت كما كان يفعل أنور ، لسبب واحد هو أنها تشعر أنها مذنبة .

وودعها ، دون أن يحدد موعداً آخر للقاء .

لشدما خذلها وخيب أملها ، لو لا بقية من كبرياء ، لسألته هى اللقاء .. ما علته ، هذا الأحمق المغرور ، لِمَ لم يسألها لقاء آخر !

ودخلت البيت واجمة وهى تحسب كم يوم تبقى حتى تراه فى الدرس مرة أخرى .. ستة أيام .. مدة طويلة جداً .. ما ضرّه لو وعدها بلقاء غداً ، وبعد غد .. هكذا أضحى تفكيرها طائشاً مندفعاً .

أما هو فقد عاد إلى بيته محزوناً مكتئباً ، وأخذ يستعرض أقوال أبيه وهو يحاول منعه من الإقدام على الزواج بالإنجليزية .

كان كله كلاماً معقولا . كيف عميت بصيرته عن إدراكه . ولكن ماذا يفعل الآن ؟ لقد قضى الأمر ، وانتهى كل شىء .

وقبل أن يدخل حجرته أقبلت عليه « الحاجة » وهى « الدادة » التى قامت بتربيته طول عمره والتى كانت له بمثابة أم بعد وفاة أمه التى لم يبصر لها وجهاً .

ومدت « الحاجة » يدها بخطاب لمح عليه طابع بريد لندن ورفعت المرأة يديها إلى السماء وهى تقول فى استسلام :

— منك لله .

كانت هى الأخرى ، غير راضية عن الإنجليزية ، وقد حاولت من قبل نصحه عبثاً .

انتهى الأمر ولا فائدة من التراجع .. إنها قد تكون قادمة فى طريقها .. ومن الجنون أن يحاول إعادتها وخذلانها .

وفتح الخطاب ليعرف تاريخ وصولها ، ولكنه لم يكد يقرأ بضعة أسطر حتى رفع حاجبيه فى دهش !!

ما هذا !! إنها تأسف جداً ، وتقول له إن خطبتها من أحد أقاربها قد تمت ، وأنها ستتزوج بعد بضعة أيام ، وتقول إنها ستذكره دائماً وتتمنى له مستقبلا هنيئاً وحياة سعيدة .

بديع !

هذا الخطاب تستحق عليه « الحاجة » قبلة .. وناداها بصوت مرتفع :

— يا حاجة !

وأقبلت الحاجة بخطى متثاقلة وأجابته فى ملل :

— نعم .. « الأملة » قادمة فى الطريق ؟! نعلق الأعلام ونفرش الرمل ؟

— « الأملة » ليست قادمة ، ولن تأتى أبداً . ما رأيك ؟

— لن تأتى ؟!

— أجل ! لقد تزوجت ، والحمد لله .

— الحمد لله .. أمغتبط أنت لزواجها ؟.. كنت أظنك تنتظر قدومها بفارغ الصبر .

ـــ كان ذلك فيما مضى .

ـــ والآن ؟

ـــ تبدل الأمر .. لقد كنت أنتظر قدومها ككارثة .

ـــ يا ساتر يارب ، وما الذى بدّلك ؟

ـــ تعالى أقبلك أولا . أنت امرأة طيبة . وكلك بركة .

وضحكت الحاجة وضمته إليها وقبلته ، ثم تساءلت فى تخابث :

ـــ قل لى ماذا أصابك ؟

ـــ لا شىء .

ـــ غير ممكن ! لا بد أن هناك شيئاً !

ـــ هناك أشياء .. سأتزوج قريباً .

ـــ ممن ؟ « خواجاية » أخرى ؟

ـــ لا .. لا .. أبداً .. اطمئنى .. مصرية بنت مصرية ، ستعجبك كثيراً .

ـــ مادامت مصرية .. فستعجبنى حتى ولو كانت شحاذة .

ـــ ولكن أين أبى ؟

ـــ فى الخارج لم يأت بعد .

ـــ عندما يأتى أنبئينى ، فإنى أريد التحدث معه .

و لم يكد ينتهى من حديثه ، حتى سمع وقع أقدام أبيه المتثاقلة تصعد الدرج .
وجلس الأب على المقعد الذى تعوّد أن يجلس عليه ، وجلس الابن قبالته ،
ومضت فترة صمت تمالك الأب فيها أنفاسه ، ثم قال لابنه كسؤال عابر :

ـــ كيف الحال ؟!

ـــ الحمد لله .

ـــ وكيف التدريس والطلبة ؟

ـــ على ما يرام .

وجرى بينهما الحديث فى شتى الشئون .. شئون السياسَة والجو والحرب

والغلاء . وأخيراً قال « كمال » :

ــ لدىّ نبأ قد يهمك بعض الشىء .

ــ ما هو ؟

ــ نبأ معافاتك من الأحفاد الإنجليز .

ثم انطلق ضاحكا . وتساءل الأب مكرراً قوله فى عجب :

ــ أحفاد إيه ؟!

ــ إنجليز . ألم يكن هذا ما يقض مضجعك ؟ ألم يسؤك بعد أن اشتركت فى ثورة ١٩١٩ أن تكون جداً لأحفاد إنجليز ؟!

ــ أجل ! يسيئنى بالطبع .

ــ لقد عافيتك من هذا .

ــ كيف ؟

ــ لقد أرسلت إلىّ ردّها تقول إنها ستتزوج من أحد أقاربها .

ونظر إليه الأب متعجباً من طريقة إلقائه الخبر ببساطة ثم تساءل :

ــ وأنت .. ألم تصدم ؟

ــ لا .. كله يهون . لقد كانت معارضتك فى محلها . والحمد لله الذى أنتج العواقب سليمة .

ــ الحمد لله .

وعاد « كمال » إلى غرفته ، وهو يحس بسعادة عجيبة .

ليته يستطيع أن يذهب إليها الآن ليسرد لها كل ما حدث وينبئها أنه قد بات حراً ، وأنه يستطيع الزواج منها .

ولكن كيف يذهب ، وهو لا يعرف بيتها .. إن عليه الانتظار ستة أيام طويلة أخرى .. ولكن لِمَ الانتظار ؟ إن المسألة أهم من أن ينتظر عليها ، وليس هناك ما يبرر تردده وخشيته وخوفه من أقوال الناس .. إن عليه أن يذهب فى الغد إلى الجامعة ، ويطلب منها لقاء قريباً ، ينبئها فيه بكل ما عنده .

أجل ! سيذهب إليها فى الغد .

وفى اليوم التالى قصد إلى الجامعة .. وعندما التقى بعبد السلام ادعى أنه قد ترك كتاباً فى المكتب ، ثم سأله بطريقة عابرة :

— ألم تحضر الآنسة سامية ؟

— لم تحضر بعد .

وأخفى « عبد السلام » ابتسامته وهمس لنفسه :

— والله وقعت .

ولم يكد « كمال » يختفى فى الممر المفضى إلى حجرة الأساتذة حتى ظهرت سامية » بعد آتية من الباب .

وهرول إليها « عبد السلام » وقال لها فى تخابث :

— يا ست « سامية » . الأستاذ « كمال » سأل عليك .

— متى ؟

— الآن .

— أقد حضر ؟

— أجل !

— ولكن ليس عنده دروس اليوم ؟

— الظاهر أن عنده ما هو أهم من الدروس .. لقد نسى كتاباً هاماً .

واتجهت « سامية » فى لهفة ظاهرة إلى حجرة المدرسين ، وحيا كلّ منهما الآخر فى كثير من ارتباك وخشية . وقال « كمال » فى لهجة وجلة مقتضبة :

— هل أستطيع أن أراك اليوم فى موعد الأمس ومكانه ؟

— أجل !

— سأنتظرك إذاً . لا تتأخرى .

وهمّ بالانصراف متصنعاً العجلة .. ولكن « سامية » استوقفته متسائلة فى لهجة لا تخلو من السخرية :

ـــ أأحضر معى كتاب الشعر ؟

و لم يملك إلا أن يضحك على تخابثها وأجاب فى صوت ذى مغزى :

ـــ لا داعى ، سيكون لدينا حديث أهم من الشعر .

وفى نهاية الدراسة اعتذرت « لأنور » مرة أخرى عن مرافقتها له ، واتجهت إلى ميدان الجيزة .

وأحس « أنور » بكثير من خيبة وضيق ، وحدث نفسه قائلا إنه لا بد أن يفعل شيئاً إيجابياً .. لقد قرر أنها خير من تصلح له كزوجة ، فماذا ينتظر إذاً ! لِمَ لا يبت فى الأمر وينبئ أسرته بعزمه ويتقدم لخطبتها رسمياً . إنها لا شك قد ضاقت بهذا التردد منه ، وهى مخلوقة جادة تكره العبث ، فيجب أن يريها أنه جاد هو أيضاً .

ووصلت « سامية » إلى ميدان الجيزة فوجدت العربة تنتظرها ، فدلفت إلى داخلها . وانطلقت العربة عائدة فى عكس طريق الهرم .

فتساءلت فى دهش :

ـــ إلى أين ؟

ـــ إلى المعادى ، هناك كازينو على النيل .

ـــ قد يكون هذا ملجأ للعشاق ؟

ـــ لا ضير علينا منه .

ـــ إنه ليس مكاناً للدراسة ولا لشرح الشعر !

ـــ لن ندرس ولن نشرح شعراً .

ـــ وليس من المستحسن أن يرى فيه أستاذ وتلميذته !

ـــ لن نكون أستاذاً وتلميذته .

ماذا حدث له اليوم ؟ أين تحفظه ، وتعقله ، ورزانته ؟ ماذا كان بـه فى الأمس ، وماذا أصابه اليوم ؟ وأى حديث هام ينوى أن يفضى به إليها ، وفى هذا

المكان البعيد ؟

لا بد أن يكون فى الأمر شىء .

واندفعت العربة فى طريق المعادى بسرعة غير عادية .

كان به من فرحته ، خفة وطيش ونزق .

وأخيراً وقفت العربة أمام الكازينو .. وهبط كلاهما ، وقد تغيرت الحال عن الأمس كان هو مستهتراً .. وكانت هى قلقة خائفة . كان هو قد استقر على أمره بعد طول يأس وكانت هى لا تدرى إلا أنها مندفعة فى أمل قد يتحقق أو لا يتحقق .

واستقر بهما المقام فى الناحية المنعزلة الكائنة فى الجانب الأقرب إلى الشاطئ ، وبدا المكان خالياً ساكناً والمصابيح الكهربائية لا تبدد كثيراً من ظلمته .. وأصوات البحارة وارتطام المجاديف بسطح الماء يعلو بين آونة وأخرى . والضفادع تتبادل النقيق .. والنسيم يعبث بأطراف الشجر والحشائش والمزروعات عبثاً خفيفاً فيصدر منها ما يشبه الهمس .

واتكأت « سامية » على حافة سور حجرى واطئ .. وأخذت تتشاغل بالعبث فى زهرة فى يدها .

وساد الصمت برهة .. صمت التحفز والاستعداد .. حاولت هى أن تلم خلاله شعث أفكارها المنطلقة فى بيداء التخيلات والأحلام والأوهام ، وأن تنحى عن ذهنها سيل الأمنيات العذبة التى أخذت تتدفق فيه مستمدة قوتها من مشاعرها المتدفقة ومن الجو الحالم الشاعرى الذى أحاط بها .

وحاول هو أن يركز تفكيره لكى يصل إلى هدفه من أقرب طريق .

ونظر إليها نظرات لم تخف ما به من وجد وصبابة .. وقال لها فى لهجة ذائبة :

ــ لدىّ كلام كثير .

ــ عن كاليكليز ؟

ــ لعنة الله عليه ، ولو أنه هو الذى كان السبب الأول فى ارتباطنا .

ـــ عمن تريد أن تحدثنى إذاً ؟

ـــ حديث طويل ، لا أدرى من أيّن أبدؤه .. ولكن قبل أن أسترسل فيه أسألك سؤالا واحداً .. على إجابته يتوقف كل ما أنوى قوله ، بل عليه يتوقف إذا كنت أقول كل ما عندى أو لا أقول شيئاً أبداً .

ـــ سل ما تشاء !

وصمت برهة ، بدا خلالها كأنه يستجمع شجاعته .. ثم سألها فى همس ووجل :

ـــ إذا سألتك أن تتزوجينى . فهل تقبلين ؟

ولا شك أن سؤاله كان مفاجأة شديدة .

إن هذا هو أقصى ما تتمناه ، وأجمل ما كانت تتلهف على سماعه منه .

ولكنها لم تتوقع أنه يقوله بمثل هذه السرعة والسهولة.كانت تتوقع أن يسبقه مقدمات ، ومقابلات واستفسارات واختبارات .. قد تجتازها وقد لا تجتازها أما أن يكون هذا هو أول سؤال يسأله إياها .. فهذا ما كان ليخطر لها على بال .

وكان يحدق فى وجهها قلقاً ، والأفكار تدور فى ذهنها .

وأخيراً سألها مستفهماً :

ـــ لم تجيبى بعد ؟

ورفعت عينيها إلى عينيه .. وأطلقت تنهيدة حارة .. وأجابت :

ـــ طبعاً أقبل .. إن هذا هو أقصى ما أتمناه .

ومد يده فجذب يدها .. ووضعها على شفتيه فى سكون قائلا :

ـــ الحمد لله .

أجيبي ياأماه

٥

وأحست هى من قوله أنه قد بدأ من النهاية ، وأنه أفضى بطلبه وبرضائه عن موافقتها بكل ما يكنه من مشاعر ، وأنه لخص بكلماته المعدودات ما كان يمكن أن يفضى إليها به من أقوال فى ساعات عن شجون الحب ، وأحاديث الغرام .

ولكنها مع ذلك تود لو أنها تسمع تلك الأحاديث والأقوال . لقد عاشت حياتها الماضية بعيدة عن كل ما يثير مشاعرها ويؤجج أحاسيسها ، وكانت طريقته هذه ـــ طريقة طلب الزواج مباشرة ـــ خليقة بأن تكون أنسب الطرق لها . ولكنها مع فرط إحساسها بالسعادة ، تحس بحاجة شديدة إلى المناجاة والغزل .

وبدأ مناجاته لها ، فأنبأها كيف وقعت من نفسه وهى حائرة فى الامتحان وكيف كان يتجنب النظر إليها فى الدرس وبودّه لو لم يفعل شيئا غير النظر إليها ، وقص عليها كيف أوشك أن يتزوج من صاحبته الإنجليزية ، وكيف كان يمانع والده فى ذلك .

وجرى بينهما الحديث شيقاً ممتعاً ، رغم أنه لا يعدو أن يكون ترديداً لأشياء لا يجهلها واحد منهما .

وحدثته هى عن نفسها فأنبأته أنها تعيش مع أمها ... واسترسلت تقول :

ـــ إنها سيدة لطيفة رقيقة ، ولست أشك فى أنك . ستحبها كثيراً ، كما أحببتها أنا دائماً ، ولست أشك كذلك فى أنها ستحبك كما أحببتنى .. إنى متلهفة على أن يرى كل منكما الآخر فأنتما أعز مخلوقين لدى فى الحياة .

وصمتت برهة كأنها تتذكر أمراً ، ثم قالت فى فرح :

ـــ أظننى أحمل لها صورة فى حقيبتى ، صورة لكلتينا قديمة عندما كنت طفلة !

— لا بد أنك كنت عفريتة صغيرة ، دعينى أراها .

وفتحت الحقيبة وبحثت فيها برهة ومالبثت أن أخرجت بضع صور وبدأت تعطيه إياها واحدة واحدة وهى تقول :

— هذه صورتنا معاً ، وهذه صورتى مع بعض الصديقات فى المدرسة الثانوية ، وهذه صورتى بعد البكالوريا وهذه صورتى فى الجامعة .

لطيفة جداً ، سآخذ هذه الصورة ، وهذه الصورة أيضاً ، حتى أريهما للحاجة ، فستسر منهما كثيراً . لقد كانت سعيدة بالأمس ، وأنبأتنى أنها تفضل أن أتزوج شحاذة مصرية وبى شوق إلى أن أريها صورة المتشرّدة التى سأتزوجها .

وأخذ صورتها وهى فى الجامعة ، وصورتها وهى طفلة بجوار أمها ، ووضعهما فى جيبه وهو يقول :

— كان يجب أن تتركى ضفائرك مسترسلة كما هى ، فإن شعرك جميل جداً .

— فتاة فى الجامعة بضفائر ؟! دكتورة بضفائر ؟ إنك تنسى مركزى ؟

— لن يكون لك مركز إلا فى البيت .

— أتقول حقاً ؟

— طبعاً .

— ألن تتركنى أتمم دراستى ؟

— لا .. لا .. سيكون لديك دراسة أهم ، سأكون أنا والأولاد موضع دراستك .

— والدكتوراه ؟

— سأحصل عليها أنا نيابة عنك .. إن زوجة الدكتور دكتورة بلا شك .

— والحزب النسائى ؟

— تنازلى عن رئاسته .

— ورئاسة الوزارة ؟!

— مرة واحدة ؟! هذه مسألة فيها نظر . إذا دعيت لتأليف الوزارة فأنيبينى

عنك .

واندفعا فى الضحك ، وقد غمرتهما السعادة والهناء ونظرت إلى ساعتها ثم رفعت حاجبيها فى دهشة وهتفت :

ـــ الساعة التاسعة ، لا بد أن أعود وإلا قلقت أمى علىّ .

وقاما متجهين إلى العربة ، وقد تأبط كل منهما ذراع الآخر بلا وجل ولا خشية ، وانطلقت بهما العربة إلى القاهرة ، وفى هذه المرة لم تجد ما يمنع من أن يوصلها حتى باب البيت ، وقبل أن يفترقا اتفقا على اللقاء فى الغد .

وسار هو بعربته ملوّحاً لها فى الظلمة بيده . ودلفت إلى الداخل ، فأبصرت أمها تنتظر فى الشرفة ، ولم تكد تبصرها حتى هتفت بها :

ـــ سامية ! لِمَ هذا التأخير ؟ كان يجب أن تخبرينى أنك ستتأخرين حتى توفرى علىّ هذا القلق وتلك الوساوس .

وصعدت الفتاة الدرج ، وأقبلت على أمها فاحتضنتها وقبلتها قائلة فى مرح :

ـــ أنى لم أعد صغيرة يا أماه ، عما قريب قد يصبح لى أولاد ، وسأكون عليهم فى لهفة مثلك .

ووقع قولها فى مسامع أمها موقعاً غريباً ، فما تعوّدت منها التحدث بتلك اللهجة ، بل كانت لا تكاد أمها تحدثها عن الزواج حتى تصدّها قائلة :

ـــ دعينا من هذا الآن .. إن أمامى مستقبلا حافلا ، وأعمالا جليلة .

وكانت أمها تعجب من برودها دائماً ، وتراها على كثير من الشذوذ ، ولكن لم تكن تملك إلا أن تحمد الله على هذا .

أما الآن وهى تخبرها أنها قد يصبح لها أولاد مثلها ، فقد بدا قولها عجيباً .. حقيقة أنها تمزح . ولكنها لم تتعوّد أن تمزح بمثل هذه الطريقة .

ولم تملك الأم إلا أن تقول ببساطة وإخلاص :

ـــ ربنا يسمع منك .

ـــ لقد سمع وانتهى الأمر .

ــ ماذا تقولين ؟
ــ إن الأولاد فى الطريق .
ــ أولاد فى الطريق ؟! بلا زواج ؟! أولاد بالدراسة العليا ، أم بالدكتوراه ؟
ــ كيف بلا زواج ؟ إنى لست مريم .
ــ إذاً فعلام انتظار الأولاد ، وأنت معرضة عن الزواج ، لا تطيقين حتى مجرد ذكره أمامك ؟
ــ من قال هذا ؟ لقد عدلت عن رأيى أخيراً .
ــ عجيب !
ــ وعلام العجب ! إن الإنسان يظلّ على رأى ، حتى يطرأ ما يغيره .
ــ وهل طرأ هذا الذى غيره ؟
ــ أجل ! طارئ عجيب !
ــ سامية ! أرجوك أن تفصحى إذا كنت جادة حقاً فى قولك ؟
ــ أفصح عن أى شىء ؟ موجز القول أنى خطبت .
ــ خطبت !. هكذا دون أن أعرف .. ودون أن أبدى رأيى ، كأنى لست أمك ؟
ــ هذا الذى أفعله الآن ! إنى أنبئك ، وآخذ رأيك . ما رأيك يا أماه ؟
ــ رأيى ؟! فى أى شىء ؟
ــ فى خطبتى .
ــ وكيف أبدى رأيى ، وأنا لم أر الخطيب ، ولم أعرف اسمه ، ولا مركزه ولا عائلته ؟!
ــ لقد رأيته أنا ، وعرفت أنا كل شىء عنه . دعى كل هذا لى . فأنا أدرى منك به .. أنبئينى ما رأيك ؟
ــ سامية .. أرجوك.. اقعدى ، وكفى مزاحاً وهيافة ، أنبئينى إذا كنت قد خطبت حقاً .. من هو ؟

ــ أستاذ الإنجليزية الذى يدرس لنا فى المعهد .

ــ أستاذ الإنجليزية ؟

ــ أجل .. أية غرابة فى ذلك ؟

ــ مصرى ؟!

ــ مصرى ، ومن « حوش آدم » .

ــ لا تهزلى يا سامية .. إنى أسألك جادة .

ــ جادة !! كيف ؟ تسألينني مصرى وتقولين جادة ؟ أتظنين أنى سأقدم على زواج إنجليزى ، أو أن الإنجليزى قد جن حتى يتقدم لخطبتى .

ــ أستاذ الإنجليزية المصرى الذى يدرس لك فى المعهد ؟

ــ أجل !

ــ وكيف يكون هذا ؟. كيف تتزوجين من أستاذ فى سن أبيك ؟

ــ فى سن أبى ؟ من قال هذا ؟!

ــ أستاذ فى الجامعة لن تكون سنه إلا ضعف سنك !

ــ ليس أستاذاً بمعنى الكلمة ، إنه معيد .. يدرس لنا بدل الأستاذ الغائب ، تستطيعين أن تسميه مساعد أستاذ .. أو صبى أستاذ .. وهو صغير جداً ، يكاد يقاربنى فى العمر حتى أنى ظننته فى أول الأمر طالباً ، وسألته لماذا يتجوّل فى مدرج الامتحان .

ــ وماذا دعاه إلى خطبتك ؟

ــ حماقته .

ــ وماذا دعاك إلى قبوله ؟

ــ حماقة أشد .

ــ سامية ! كونى صريحة فى قولك .. كونى جادة مرة واحدة ، فى مسألة هامة كهذه ؟

ــ صراحة .. لقد أحببته .

ــ أنت أحببت ؟

ــ ولِمَ لا ؟!

ــ كنت أظن أن قلب مثلك لا يفتح لأحد !

ــ وكنت أظن ذلك ؛ حتى طرقه صاحبنا .. فانفتح على غير إرادة منى .. لم يكن معه مفتاح ، بل كانت معه « طفاشة » أشبه بطفاشة لصوص الخزائن .. ومع ذلك فلم يكن به من حاجة إلى استعمالها ، فقد فتح به باب القلب على مصراعيه بمجرد أن سمع وقع أقدامه .

ــ أنت تقولين هذا ؟

ــ ولِمَ لا يا أماه ؟ إنى بشر !

ــ ومثلك العليا ؟ وخططك الهائلة ؟ ومشروعاتك الكبرى ؟ والدكتوراه ؟ والحزب النسائى ؟ وحقوق المرأة ؟ والبرلمان والوزارة ؟

ــ كل هذه ما عادت تساوى قلامة ظفر . لقد أمرنى أن أكف عن الدراسة ، فلبيت صاغرة .

ــ هكذا وبمثل تلك السرعة ؟ رغم أنى عندما سألتك الكف عنها ، رفضت بإباء ؟

ــ لقد هيأ هو دراسات أخرى وواجبات أعظم .

ــ وما هى ؟

ــ دراسة طبائعه وعاداته ، ورعاية بيته وأولاده .

ــ ما شاء الله . إذاً لقد انتهى الأمر بينكما ، ولم يعد لى مجال لإبداء الرأى ؟

ــ ولكنك أبديت رأيك .

ــ كيف ؟

ــ إن رأيى هو رأيك .. فأنا أفكر بذهنك ، وأرى بعينيك . إنى واثقة أن ما أراه حقاً سترينه حقاً ، وما أراه باطلا سترينه باطلا .. أنا وأنت مخلوق واحد ، وأقسم لك لو رأيته لأحببته كما أحببته أنا ولو افقتنى على الزواج منه .

وضمتها الأم بين ذراعيها .. وقد اغرورقت عيناها بالدموع .. دموع الفرح ، وقالت فى حنان زائد :

ـــ أنا أعلم ذلك .. أعلم أنك أوفر الناس عقلا وأكثرهم روية .. إنى أثق بك أكثر مما أثق بنفسي .. وأدعو الله أن يسدد خطاك ويجنبك عثرات الحياة . إن كل أمنيتى هى أن أراك قريرة هانئة .

واستسلمت « سامية » برهة لأحضان أمها ، ثم ما لبثت أن رفعت رأسها متسائلة :

ـــ متى تودين أن تريه ؟

ـــ خير البر عاجله .

ـــ سألقاه فى الغد . وأعلم منه ما ينوى أن يفعله .

* * *

وكان « كمال » قد وصل فى تلك اللحظة إلى البيت ووضع العربة فى « الجاراج » واتجه إلى الداخل عابراً الحديقة وهو يصفر فى جذل ومرح .. وصعد الدرج فى بضع قفزات .. واتجه إلى حجرته ، وكان أول ما فعل هو أن أخرج الصورتين وأخذ يعيد مشاهدتهما .. وهو يبتسم فى حبور واغتباط .

سيقدم الصورتين للحاجة .. سيريها الصورة الأولى أولا التى تظهر فيها « سامية » وهى طفلة بضفائرها وبجوار أمها . سيقول لها إن هذه هى خطيبته ، وستصيبها الحيرة بالطبع وستثور عليه .. إذ لن يخطر لها ببال أنه قد خطب الطفلة ، بل ستظن أنه خطب امرأة متزوجة ، ولها أولاد .

وسيضحك عليها كثيراً .. كما تعوّد أن يضحك دائماً .. وسيريها بعد ذلك الصورة الثانية ، ويطلب رأيها ، ثم صاح :

ـــ يا حاجة .. يا حاجة .

وأقبلت الحاجة فى خطواتها المتثاقلة وهى تقول :

ـــ العشاء جاهز .

ــ دعينا الآن من العشاء .. عندى لك خبر هام .

ــ خير إن شاء الله ؟

ــ لقد خطبت .

ــ خطبت ؟!

ــ أجل ! خطبت .

ــ هكذا ، بسرعة ؟

ــ وماذا فى ذلك ؟

ــ كان عليك أن تنتظر على الأقل حتى تنتهى مدة الحداد على الخطوبة السابقة .

ــ إنى أتكلم جاداً يا حاجة ، حقيقة لقد خطبت .

ــ خطبت من ؟

ــ فتاة عجيبة .. أحببتها جداً .

ــ متى أحببتها ؟ بين يوم وليلة ؟

ــ لا .. لا .. لقد ابتدأ الأمر بيننا منذ مدة طويلة .

ــ لعلك تكون عرفت كيف تنتقى هذه المرة ؟

ــ اطمئنى .. هذه المرة ستعجبك جداً .

ــ على أى حال .. وأياً كانت .. فهى لا شك خير من الإنجليزية التى كنت تنوى ابتلاءنا بها .

ــ خير بكثير .. بكثير جداً .. إن معى صورتها .

ــ أرنيها .

ومد يده ببساطة بالصورة الأولى .. ووقف يرقب الانفعالات التى ستبدو على وجهها وهو يحاول إخفاء ضحكته .

إنها تحملق فى الصورة فى دهش .. ما زالت تحملق . إن حدقتيها تتسعان وشفتيها تتحركان .

إنها لم تنبس ببنت شفة .. إنها فى ذهول تام .

المرأة الساذجة .. لا شك أنها قد ظنته سيتزوج الأم . أو من يدرى ربما قد ظنته ، سيتزوح الطفلة .. وهى طفلة .

ولكن ما لها مستمرة فى الحملقة .. وما الداعى لهذا الذعر كأنها قد أبصرت شبحاً مخيفاً .. لماذا لا تسأله ؟ لماذا لا تبدى استنكارها وغضبها ؟

وأخيراً لم يطل ذلك الصمت المروع .. وخشى على المرأة أن يصيبها شىء فقد بدا وجهها فى شحوب شديد .

وقال لها متسائلا : ما رأيك يا حاجة ؟ أتعجبك ؟

و لم تجب المرأة .. ولكنها انهارت على أحد المقاعد .. انهارت انهياراً تاماً وسقطت الصورة من يدها . وسألت فى صوت خافت :

ـــ ما هذه ؟!

ـــ ما الذى أصابك .. إنها صورتها .

ـــ صورة من ؟

ـــ خطيبتى !

ـــ من أعطاك إياها ؟ وكيف حصلت عليها ؟

ـــ ما بالك تتحدثين كأنك رأيت صورة شبح .. لقد حصلت عليها منها .. أية غرابة فى ذلك ؟! إنى لم أسرقها طبعاً ، فلا تخافى .

ـــ منها هى ؟. أقد رأيتها ؟

ـــ طبعاً .. أقول لك خطبتها .. فتسألينني عما إذا كنت قد رأيتها .

وأحنت جسدها إلى الأمام وسألت فى حدة :

ـــ خطبت من ؟ من هى تلك التى خطبتها ؟ إنك تمزح ؟ إنك تهذى !

لا بد أنها ظنته قد خطب الأم ، ولكن أيدعو ذلك إلى كل هذا الارتياع ؟.

لعنة الله عليها من امرأة مخبولة ، لا بد أن يطمئنها وإلا أغمى عليها .

وأخيراً قال لها ضاحكاً :

ـــ أيتها المجنونة لقد خطبت الابنة ـــ الطفلة الصغيرة ـــ إنها صورتها منذ بضع سنين .

وصاحت المرأة فى فزع :

ـــ خطبت من ؟ أنت مجنون ؟ إنك لا تعرف من تكون هذه ؟ ومن أين لك أن تعرف ؟ بل من يصدق أن مثل هذا الأمر كان يمكن حدوثه ؟ من يخطر بباله أن من بين هذه الملايين من الفتيات التى تزخر بها الأرض .. لا يقع اختيارك إلا على هذه المخلوقة ، على ابنتها بالذات .

ونظر إليها فى حنق ودهش .. ماذا تعنى هذه المخبولة ، وصاح بها متسائلا :

ـــ ابنةَ مَنْ ؟

وعضت العجوز على نواجذها .. ثم أطلقت قولها كما تطلق القذيفة .. قالت فى يأس شديد :

ـــ ابنة ، أمك .

وصاح كمال :

ـــ إبنةَ مَنْ ؟

ـــ أمك .. أمك أنت .

ـــ إنك لا شك قد جننت ؟!

ـــ أنت الذى جننت .

ـــ ولكنك تعلمين أن أمى ماتت .

ـــ ماتت أو لم تمت .. هذه هى أمك .. بعينها ولحمها ودمها .. إنى أعرفها تماماً .

ـــ يا حاجة لا تكونى مجنونة ، لا تهذى بما لا تعين . أنت تعرفين تماماً ، أن أمى ميتة .. تعرفين أنى ولدت فلم أجدها .. إنها ماتت وهى تضعنى .. هكذا عرفت طول حياتى الماضية . هكذا قال أبى وهكذا قلت أنت . إنى لم أعرف لى أماً سواك .

و لم تزد المرأة على قولها فى يأس وإصرار :

ـ هذه هى أمك ، بعد كل هذه الأعوام الطويلة التى مضت أعرفها من بين ألف امرأة .. إنها أمك . أمك .

ـ لن أصدقك . إنك فى غير وعيك . إنك لا تفهمين ما تقولين ، سأسأل أبى حتى أجعلك تكفين عن هذا الهذيان .

ـ لا تسأله شيئاً ، ولا تره الصورة .. انس كل شىء . اقطع كل علاقة لك بها ، إنك ستقدم بزواجها على جرم لن تغفره بنفسك طول حياتك ، ابتعد عنها ، لا تقربها .

ـ أقطع كل علاقة لى بها من أجل تصوراتك الخرقاء ؟ اذهبى إلى فراشك الآن ؛ استريحى ، فأنت لا شك متعبة ، وسأستفسر منها فى الغد عن كل هذا الهراء الذى تقولين .

وتحاملت الحاجة على نفسها ، وعادت إلى حجرتها . واستمر هو يغدو ويروح فى غرفته قلقاً يحدث نفسه :

ـ أمى ؟ كيف ؟ ولِمَ لم يخبرونى أن لى أما على قيد الحياة ؟ كل هذه المدة الطويلة انصرمت من عمرى وأنا أعرف أنى يتيم الأم .. أيعقل ذلك وهى ما زالت على قيد الحياة ؟ لا . لا . يجب ألا أشغل رأسى بمثل هذه السخافة .. لن أسأل أبى مثل هذه الأسئلة المضحكة . هذه أشياء لا تحدث إلا فى الروايات .. أشياء يضعها المؤلفون لتسلية قرائهم ، أما أنا فما أظنننى بحياتى الطبيعية العادية .. أيمكن أن يجعل منى القدر بطلا لمثل هذه الأسطورة الغريبة !

أمى الميتة تعود إلى الحياة لتصبح من دون نساء الأرض .. أم الفتاة التى اخترتها لكى تكون لى زوجة ؟ لا . لا . هذا لا يعقل ، ولا مبرر له ، ولا علة ولا سبب .

واستلقى فى فراشه والأفكار والأسئلة تصطخب فى رأسه .

يجب عليه أن ينتظر إلى الغد ، وينبئها بهذيان الحاجة . ستضحك كثيراً ..

وستنبئ أمها لتتخذ منها نكتة لطيفة .

أجل ! أجل ! إنها مجرد فكاهة لا أكثر ولا أقل .

* * *

وفى اليوم التالى كانت العربة تعدو بهما فى طريق الهرم . وأخيراً توقفت قرب مينا هاوس .. وبدأت هى الحديث فأنبأته كيف تلقت أمها الخبر .. وكيف بدا عليها السرور .

وعندما انتهت من حديثها شرد به الذهن برهة ثم قال :

ــ لقد وقع بالأمس حادث عجيب .. حادث مضحك ، أعتبره نكتة الموسم .

ــ قصه ! لقد مضت علىّ برهة لم أسمع نكتة جديدة .

ــ لقد أريت صورتك أنت وأمك للحاجة . فما كادت تتخيلها حتى قالت ....

ولم يتم حديثه .. حتى قاطعته بقولها :

ــ قالت علىّ قبيحة ؟

ــ يا ريت !

ــ متشردة ؟ مجنونة ؟ قل . قلِ . إنى سأحتمل أى إهانة منها .

ــ لم تقل عنك شيئاً .. بل إنها لم تلتفت إليك البتة .

ــ قالت إذاً عن أمى . سأعرف كيف أقتص منها .. ماذا قالت ؟

ــ قالت إنها أمى أنا .

ــ أمك أنت ؟.

واندفعت « سامية » تقهقه بشدة وأجابت :

ــ كويسه .. كويسه خالص .. نكتة لا بأس بها .

ــ ولكنها لم تقلها على سبيل النكتة !

ــ ربما تكون أمى شبه أمك . يخلق من الشبه أربعين .

ــ إنها لم تقل أنها تشبهها . بل قالت إنها هى . هى لا محالة .

ــ ولكننى أظن أن أمك (عليها رحمة الله) توفيت .. وأمى (مدّ الله فى عمرها) حية . فما رأيها فى ذلك ؟

ــ لقد أصابها ارتياع شديد .. كادت الصورة تصرعها وأصرت على أنها هى بعينها أمى . وأنها تعرفها من بين ملايين النساء .

ــ على أية حال .. المسألة ليست بعيدة .. سأسأل أمى عما إذا كانت ولدتك قبلى .. أما الآن فدعنا من هذه المخبولة التى حيرتك ولنتحدث فيما هو أهم . وفى الغد سأحمل رأى أمى فيك وفى الحاجة « بتاعتك » ولا أظنه سيكون رأياً يسرّك !

وجرى بينهما الحديث مرهفاً لذيذاً . ونسيا كل شىء عن قول الحاجة . بل لقد استحمق هو نفسه . كيف قبل أن يسمع قولها . وكيف ترك نفسه يفكر فيه . ويقلق من أجله !

وأخيراً افترقا ، بعد أن اتفقا على اللقاء فى اليوم التالى . وأنبأها أنه سيخبر أباه بعزمه على خطوبتها حتى يقوما بالإجراءات الرسمية الشكلية .

وعادت هى إلى البيت فوجدت أمها جالسة فى الشرفة تنتظرها كعادتها وسألتها الأم ضاحكة :

ــ كيف حال خطيبك ؟

ــ بخير .. يسلم عليك كثيراً .. وسيزورك فى القريب لعمل الإجراءات الرسمية كما يقول .

ثم أردفت تقول فى لهجة مزاح :

ــ لقد اتضح أن لنا به صلة قرابة .

ــ صلة قرابة ؟

ــ أجل قرابة ! أى شىء فى ذلك ؟

ــ أتمزحين ؟

— بل أقول الجد !

— قرابة من أى نوع ؟

— نوع عابر .. بعيد .. إنه ابنك .

وانطلقت تقهقه .. وهى تردف قائلة :

— بسيطة .. إنه ليس أكثر من أخى .. الحمد لله . إنه لم يكن أقرب من ذلك ، لم يكن أنا مثلا .

وقالت الأم ضاحكة :

— ألا تكفين عن المزاح ؟ حياتك مزاح فى مزاح ؟

— وما ذنبى أنا فى ذلك .. والحاجة تؤكد قولها .. وتقسم عليه .

— الحاجة ؟ من هى الحاجة ؟

— التى قامت على تربيته بعد وفاة أمه ، لقد قال لى إنها لم تكد ترى صورتك حتى شحب وجهها وبدا كأنها قد أبصرت شبحاً ، وأنها لم تتمالك نفسها وتهاوت على المقعد ، وقالت إن هذه صورة أمه بلحمها ودمها وأنها تعرفها بين ملايين النساء .

— ولكن ألم تقولى إن أمه ماتت ؟

— هكذا قالوا له .. إنه لا يذكرها ولا يذكر موتها .

— وماذا قالت له الحاجة ؟

— قالت ماتت أو لم تمت .. إن هذه هى صورة أمك فأوقف خطبتك ، واقطع كل علاقة لك بها . لقد قال لى إنه لم يرها فى مثل تلك الحالة من الارتياع والذعر حتى إنه ليجزم أن المرأة قد أصابها شىء ، فما كان بها ليس أمراً طبيعياً .

ونظرت الفتاة إلى أمها فإذا بها قد وضعت رأسها فى كفها وأخذت تضغط بأصبعها على وجنتيها ، و قد أغمضت عينيها وشحب وجهها ، وبدت كأنها تقاسى ألماً أو كأنها توشك أن تروح فى غيبوبة .. وهتفت « سامية » صائحة بها :

— أماه ؟! ماذا بك ؟ ما بالك ؟

وأجابت الأم بصوت خافت وكأنها تتساقط إلى هوّة عميقة :

ــ ماذا قلت اسمه ؟

ــ كمال .

ــ كمال ماذا ؟

ــ كمال عبد الرحيم .

وعادت أمها تعتصر رأسها فى ألم شديد وتهمس لنفسها :

ــ لا .. لا .. لا يمكن أن يكون ذلك صحيحا .

وتملك « سامية » ذهول شديد ، وأخذت ترقب أمها فى فزع وسألتها فى صوت يشبه النحيب :

ــ ما بالك ؟. ماذا تقولين ؟. أجيبى يا أماه !؟ لا تتركينى هكذا حائرة .. قولى شيئاً ؟

ولم تجب الأم ، ومضت برهة ، وهى دافنة رأسها بين راحتيها .. كأنما تقاوم ألماً عنيفاً ، وأخيراً نهضت متثاقلة وقالت لسامية : تعالى .

وتبعتها « سامية » فى صمت ، وقد اصطخبت فى ذهنها الأفكار حتى أصبحت لا تكاد تعى مما حولها شيئاً .. ماذا تقول ؟ وماذا تعمل ؟

ودخلت أمها حجرة نومها ، وفتحت أحد أدراج الدولاب ، ثم أخرجت صندوقاً مغلقاً وضع ضمن الصناديق المغلقة التى كانت تضع أمها فيها حليها والأوراق الهامة .. كعقود البيع والإيجار وحجج العقارات .

ووضعت الأم الصندوق على المنضدة .. ثم أخرجت مفتاحاً صغيراً وضع داخل أحد صناديق الحلىّ ، وفتحت الصندوق ، ثم أخرجت رزمة أوراق مطوية بدا عليها القدم ، ثم مدت بها يدها إلى ابنتها ، وقالت فى صوت منخفض :

ــ خذى هذه .. اقرئيها .. كان يجب أن تقرئيها من قبل .. كان يجب أن أقول لك كل شيء .. ولكن ظننت أن الحياة يمكن أن تطوى ما مضى ، ولم أظن أن الأقدار ستعود مرة أخرى إلى نبش رفات الماضى .. خذيها .. اقرئيها .

وأمسكت « سامية » بالأوراق فى ذهول ، وكانت أمها فى حالة إعياء شديد ، فحاولت أن ترقدها ، وتجلس بجوارها ولكنها قالت لها :

— إنى بخير ، سأجلس فى الشرفة ، واذهبى أنت لقراءتها .

وسارت « سامية » إلى حجرتها ، وهى تطبق بأصابعها على تلك الأوراق .

ماذا بها !؟ ماذا يمكن أن تحتوى عليه من الأسرار ؟. وكيف سينتهى بها الأمر ؟

أيمكن أن يكون النبأ صحيحاً ؟ أيمكن أن يخيب القدر لها أول أمل فى حياتها بمثل هذه الوسيلة المفجعة .. الوسيلة المفاجئة التى لا تحدث إلا فى القصص ؟ أيمكن أن يكون قد حرّك قلبها ليلهبه بذلك السوط الموجع الأليم ؟

لقد كانت كل حياتها طبيعية سهلة .. لا غرابة فيها ، ولا مشاعر ، ولا انفعالات .. أيمكن أن يدفع فيها القدر بزوبعة عاتية .. بعد طول سكينة وهدوء ؟

لا .. لا .. حرام عليه .. إنها لم تحاول أن تطلب لنفسها شيئاً .. لقد كانت دائماً قانعة بكل شىء ، مجنبة نفسها شر رغائب النفس .. أيعقل بعد ذلك أن يهبها متطوعاً .. هذا الأمل الحلو .. ثم يسلبها إياه بهذا العنف والانفعال ؟

إنه قطعاً ليس ابنها .. ولكن مابالها قد أصابها هذا الغثيان والانهيار .. وما بالها أعطتها هذه الأوراق ؟

إن فى الأمر سراً ، ولكن مهما كان هذا السر ، فهو قطعاً ليس أخاها .

أجل ! ليس أخاها .. لا يمكن أن يكون أخاها .

ويحها ، وويحه ، وويح الأقدار العابثة .. إنها تحبه بكل جارحة فى نفسها ، تحبه كما تحب المرأة الرجل ، لا كما تحب الأخت أخاها .

وأخيراً استقرت فى فراشها وبدأت القراءة فى انهماك شديد

الجزء الثاني

القصة الأخيرة

صراع فى نفس

٦

وأخيراً .. أجلس لأكتب قصتك .. أو كما اتفقنا على تسميتها « القصة الأخيرة » .

أجلس يا أختاه وبى إحساس الخارج من معركة ... الملقى فى استرخاء ، وخمود .. الممدد الأطراف ، المتتابع الأنفاس ... يطلق الزفرة تلو الأخرى يستروح بها من طول عناء ، وصخب ، وضجة ، وحركة .

أجلس فى الفراش وبى إحساس راكب زورق أحلام جميلة ، تهادى به لحظات ، ثم عصفت به الريح فجأة فحطمته على صم الصخور وألقته من نعمائه إلى فلاة قفرة موحشة ، لا إنس فيها ولا جن ، ولا هاد ، ولا عاد ، ولا عدو ، ولا حبيب .

أجلس فى بيداء واسعة قد خلت من كل شيء وصمتت عن كل صوت .. كلّ ما حولى مغرق فى الهدوء والسكينة . ومع ذلك فما زالت تطن فى رأسى أصوات موهومة من العاصفة وضجيجها ، والزورق وحطامه .. تطن فى رأسى كأنها آتية من مكان عميق بعيد الغور .

وأطلق النفس حاراً طويلا ، وأحاول عبثاً أن أسكت ذلك الطنين الموهوم ، ثم أتلفت حولى فأجد القفر شديداً والوحشة جاثمة ، والفراغ واسعاً بلا نسمة تبل ، ولا قطرة تعل ، ولا ورقة تظل .

ويبلغ بى اليأس مبلغه .. حتى تتحسس يدى فى الربى المقفرة شيئاً تعرونى منه هزّة ، فإذا بذاهب الأمل قد عاد ودارس الرجاء قد تجدد .

وسط الفراغ الخاذل .. والوحدة المضنية .. تتلمس يدى خلا لم يخذل ورفيقاً لم يهجر .

فى هذا الصمت المخيم والسكون السائد ، وأنا مضطجع فى الفراش مكدود

مرهق ، هائم الروح ، ضال النفس ، أحس أنى قد وجدت أخيراً مستقراً وملجأ .

وسط السكون والوحدة ، حيث لا صديق ولا حبيب ولا ماء ولا غذاء ، ولا ظل ولا ثمر .. وجدت ورقاً وقلماً كانت زادى فى البأساء ، وبارقتى فى الظلماء .

حمداً لله .. إن العاصفة لم تمزق الورق و لم تحطم القلم .

حمداً لله أن أبقى لى شيئاً أستعين به على وحشة الفراغ .. وأبدد به بعض هذه السحب الثقيلة المعتمة . وأسكت به الآثار العاصفة من أصوات ملحة وطنين متواصل .

حمداً لله .. أن لم يسلبنى بعد قدرتى على الكتابة . وسلوتى فى الأحزان ، وعزائى فى الملمات .

حمداً لله الذى وهب لى الداء ، وأبقى على الدواء .

ولكن .. أترين كتابتى عنك حقاً .. دواء .. أم هى أهيج للعلة ، وأيقظ للداء ؟

أترينها حقاً ستسكن طنين العاصفة فى أذنى ، أم ستزيده حدة ؟ سواء علىّ أسكتته أم هيجته .. إنى كاتب ، كاتب ، فما تبقى لى بعد ما حدث .. سوى الكتابة .. ولن يستطيع إنسان كائناً من كان أن يمنعنى منها .

ويعلم الله كيف ستقرئين القصة .. أستقرئينها منشورة كقصة أم مرسلة إليك كرسالة ، أم تراك لن تقرئيها أبداً ؟

و كيف ستقع من نفسك ؟ أتراك ستعتبرينها رائعة .. كما قلت عن كتابتى فيما مضى .. أم ترين الروعة قد ذهبت مع ذاهب الحب ؟

على كل حال أنا لا آمل كثيراً فى أن أستعيد موضعى منك .. فكل شىء فى حياتنا هذه إلى نهاية ، وإلى زوال .

أتذكرين ما قلته لك عن الزمن ، وأنه ما خذلنا وأضحكنا على أنفسنا مثله ؟

إنى أتذكر ما قلت بالحرف الواحد :

« إننا نجلس الآن فى نشوة ، هائمين كالفراشة ، ذائبين من الوجد والصبابة .. يجد كل منا فى عينى صاحبه أقصى أمنيته ، ويصعب علينا أن نصدق ، كيف عاش أحدنا مامضى من حياته بلا صاحبه .. وكيف يمكن أن يعيش بدونه .. ثم نقسم مخلصين أن الزمن لن يستطيع أن يبهت صورة أحدنا من ذهن صاحبه ، ونقسم ونقسم . ونكتب ونكتب .

وبعد عشرة أشهر — ولا أقول عشر سنين — رغم ضآلة هذه وتلك فى عمر الزمن .. بعد عشرة أشهر ننظر إلى ما كتبنا ، ونستعيد ما قلنا ، فإذا بنا قد صرنا سخرية أنفسنا » .

وثرت على يوم كتبت لك هذا ، واتهمتنى بأنى أخشى الزمن لأنى لا أثق بنفسى .. أما أنت فلا تخشينه لأنك واثقة من حبك ، مؤمنة بأنه أبقى على الزمن الباقى من الزمن .

والآن .. ما رأيك ؟

ألا تجدين أنى كنت كثير التفاؤل حينما قلت « بعد عشرة شهور » ؟.

الآن ، ولما تمض على حبنا خمسة شهور ، قد أعلنت أنك انتهيت منه ، ولم يعد لى أى تأثير فى نفسك .. لا حزن .. ولا هناء ، ولا ضيق ولا فرح .

يا للسخرية ! أهكذا سريعاً .. انتهى كل شىء ؟!

أينتهى بمثل هذه السهولة والسرعة ، ولما تمض بضعة أيام على خطابك الذى قلت فيه :

« إن ما أحس به لك إحساس آخر .. إحساس عميق بعيد .. ملؤه الحرارة والإخلاص .. إحساس لن تخبو له على السنين بارقة ، ولن يطفأ له على الزمن أوار » .

أينتهى كل شىء ولما يخف بعد مداد خطابك الأخير ، الذى ختمته بقولك :

« على أية حال لن أكف عن حبك حتى آخر رمق .. حتى ولو كففت أنت

عن حبك . إنى سأحبك إلى النهاية » .

ولم أكف أنا عن حبك ، ولكنك كففت عنه ، ومتى؟ ليس فى آخر رمق ـ أطال الله عمرك وأدام بقاءك ـ ولا بعد عمر طويل .. ولا بعد عام أو عامين أو شهر أو شهرين .. بل فى اليوم التالى ـ الذى كتبت فيه تأكيدك هذا ـ أعلنت أنك لم تعودى تحسين نحوى بما كنت تحسين .

ولِمَ ؟ لأول خصام يحدث بيننا .

ماذا كنت متخيلة أيتها الصغيرة الحمقاء ! أكنت تتخيلين وأنت تجزمين بقولك هذا أنه لن يحدث بيننا خصام ؟

وما قيمة حبك أو ميزته أو قوته .. إذا كنت تضمنين دوامة بشرط ألا يحدث فى طريقة خصام ؟

إن أى حب عادى سطحى يمكن أن يدوم بسهولة .. مادام لا تعترضه عقبات الصد والخصام .

ولكن الحب القوي العميق ، هو الذى يتميز بثباته أمام تلك الهزات وبتخطيه لكل ما يصادفه من عقبات وعثرات .

هذا هو الحب حقاً .. أما ما عداه فهو نزوات طيش .

أفلم يكن ما بك أكثر من نزوة طيش ؟

يا لخيبة الأمل ، ويالضيعة الرجاء !

ولكن .. علام اللوم ، والعتاب ، والحساب .. وأنت بشر ، وأنثى ، وتلك هى طبيعة البشر وديدن الأنثى .

والآن يا أختاه .. بما تبقى لك من أثر حلو فى نفسى وذكريات جميلة محببة .. دعينا نتجوّل فى ربوع الماضى .. دعينا نرجع القهقرى كتفاً إلى كتف ، وخداً إلى خد .. كما كنا نفعل فيما مضى .

واعجباً !. أهكذا سريعاً .. أصبح حاضرنا ماضياً .. وحبنا ذكريات ؟

لنبدأ من البداية .

متى أبصرتك أول مرة ؟.. متى وقعت عليك عيناى فالتصقت بهما صورتك ، وأبت أن تغادرهما .. حتى يومنا هذا .. بل حتى لحظتنا هذه .. حتى بعد تحوّلك وإعلانك القطيعة ؟

رأيتك فى حفلة راقصة فى أحد المنتديات .. تدورين وتلفين وتظهرين وتختفين بين الجمع الراقص ، وكنت أجلس لأتسلى بمراقبة بضعة وجوه حسان ، أدخلتك فى زمرتها .

وهكذا حدث أول تمييز لك ، وإدخالك من حيّز العالم المجهول الواسع إلى حيّز المعلوم المعروف المحدود .. ووضعك فى معرض الجمال الذى يحلو لى مراقبته واستعراضه وأصبحت بذلك معلوماً شكلا .. ولكنك ما زلت مجهولة اسماً ، وشخصاً ، ولم يكن ذلك ليهمنى كثيراً ، بل كان يحتمل أن أظل هكذا لا أعلم عنك شيئاً .. سوى وجهك الجذاب الصغير وتقاطيعك الدقيقة الحلوة ، ولكن حدث بعد لحظة من تمييزى لك أن نادتك ابنة صديق لنا كانت تجلس معنا على منضدتنا باسم عجيب بعض الشىء .

وضحكنا على الاسم وسألتها :

ـــ أهذا هو اسمها ؟

ـــ هذا اسم تعوّدنا أن نناديها به أنا وبقية الصديقات .

ولم تسمعيها من أول مرة ، واشتركنا معها فى مناداتك على سبيل الضحك !.. ولكن ضجة الموسيقى باعدت بين أصواتنا وأذنيك .. فيئسنا من مناداتك .

ـــ وأنبأتنى صاحبتك ببعض المعلومات عنك على سبيل التعريف ، وقالت لى ضاحكة :

ـــ إنها فتاة عجيبة .. إنها قد تبدو صغيرة فى ظاهرها ، ولكنك إذا ما جالستها وتحدثت معها .. وجدت فيها سحر امرأة .. إنها تعجبك كثيراً .. إنك تستطيع أن تجعل منها بطلة قصة .

وسرّنى قولها ، فقد صدّق على نظريتى المعجبة بك .. وزاد من لفت نظرى إليك .. ولكنى لم أكن أتخيل .. أننى حقاً .. سأجعل منك بطلة قصة .

ورقصت كثيراً فى ذلك اليوم .. وكان معظم رقصك مع فتى معين .. وقيل على سبيل الضحك أنكما لا بد عاشقان .

و لم يضايقنى ذلك كثيراً ، فقد كنت أنظر إليك كمجرد شيء مستملح .

ومن ذلك اليوم تعوّدت مراقبتك ومتابعتك بنظراتى ، وكنت فى الواقع أزداد بك إعجاباً يوماً بعد يوم .. حتى أصبحت أنت هدفى الوحيد فى المراقبة .. وطردت من حين مراقبتى سواك من الحسان .

كنت أحدق فى شعرك الأسود اللامع المتهدلة خصلة منه على جبينك ، وكنت أمتع البصر بأنفك الدقيق المستوى وبعينيك الحلوتين .. الطويلتى الهدب .. وكنت ترتدين ثوباً بحمالات .. يكشف عن كتفيك .. وعن ذراعيك .

وبدأ الرفاق حولى .. يعرفون مراقبتى لك ويسخرون من إعجابى بك .. قائلين إنك ما زلت صغيرة .. وليس بك ما يستدعى كل هذا الإلحاح منى فى تتبعك والإعجاب بك .

وبدأت المناقشات بيننا عندما كنا نقارن بين الحسان وكنت أصر على أنك أجمل مخلوقة فى حلبة الرقص .. وفى الجالسات .

و لم تكونى أنت حينذاك تعرفين فىّ أكثر عن محدق فيك بلا حقك بنظراته .. لا أكثر ولا أقل .

وبدأت أنقل لصاحبتك إعجابى بك ، وأسألها عنك إذا ما لقيتها ، ولكن الظروف لم تسنح بأن ألقاك وجهاً لوجه أو أتعرف بك .. حتى حدث ذات مرة أن وجدتك وحيدة ، وقد جلست تتشاغلين بتقليب صفحات كتاب فى يدك .

وأنا مخلوق لم أتعوّد الحديث إلى فتيات لا أعرفهن .. بل ما جرؤت مرة واحدة — حتى فى صباى — على أن أقدم على مغازلة فتاة أو امرأة لا أعرفها ، ولكنى مع

ذلك لم أخجل من التقدم إليك والجلوس بجوارك .. ثم تحيتك وسؤالك عما تقرئين .

ولست أشك فى أنك قد دهشت .. إذ لم أكن صبياً تافهاً مغامراً حتى أقدم على مثل هذا العمل الصبيانى ، ولكنك لم تملكى سوى الرد علىّ ، وأجبتنى فى اقتضاب وبرود أن ما معك قصة فرنسية .

وتركتنى يومذاك ، وكنت قريراً لأنى تحدثت معك .. فقد كان ما أحسه لك مجرد إعجاب ورغبة فى معرفتك والتحدث إليك والجلوس معك .

وبدأت أنت تحسين بى ، وتميزيننى ، ولكنك كنت تبدين نافرة من الجلوس معى .. حتى حدث بيننا أول تعارف .

كنت أجلس مع صاحب لى عندما رأيته ينهض ، ثم يغيب لحظة ويعود لينبئنى أنك تجلسين على مقربة منا مع صاحبتك وأنها فرصة سانحة للجلوس معك والتعرف بك .

ولم أتوان لحظة بل نهضت متجهاً إلى منضدتكما وسلمت على صاحبتك ثم عليك ، وجلست وصاحبى معكما .

وتحدثنا سوياً ، ووجدتك تقبلين على الحديث معى فى رقة ولطف ، ولم يكن بك أثر للنفور الذى تعودت أن أجده بك دائماً .

وكنت واثقاً أنك لم تقرئى لى ، وأنك لن تقرئى لى .. لأنى أعرف أنك لا تجيدين العربية ، ولا سيما ، وأنى رأيت فى يدك من قبل رواية فرنسية ، وصدق ظنى .. بل وأسوأ من ذلك وجدتك تسخرين بكتّاب القصص الذين يكتبون فى المجلات ، وأنا واحد منهم ، وترمينهم بالتفاهة والسطحية .

وحاولت بالطبع أن أدافع عن نفسى ، وقلت لك إنى أرجو منك أن تقرئى أحد كتبى .. لو كانت لك القدرة على القراءة بالعربية .

ورحبت — مجاملة — بالقراءة لى ، ولم أدع أنا الفرصة تفلت .. وسرعان ما أعطيتك أحد الكتب .

وافترقنا ليلتذاك .. وأنا ملىء بالسعادة والمرح .

لقد أحسست أنى حصلت على شىء كثير .. بالجلوس معك ، وإعطائك كتابى ، وكنت فى الواقع تستحقين أن أسعد بك .. فقد وجدتك مخلوقة ممتازة عقلا وشخصية وإن حديثك حلو كوجهك .. وأكثر من هذا وجدتك من نوع عجيب .. نوع لا يبدو جماله خاطفاً برّاقاً ، ولكن يزداد إحساس الإنسان بجماله كلما ازداد تمعناً فيه واغترافاً منه .. نوع عميق لذيذ .. ليس ضحلا ولا سطحياً .

و لم ألقك فى اليوم التالى ، وإن كنت تواقاً إلى ذلك .. ولكننى لقيت صاحبتك فأنبأتنى أنك قرأت كتابى ، وأنك أبلغتها أنك أعجبت به جداً .

وأنا — ككل كاتب — لا يمتعنى شىء كإطراء كتابتى والمديح فى كتبى من أى مخلوق كان . فما بالك إذا كان المديح منك أنت .. المخلوقة الساحرة التى لم أحاول قط التطلع إلى جعلها قارئة لى ، بل معجبة مادحة !

وبدأت أرسل لك الكتاب تلو الكتاب وأتلقى منك آيات المديح وجميل الثناء .. دون أن تسنح الفرصة لنا بلقاء مدة أسبوعين .

ومع ذلك ، ورغم أننا لم نلتق ، فقد كنت أشعر أن وثاقاً من القربى ورباطاً من المودة يشد كل منا بصاحبه بشدة وإحكام ، وأن اللقاء الذهبى بيننا — أنا بكتبى ، وأنت بآرائك فيها وتعليقك عليها — قد زاد من تعريف كل منا بالآخر خيراً من ألف لقاء .

وهكذا بت أشعر من جانبى قبل أن ألقاك أننى قطعت فى سبيل صداقتك شوطاً كبيراً وأننا عندما نلتقى لن يكون بيننا أثر لكلفة .

وجلست أنتظرك فى أول لقاء بعد تعارفنا الروحى ولقائنا الذهنى ، وطال بى الانتظار ، وبى قلق شديد خشية ألا تحضرى .. فقد أضحى لقاؤك متعذراً إلا فى أوقات متباعدة . وخشيت أن تضيع الفرصة السانحة ، والتى لم تكن تسنح إلا قليلا .

وفجأة .. وأنا مغرق فى قلقى .. متطلع ببصرى ، لمحتك تمرين بمدخل القاعة التى جلست أنتظرك فيها .. فقفزت من موضعى ولحقت بك حيث وجدتك تتجهين إلى الشرفة ، وسلمت عليك ، وعاتبتك على التأخير .. ولكنك أنبأتنى أنك حضرت فى الموعد فلم تجدينى وأنك أنت العاتبة على تأخيرى .

وجلسنا سوياً .

وجرى الحديث بيننا حلواً ممتعاً ، وقلت لك إننى كنت أمر كثيراً بمأواك فآحسر بحنين إليك شديد . وقلت لك مازحاً إنى ما مررت عليك إلا وهتفت بقول قيس :

وما حب الديار شغلن قلبى   ولكن حب من سكن الديارا

وقلت لى أنت إن كتابتى رائعة .. وإنك ما قرأت لأحد خيراً مما قرأت لى .

ولقد سبق أن كال لى الناس المديح ، ولكنى ما اعتززت بمديح إنسان اعتززت بمديحك ، وما سرّنى من الإطراء كقولك إن كتابتى رائعة .

وتكرر بعد ذلك لقاؤنا ، وفى كل لقاء كان حديثنا لا يتعدى كتبى وإعجابك بها ، حتى قلت لى ذات مرة :

ـــ أرجوك .. لا تكف عن الكتابة . إنى لا أستطيع أن أفكر كيف أعيش بغير القراءة لك .

ولقد كان حرياً بى أن تبلغ سعادتى منتهاها .. فما أظن أنى كنت آمل قط فى أن تقولى لى أنت مثل هذا القول .. وفى أن تعتبرى كتبى من ضروريات حياتك .

ولكنى .. للعجب العجاب ، لم أطرب .. ولم أفرح !

لقد بدأ فى تلك اللحظة نضال عجيب فى نفسى .. بين الرجل والكاتب !

كنت أكره أن أكون لديك مجرد كاتب .

أنا أعرف أن ذلك كان محض خطأ .. وأنه كان يجب أن أخفى الرجل فى نفسى .. أعنى الرجل العاشق المحب .. وأنه كان يجدر بى أن أسمو وأرتفع .. وأن أظل أمامك العبقرى النابغة .

ولكنى لم أفعل . بل بدأت أتخبط فى إحساسى لكتبى . كنت أحبها ..

وأكرهها .. أحبها لأنك تحبينها .. وأكرهها لأنك تحبينها وحدها .

وإنى لأذكر أنى أهديت لك أحد كتبى وقد كتبت عليه :

« أغار من كتابى أن أهديه إليك .

أغار منه أن تعجبى بى لأنى كتبته ، ولا تعجبى به لأنى كتبته !

أغار منه أن يقضى العمر بين يديك .. يدفىء أوراقه حر أنفاسك ، ويمتع كلماته سحر عينيك !

أغار منه وأهديه إليك .

وعزائى فى إهدائى أنه بعض نفسى . ولو استطعت لأهديت إليك كل نفسى » .

ولكنى لم أكن أستطيع أن أهدى إليك كل نفسى .. لأنى كنت مقيداً .. وكنت زوجاً .

علام إذاً كان كل ما كان .. ولِمَ لم أقنع بالترفع والسمو ، وبأن أبقى لديك مجرد كاتب عبقرى .. وأن أكتفى بأن أهدى إليك — كما قلت فى كتابى — بعض نفسى .. أما كان ذلك مرضياً غرورى ومشاعرى ؟

كلا !...

كلا .. وألف كلا ..

ولو استطعت لهانت المسألة .. وانتهى الأمر .. ولظللت أمنحك وآخذ منك ما أمنح آلاف القراء وآخذ منهم .. ولما كان بينى وبينك .. بعد كل هذا .. قصة .

إن الرجل فى نفسى تغلب على كل ما عداه !

ولِمَ لا .. وأنا رجل .. قبل أن أكون كاتباً ؟

وهكذا بت أكره كتبى .. ولا أعبأ كثيراً بحديثك عنها ، ورأيك فيها .

بل بت أكره — كما قلت فى إهدائى — أن تعجبى بى لأنى كتبتها .. وأتمنى أن تعجبى بها لأنى كتبتها .

كنت أود أن تحبيها من أجلى ، لا أن تحبينى من أجلها !

كنت أود أن أكون أنا أولا .

أنا أعلم أنه ما كان يجب أن أفعل ذلك .. وما كان يجب أن أنحدر وأجذبك إلى أسفل مع الرجل ، بدلا من أن أصعد وأجذبك إلى أعلى مع الكاتب .

ولكنى لم أكن حر التصرف .. ولا حر التفكير

لسبب بسيط .. هو أننى أضحيت عاشقاً

وعاشق فى عرفى يعنى .. مجنوناً .

وهكذا بدأت أتصرف كمجنون .. فأندفع أنا الكاتب الكبير العبقرى النابغة .. إلخ .. فى هواك .. أنت الصبية الصغيرة التى قد يتردد المرء كثيراً قبل أن يضعك فى مصاف النساء !

لقد بدأت أجذبك معى فى طريق بلا هدف .. طريق لا أعرف قط ... ولا أحب أن أعرف .. إلى أين ينتهى .

وذهبت معك لأول مرة إلى السينما .

وجلسنا متجاورين .

ولا أظننى فى حاجة لأن أذكرك بأننا لم نشاهد من الفيلم صورة واحدة .. أنت محدقة بنظرك الشارد فى الظلمة بلا وعى ولا فهم ولا إدراك .. وأنا محدق فى جانب وجهك العجيب .. العجيب جداً .. الذى بدا رائعاً فى الضوء الباهت .. بأنفه الدقيق وطرفه الأشم البارز .. وشفتيك الرقيقتين .. والخصلة إياها متهدلة على جبينك .

وكنت تتلفتين إلىّ بين آونة وأخرى وقد افتر ثغرك عن ابتسامة حلوة .. ولم يكن لى أمنية وقتذاك قدر أن ألمس يدك .. مجرد لمس .. ولكننى لم أكن أجرؤ .. فما كان هناك ما يبرر مسها . فقد كنا ما نزال مجرد كاتب مجيد وقارئه معجبة .. فبأى داع أو سبب أمسك يدك ؟

ولم أجد سبيلا إلى ذلك سوى الهبوط إلى الطرق الصبيانية ، فأقول لك إنى

أود أن أقرأ كفك فى الظلمة ! ثم أقرن القول بالفعل ، وأمد يدى فأمسك بها راحتك .. فتتخبط فى كفى وتحاول التملص ، كعصفور قد وقع فى فخ وتقاوم برهة .. ثم تستسلم فى النهاية .. وتسترخى أصابعك فى يدى فى رفق ولين .

وأسمع همساتك فى الظلام تهتف بى راجية مستعطفة :

ـــ ما كان يجب علينا أن نفعل ذلك !

وكم أشعر الآن أنك كنت على حق ، وأنه ما كان علينا أن نفعل ذلك . ولكنى كنت منساقاً بقوة القلب المجنون . مندفعاً بشدة الحس المرهف . فلم أسمع نصحك بأنه ما كان علينا أن نفعل ذلك .. ففعلت ذلك ، وأكثر من ذلك .

أجل .. لقد أمسكت بيدك فى شوق ووجد ، وسمعتك تهتفين بى مرة أخرى :

ـــ أنا لست بطلة من أبطال قصصك ، فدع يدى .

ولم أدع يدك .. حقاً لم تكونى من أبطال قصصى ، ولكنك كنت أكثر من ذلك .. كنت بطلة من أبطال واقعى .. المضطرم المستعر

وحاولت أن أقبل يدك ، ولكنك سحبتها منى برفق ، وقلت :

ـــ كفى هذا !

ولم أتضايق .. فقد كنت قريراً بما أخذت .. قريراً بمجرد لمس يدك .. شاعراً بأننى حقاً يكفينى هذا .

يا للعجب !.. أنا أقنع بهذا !؟

من يصدق ؟!.

أنا أقنع بلمسة يد فى ظلمة السينما كصبية العشاق ومخابيلهم ! أنا الذى لم يكن يقنعنى فى كثير من الأحيان امرأة مستسلمة بجسدها ومفاتنها وكل ما تملك من إغراء المرأة ؟

ولكن .. علام العجب .. وقد كان هو الحادث فعلا !

كنت أحب .. وعندما يحب الإنسان .. لا تنكرى منه فعلا أياً كان .. لقد

قيل : ليس على الأعمى والمجنون حرج .. ولو أنصفوا لقالوا : ليس على الأعمى والمجنون والعاشق حرج .

وغادرنا السينما .. دون أن يحدث بيننا أكثر من مسة يد .. فى الظاهر .. أما فى الباطن .. فلا أشك أننا قطعنا فى طريق العشق مرحلة كبيرة .

أجل !... لقد غادرنا أماكننا وبنفسينا إحساس العاشقين .. رغم أنه لم تجر على لساننا كلمة حب أو غرام .

لم نحاول قط أن نفصح عما بداخلنا .. حتى التقينا فى الشرفة ذلك اللقاء العجيب .

كنت أجلس مع صاحبتك وثلّة من الأصدقاء ذات ليلة عندما أتيت إلىّ وأنبأتنى أنك ترغبين فى أن تسرى إلىّ حديثاً .

ونهضت معك وذهبنا إلى الشرفة .. لا يقطع علينا خلوتنا سوى همس النسيم واهتزاز الأوراق .

وبدت على وجهك ليلتذاك سيماء الحزن والإرهاف .. وأنت تهمسين بى راجية :

ـــ إنى لن أستطيع لقاءك أو الجلوس معك بعد الآن . يجب أن نقطع كل ما بيننا .

ولم أشعر من قولك على قسوته بأىّ ألم ، بل أحسست بمنتهى المتعة ، فلقد كانت لهجة صوتك وتعابير وجهك ، عجيبة رائعة ، تكاد من الرقة والإرهاف والحنان تصبح شيئاً ذائباً .

لقد كان فى كلماتك منتهى القسوة .. وفى صوتك منتهى الرقة ..

وقلت لك متسائلا :

ـــ ولِمَ لا نلتقى ؟.

ـــ وما الفائدة ؟.. ما الفائدة فى لقائنا ؟. ماذا يمكن أن يرجوه أحدنا من الآخر ؟.. ماذا يمكن أن نأمل من ذلك الطريق الذى نسير فيه ؟.. ما الأمل ؟

وما الرجاء ؟

— لا أمل .. ولا رجاء .. هذا الطريق .. يندفع فيه المرء دائماً بلا تفكير فى أمل ولا انتظار لرجاء .. نحن نسير فيه كحصاة تلقى من أعلى تل لا تملك أن تستقر حتى تبلغ القاع .. أو حتى توقفها عقبة .. أما أن تتوقف هى من تلقاء نفسها فذلك هو الشىء المستحيل .

— ولكننى أستطيع التوقف الآن . أنا مازلت فى ميعة الصبا ، ومستهل الحياة .. أنا مازلت فى السادسة عشرة .. والمستقبل أمامى متفتح ، فمن الجنون أن أندفع لأقيد نفسى مع إنسان مقيد فعلا .. إنى الآن أملك أمر نفسى .. ولم يصبنى بعد ذلك الشىء الذى يفقدنا السيطرة على نفوسنا والذى يجعلنا نندفع كالحصاة الملقاة من أعلى التل بلا تفكير ولا إرادة .

وكان فى صوتك رنة ألم .. وكان حديثك ملؤه الحكمة والعقل .. حديث امرأة محنكة مجربة .. لا فتاة فى السادسة عشرة !.

ووجدتك على حق فى كل ما تقولين ، وأحسست بمبلغ أنا نيتى .. ومدى اندفاعى وراء متعة قلبى دون تفكير فى مصيرك ومصلحتك .

وأطرقت فى حزن ويأس ، وقلت لك مخلصاً :

— إنى على استعداد لكل ما تطلبين .. إن الشىء الذى تخشين أن يصيبك فيفقدك سيطرتك على نفسك . قد أصابنى فعلا .. وأفقدنى سيطرتى على نفسى .. ولكننى مع ذلك أستطيع أن أكبته من أجلك وأن أحتمل آلامه فى سبيلك إذا أردت ألا ترى لى وجهاً منذ هذه اللحظة ، فإنى فاعل .

وأجبت فزعة :

— لا .. لا .. ليس هذا ما أريد .. إن هذا أسوأ علاج لحالتنا .. إنه سيحدث فى نفسى رد فعل شديد .. إنى أحب أن أراك .. وأحب أن أجلس معك وأسمع حديثك ، فإذا ما حرمت من ذلك مرة واحدة .. زاد الحرمان من رغبتى فيك ، وكنت كملقى الوقود على اللهب .

ــ ماذا تريدين إذاً ؟

ــ أن نقلل اللقاء شيئاً فشيئاً .. وأن نوهن العلاقة قليلا .. قليلا .. يجب أن نستعمل الحكمة فى إزالة ما بيننا .

وكان قولك حكيما .. آية فى الحكمة .. إذا وزناه كقول .. ولكننا إذا وزناه كواقع .. وإذا بحثنا عن جذوره فى صدورنا . ونقبنا عن أصوله ودوافعه فى قلوبنا ، لضحكنا من أنفسنا وسخرنا أشد السخرية !.

هل تعلمين أن الحديث بكل ما فيه ، والجلسة بكل ما حولها ، كانت من ألذ المتعات التى لقيتها ؟

ولا أظنك تنكرين ذلك بالنسبة لنفسك .

إن هذا الحديث الذى دار بيننا لكى نقطع علاقتنا ونضع حداً لكل ما بيننا .. لم يكن هذا هو غرضه قط .

أو كان هذا هو غرضه الظاهر .

أما غرضه الحقيقى !

أما لبه وجوهره !.. فكان اعترافاً بحب !.

كانت الجلسة فى ظاهرها مناقشة لتسوية الأمور .. ملؤها الحكمة والتدبير والأقوال المتزنة .

أما فى باطنها .. فكانت مناجاة .. من أجمل وأمتع ما وعت أذنى وقلبى من المناجاة .

لقد كانت مثلا عجيباً على أن العشاق يستطيعون أن يطووا مشاعرهم الحلوة فى كل مظهر ويكسوها بكل كساء .

إن العشاق أقدر الناس على أن يتناجوا بشتى الأحاديث ومختلف الألفاظ .

إن العشاق يستطيعون أن يتناجوا حتى بالسباب .

وافترقنا .. على أن نوهن علاقاتنا ، وقلوبنا تصدح وتخفق وترقص ، وتهتف بأن العلاقات قدازدادت ارتباطاً واشتدت وثوقاً .

و لم يكن أدل على ذلك من أن اتفاقنا على أن نقلل من اللقاء .. أضحى و كأنه اتفاق على اللقاء .

وباتت رغبتك فى تجنب ذلك الشيء .. الذى لم تجسرى على أن تسميه باسمه وهو الحب ، ذلك الذى يفقدك السيطرة على نفسك ، وكأنها رغبة فى التشبث به وفى الإغراق فيه .

لقد بدأ دور اندفاعك فى حبى .. لا كحصاة ملقاة من تل .. بل (كجلمود صخر حطه السيل من عل) .

وملأتنى السعادة ، وغمرنى النعم ، وأنا أحس بأن الرجل فى نفسى قد انتصر على الكاتب انتصاراً باهراً .. وأنه صرعه فى ميدان حبك شر صرعة ، وأن الذى أضحيت تحبينه ، أو على حد قولك — تعبدينه — هو أنا .. أنا ، وليس أنا .. الكاتب .

أجل !! لقد أحسست أنك بت تحبين كتبى لأنى كاتبها بعدما كنت تحبيننى لأنى كاتبها . وأننا بتنا فى ميدان الهوى : رجلا ، وامرأة .. بعد أن كنا كاتباً وقارئة .. أو على الأصح : عاشقاً وعاشقة ، بعد أن كنا معجباً به ، ومعجبة .

ما أعجب الإنسان .. الذى يأبى السمو ، ويرفض إلا أن يبقى إنساناً كما هو !!

كم ظننت قبل أن أعرفك .. أن أقصى متعة لى هى أن أمجد ككاتب . فلما عرفتك ومجدت فىّ فكرى وكتبى وآرائى ، وجدتنى أكره الكتب والفكر والآراء .. وأتلهف إلى أن تحبيننى كإنسان عادى ، ومخلوق بدائى .. من مخلوقات الغابة .

ما أشد أنانية الإنسان .. أنانى حتى مع نفسه ، وفكره وذهنه !!

غير مذنب

٧

وهكذا بدأت علاقتنا كولهان وولهى .. ومولع ومولعة .

ولكن كيف بدأت العلاقة تتخذ مظهراً جدياً لها ؟ كيف بدأت تبرز وتتجسد ؟

فى ذات يوم وصلتنى رسالة إعجاب ركيكة لا تختلف كثيراً عما يصلنى من رسائل القراء والقارئات .

ويبدو لى أن من الطريف أن أنقلها كما وصلتنى بنفس ألفاظها وحذافيرها :

« سيدى العزيز :

أرجو أن تقبل اعتذارى عن أسلوبى الضعيف وألفاظى غير اللائقة بمكانتك عندى .

إن رسالتى هذه إحدى ألوف الرسائل التى تتسلمها كل يوم ، ولا أظنك ستعيرها أية أهمية فإنك ستجدها كغيرها مملوءة بعبارات الإعجاب والتقدير لكتبك الشيقة ، وككل قارئة سأؤكد لك أن إعجابى إعجاب يصدر من أعماق قلبى ، وألفاظى ليست بتلك الكلمات البرّاقة التى لا تبغى إلا خداع قارئها وإيهامه بأنها صادقة ، مع أنها ليست إلا عبارات زائفة .

صدقنى يا سيدى .. إنى لا أبغى منك شيئاً ، ولكنى طالما أردت أن أعبر لك عن شعورى نحو كتبك .

لو كنت فى مكانك يا سيدى لحسدت كتبك على هذا الإعجاب والتقدير ، ولتمنيت أن أحظى ببعض منها .. وإننى متأكدة أنه لو أتيح لى معرفتك لأعجبت بك إعجاباً أعمق وأصدق من إعجابى بكتبك .. إذ أن الكتب شىء جامد لا حياة فيه .

منذ أشهر وأسابيع .. منذ اليوم الذى قرأت فيه أول كتاب لك ، وأنا أتشوق

لرؤية شخصك الجذاب . فهلا تحقق لى هذه الأمنية ؟.. إنى أعلم أن رجائى بعيد المنال ، ولكننى أطمع فى شىء لا قدرة لى أن أعيش بدونه .

آه لو تدرى أيها الشخص العزيز .. كم من ساعات وليال قضيتها فى تصور قوامك الفارع وابتسامتك الساحرة !

سأنتظرك يا سيدى .. على أحر من الجمر بجوار .... فى تمام الساعة الثانية من يوم السبت الموافق .... ولن يمكننى الانتظار أكثر من نصف ساعة لأننى سأكون فى طريقى إلى المنزل من المدرسة ، وسأكون مرتدية ثوباً كحلياً .

إن لم تحضر يا سيدى فستخيب آمالى ، وسأعيش فى عالم من نسج خيالى لأتصوّرك وأعجب بك كما يروق لى . وستكون كتبك عزائى الوحيد فى الحياة

المخلصة إلى الأبد (......)

وطويت الخطاب الأحمر المعطر ، وابتسمت .

لقد أيقنت أن الخطاب لا بد أن يكون إما مزحة ماجن أو هوس حمقاء .. و لم يشغل بالى كثيراً فقد كنت متعوّداً على قراءة الكثير من أمثال هذه الرسائل .. المرسلة من المخلصات إلى الأبد .. المعجبات دون أن يبصرننى .. بقوامى الفارع وابتسامتى الساحرة .: اللاتى يعتبرن كتبى عزاءهن الوحيد فى هذه الحياة .. واللاتى إن لم يبصرننى فستخيب آمالهن وسيعشن فى عالم من نسج الخيال .

وحامت شكوكى حول صاحبتك التى كانت السبب فى معرفتى بك ، وظننت أنها أو إحدى صاحباتها من المعجبات بكتبى هى مرسلة الخطاب .. وأن الفتيات الشقيات قد دبرن مؤامرة للسخرية والضحك علىّ .

و لم يخطر لى ببال أن أذهب ، حتى لقيت صاحبتك فأريتها الخطاب ، وسألتها عن مرسلته ، ولكنها أنكرت أنها تعرفها .. غير أن إنكارها كان أشبه باعتراف بأنها تعرف لا سيما وأنها سألتنى عما إذا كنت سأذهب أم لا .

وأجبت مؤكداً :

ـــ لن أذهب بالطبع .

ــ ولِمَ ؟.

ــ لأنى لست مجنوناً حتى أعرض نفسى لسخرية العابثات .. ولأنه ليس لدىّ وقت لتضييعه فى لقاء المعجبات على قارعة الطريق .. إن لدىّ موعداً هاماً .

أجل ! كنت على موعد للقائك ، وهو أهم عمل لدىّ أفضله عما عداه .. كان موعدنا فى الثالثة ، وكنت أعلم أنك قد تحضرين قبل ذلك ، ولذا كان علىّ أن أذهب فى الثانية والنصف أو فى الثانية ، لأقضى معك أطول وقت ممكن .

ولكن صاحبتك ألحت علىّ فى الذهاب .. ألحت إلحاحاً عجيباً .. و لم تترك لى مجالا للاختيار أو التردد .. وأضحى علىّ أن أذهب على الأقل لإرضائها .

وهكذا وجدت نفسى منساقاً إلى الذهاب إلى الموعد المضحك .. تحت ضغط صاحبتك .. وتحت تأثير رغبتى فى حب الاستطلاع .

وذهبت لأكتشف هذه المخلصة إلى الأبد .. ولأحدثها بضع دقائق ثم أعتذر لها وأذهب إلى موعدك .

وإنى لأذكر الوقت والظروف جيداً .. كان يوماً عاصفاً شديد الريح ، كثير الغبار ، وكانت الريح تصدم وجه الإنسان فلا يكاد يفتح عينيه .

ووقفت بعيداً عن مكان اللقاء .. مستطلعاً ببصرى إلى صاحبة الموعد .. حتى لا أبرز إلى مكان اللقاء قبل أن أتأكد منها ومن وجودها .

ولمحت هيكل فتاة تعبر الطريق متجهة إلى المكان، وكانت ترتدى معطفاً « بيج » و « إيشارب » قد غطى رأسها ومعظم وجهها ، وأخذت تقاوم عصف الريح بضم أطراف معطفها حول جسدها .. وقد بدا من أسفل المعطف ثوب كحلى .

وحتى هذه اللحظة لم أكن قد ميزت الفتاة ، حتى أخذت أعبر الطريق وأقترب منها .. فإذا بها .. أنت .

كانت مفاجأة عجيبة .. ولذيذة .

عجيبة لأنى لم أتوقع أن تكونى أنت صاحبة الخطاب لعدة أسباب :

أولا : لم يكن هناك ما يدفعك قط لإرساله ، ونحن على موعد للقاء فى نفس اليوم وفى نفس الموعد والمكان تقريباً .

ثانياً : لم يكن الخطاب يعبر عنك .. لأنك تعرفينني ورأيتنى .. ولا كان ممكن أن يكون مزحة منك .. لأنه لم يكن هناك ما يبرر أن تمزحى معى بهذه الطريقة .

ثالثاً : كان الخطاب ركيكاً فى الأسلوب تافهاً فى التفكير وفى التعبير ، وأنا لم أعرف عنك الركاكة أو التفاهة فى أى ناحية من نواحى تفكيرك أو تصرفك .. بل كنت أرى تفكيرك دائماً أكبر من سنك ومن مظهرك .

لهذه الأسباب كانت المفاجأة عجيبة .

أما عن كونها لذيذة فما أظن ذلك يحتاج إلى شرح أو أسباب . لذيذة لأنى وجدتك أنت .. لذيذة لأنك لذيذة .. ولأن رؤيتك لذيذة .. وسماع صوتك لذيذ .. والحديث معك لذيذ .

وارتسمت على وجهك ضحكتك الحلوة المشرقة وأنت تمدين يدك إلى متسائلة :

ـــ أظن أملك قد خاب .. لأنك لم تجد إحدى المعجبات بك ؟

ـــ خاب ؟ خيبة الله عليه إن كان قد خاب .. إن أملى ما أصاب مثل هذا الفوز الذى أصابه برؤيتك .. أتسمين لقاءك خيبة أمل ؟

ـــ لعلك كنت تنتظر معجبة جديدة !

ـــ إنك خير ما أنتظر .. هيا بنا .

ـــ إلى أين ؟

ـــ إلى مكان هادئ نجلس فيه سوياً .

ـــ لا .. لا .. إنى لا أستطيع السير أو الجلوس معك .

ـــ إن لم تسيرى فسأحملك على كتفى وأسير بك فى وسط الطريق ، فسيرى بالتى هى أحسن .

وكنت فى قولى جاداً .. كان شوقى إليك يدفعنى لأن آتى كل جنون فى سبيل استبقائك معى والجلوس بجوارك .

وجذبتك من يدك وسرنا سوياً حتى استقر بنا المقام على مقعد فى ركن خال فى الحديقة المتسعة ، وجلسنا والريح تعصف بالشجر المحيط بنا ، وتثير من الأتربة الهبة تلو الهبة .

وككل عاشقين كان لدينا الكثير مما نقول .

وسألتنى عن خطابك وعما جاء فيه قائلة :

ــ ما رأيك فيه ؟

ــ ركيك .. آية فى الركاكة .

ــ لا تقل هذا .. لقد أجهدت فيه نفسى .. كيف لم يعجبك ؟

ــ لم أكن أدرى أنك كاتبته .. وقرأته على أنه مزحة أو عبث .. ولكنى لو أعدت قراءته .. على أنه منك ، فقد أعجب به .

ــ كنت أظن أنه سيؤثر فيك . إنى عنيت كل كلمة فيه .

ــ ولكنى فى الواقع لا أشعر أنه منك .. لأنك لا تعبرين به عن نفسك .. ولا يمكن أن تعنى كل كلمة فيه ، لأنك رأيتنى وعرفتنى .. وكاتبة الخطاب تقول .. إنها تتمنى رؤيتى .

ــ على أية حال .. إن النصف الأول فيه صحيح .. وقد قصدت به أن ألقاك على حدة .

وجرى بيننا حديث لا أذكر تفاصيله ولكنى أذكر أننا عدنا مرة ثانية إلى مناقشة ضرورة عدم لقائنا ووقف ما بيننا .

ولم نستطع بالطبع أن نسمى « ما بيننا » باسمه الصريح بل كنا نكتفى بأن نسميه فقط « بما بيننا » وإن كنت أذكر أنى كنت السابق إلى الإفصاح وأنى قلت لك ونحن جلوس فى السينما أول مرة إنك أصبحت عندى بمثابة « راحة ذهنية » .

ولقد كان ذلك فعلا هو خير وصف لموضعك فى نفسى وتأثيرك فى ذهنى ..

فقد كنت ككل إنسان لا أكاد أخلو فى حياتى اليومية من مضايقات ، ولا أسلم من بعض آلام نفسية وإرهاق ذهنى .. فلما بدأت تدخلين فى حياتى أصبح التفكير فيك هو خير وسيلة لوقف تلك الآلام وإزالة أثر المضايقات .. كنت إذا أحسست بضيق وإجهاد فى الذهن أفكر فيك ، فإذا بالذهن قد استراح ، وإذا بقلقه قد تبدد ، فكأنك أصبحت للذهن مستقراً ومرفأ ومتكأ .. عندما يجهد يلجأ إلى التفكير فيك .

هذا هو تفسير ما قلته لك عن « الراحة الذهنية » .

ولقد عدت أقول لك وأنا أجلس بجوارك بين عصف الريح ، وأنت تجادلينى فى ضرورة فصم عرى ما بيننا .. أو ما يوشك أن يحل بيننا .. عدت أقول لك إن مابى لا يستطيع أحد تأنيبى عليه ولا منعى من مباشرته .. لأنـه شىء غير ملموس .. وما دام الغير لا يستطيع لمسه ، فبالتالى لا يستطيع مؤاخذتى به .

إن ما بى .. فى باطنى .. وفى ذهنى .. لا يستطيع أن يراه أو يحس به سواى .. وعلى ذلك فهو ملكى وحدى .. لا يمكن أن يمنعه عرف أو تقليد أو قواعد أو نظم .. لأن كل هذه الأوضاع لا تستطيع أن تؤاخذنا بغير مظهرنا وهو الشىء المحس الملموس .

يستطيع أحد الناس أن يلومنى على الجلوس معك .. وتستطيع القيود والنظم أن تمنعنى من لقائك .. ولكن أى شىء يستطيع أن يمنعنى من التفكير فيك .. ومن الشعور بمتعة هذا التفكير ؟

أى شىء يستطيع أن يمنع ذلك الذهن المجهد المكدود من أن يلجـأ إلى استدعائك لكى تهيئ له الراحة والاستقرار ؟

لا شىء !

لقد قلت لك إنى كإنسان فى جسد .. يمكن أن تقيدنى التقاليد .. ويمكن أن أمنع عن لقائك .. ولكنى كذهن منطلق .. وقلب متحرر .. لن تستطيع أن تقف فى سبيلى عقبة أياً كانت .

قلت لك إن كل تصرفاتى يمكن إخضاعها لقوانين الأرض .. عدا تصرف واحد .. وهو الحب .. فعندما أحَب ، لن تستطيع قوة أن تتحكم فى حبى ، لسبب واحد ، هو أنه مدفون فى باطنى ، وفى ذهنى ، وهو ملك لى وحدى .

وانتهيت من حديثى بأن قلت لك :

ـــ إن فرقتنا الجسدية مستطاعة ، فأنا أستطيع بسهولة أن أتحكم فى مظهرى وتصرفاتى أمام الناس .. أما الفرقة الذهنية .. أو الروحية .. فأمر مستحيل .. إنى أستطيع السيطرة على جسدى فأمنعه من السير إلى هذا الاتجاه أو ذاك . وإتيان هذا الأمر أو ذاك .. أما ذهنى فمن العبث أن أحاول التحكم فيه .. فهو وحده يفكر فيمن يشاء متى يشاء ، ويستريح لما يشاء حيثما شاء .. إنى قاهر جسدى ، ولكن ذهنى قاهرى .

وهكذا ظللنا نتناقش دون أن تنتهى بنا المجادلة إلى شىء . وكيف تنتهى إلى شىء ، وهى فى الواقع .. لا تقصد شيئاً ؟ إنها كانت ـــ كما قلت من قبل ـــ وسيلة للمناجاة اللذيذة الممتعة .

وأخذت الشمس فى الغروب .. ومرة ثانية جلسنا متجاورين فى الظلمة .. والدنيا تبدو صفصفاً قد خلت إلا من كلينا .

مرّة ثانية جمعتنا الظلمة والسكون والوحدة .

ولكن فى هذه المرة .. كان « ما بيننا » قد أضحى أكثر نضوجاً ، وكانت المشاعر أكثر إرهافاً .. والقلوب أشد حرارة .

وجلسنا صامتين برهة .. والأنفاس تتلاحق ، والأعين شاردة فى الظلمة .. ثم بدأت المطاردة .. بين يدى ويدك .. كلما هممت بوضعها بين أصابعى تسللت هاربة كأنها تخشى أن تقع فى كمين .. أو كأنها ظبى يتجنب الصائد حتى سكنت أخيراً خاضعة مستسلمة .

كانت دافئة .. كالصيد الذى ما تزال دماؤه حارة ، واستقرت فى يدى برهة ثم رفعتها إلى شفتى .

كانت المرة الأولى التى أجرؤ على تقبيل يدك .

أجرؤ ؟!

أهذا تعبير فى موضعه ؟

أحقاً يحتاج مثلى لكى يقبل يد فتاة .. إلى جرأة ؟!

أنا المجرّب المحنك .. أحتاج إلى جرأة .. لتقبيل يد حلوة بضة ناعمة !

أجل .. كنت أحتاج إلى جرأة .. لسبب بسيط .. هو أنى ما كنت بجوارك قط .. محنكاً مجرباً .. بل كنت هياباً وجلا ، كأى عاشق مبتدىء ، لم يعرف شئون الحب من قبل .

مرهفاً كما كنت مسموع دقات القلب .. متلاحق الأنفاس وجداً وصبابة .. أمسك بيدك الحارة فى يدى ، وكأنى أمسك بكنوز العالم .. أو كأنى أطبق على روحى بيدى . وقد تناسيت كل حنكة وتجربة ، وتبدد منى العقل وطاش الصواب ، وبت كالغر الحدث .

أما كان الأمر يحتاج — وأنا فى مثل هذه الحال — إلى جرأة ؟

ومسست بشفتى أطراف أصابعك .. وأنت تتمنعين تمنع الراضى ، وتقاومين مقاومة المستسلم .

كانت يدك عجيبة !.

أم ترانى أنا الذى كنت عجيباً ؟. بذلك القلب الخفاق فى صدرى ، والمشاعر المتأججة فى حناياى ؟.

على أية حال .. وأياً كان العجيب فينا .. لقد كنت لا أشعر بعجبى .. فما أظن هناك إنساناً يحس بنفسه ، بل هو يحس بانعكاسات نفسه على الآخرين فيرى فيهم العجب .. وهو الأكثر عجباً ، ويرى فيهم الطرب والطرب فى نفسه .

لم تكن يدك وقتذاك .. مجرد يد .. لأنها لو قيست بماديتها .. فما أظنها مهما كانت .. بمستطيعة إثارة كل تلك اللهفة فى نفسى ، والنشوة فى روحى .. ولكنها كانت شيئاً معنوياً .. كانت جزءاً من المخلوقة العجيبة الكائنة بجوارى ،

والتى ألمح فى الظلمة جانب وجهها وأسمع حفيف أنفاسها ، والتى وددت لو طويتها فى صدرى وأغلقت عليها الضلوع ، وأطبقت الحنايا .

إنى لم أمس بشفتىّ لحماً وجلداً وعظما .. بل مسست روحاً .. فداها كل روح .

وكففت أنت عن التمنع ، وتركت لى يدك أحرّك عليها شفتىّ كما أريد ، وأجريها ببطء على ظاهرها ، وفى باطنها ، وألثمها أنملا أنملا ، وظفراً ظفراً .

وبعد لحظة وجدت يدك — كما انقلبت من حالة التمنع والمقاومة إلى حالة الرضوخ والاستسلام — قد انقلبت مرة أخرى من حالة استسلام إلى حالة أكثر إيجابية .. فلم تكتف بالبقاء ساكنة فى يدى وتحت شفتى .. بل أخذت تتحرك فى بطء لتتلمس بأصابعها شفتى ، وتتحسس وجهى بأقصى مظاهر الرفق والشوق والحنان .. كما تتلمس ضريرة وجه ابنها العائد بعد طول غيبة .

وأخيراً استقرت يدك بين يدى فوق ركبتى .. كأنها تتلمس الراحة بعد شوط مجهد شاق .

ولِمَ لا ؟.. ألم تكن فى شوط الحب ؟!!

ومضت برهة ، وأنا شارد ببصرى فى الظلمة .. شاعر بأقصى آيات السعادة .. ثم تلفت نحوك .. مديراً وجهى إليك .. فمس أنفى أطراف شعرك .. ولبث أنفى فى موضعه فلم أحاول أن أنزعه من شعرك .. أو على الأصح لم أستطع فلقد شممت من شعرك عبقاً عجيباً .

ومرة أخرى أجد منك العجب !

أما قلت إن العجب كان فى نفسى ؟!

مرة أخرى أجد بك ما يختلف عن جميع البشر .. فكما وجدت فى يدك ، وأنا أمسها بشفتى شيئاً آخر غير ما وجدته فى بقية الأيدى .. كذلك وجدت فى شعرك ، وأنا أمسه بأنفى شيئاً آخر لم أجده فى سواه من الشعور .

وأخذت أستنشق منه شهيقاً بطيئاً طويلا .. كأنما أود أن أعب كل ما به من

عبير فى نفس واحد .. كأنى الصادى الظامىء يجرع الكوب مرة واحدة دون أن يغادر شفتيه .

وازددت اقتراباً بوجهى من شعرك وأخذت أحرك أنفى وشفتىّ خلال ثناياه ، ومست شفتى أذنك وانزلقت إلى أسفل حتى لامست العنق فاستقرت عليه ، ثم أخذت تتسلل ببطء على صفحة وجهك متلمسة طريقها خلسة إلى شفتيك .

وظللت مستسلمة مستكينة طوال تلك الفترة حتى اقتربت شفتاى من جانب شفتيك فإذا بك قد نفضت عن نفسك غبار الاستكانة ، ثم أدرت وجهك إلى الناحية الأخرى ونأيت بشفتيك — فى فزع — من شفتى .

وبعد أن تجنبت شفتى التقت أعيننا ، وقد استيقظ كلانا من نشوته .. ولمحت على وجهك مظاهر ألم وهتفت متوسلة فى شبه همس :

— أرجوك .. كفى .

وأحسست من ألملك ألماً أشد ، فقد كرهت أن أسبب لك ألماً أياً كان نوعه . وقلت لك :

— أنا آسف !.

وهززت رأسك ببطء وعيناك ترمقاننى فى رغبة مكبوتة يطويها الألم ، ثم همست باسمى .

وأحسست من هتافك باسمى برجفة .

لقد كان هتافك ، أعجب من مسة يدك ، وعبير شعرك

هتفت باسمى لأول مرة ، هامسة فى الظلام ، بلهجة خليط من الرجاء والاستدعاء ، واللهفة والتوسل ، والتمنى والحب .

هتفت باسمى .. مجرّداً .. وكأنك تقولين بأعمق آيات الإخلاص .... « أحبك » .

و لم أشعر إلا ، وأنا أهتف باسمك بنفس لهجتك الحارة العميقة ، وأعدت

هتافك .. فأعدت هتافى .. وظللنا نتبادل الهتاف .. كل منا ينادى باسم الآخر .. وهو يرنو إليه بنظرة ملتهمة ملتهبة لهفى ..

وعلى غير إرادة منى وجدت شفتى تمتدان مقتربتان ببطء من شفتيك .. ولم تحاولى أنت تنحيتهما ، بل ظللت موجهة إلىّ وجهك .. وأنت تهتفين باسمى ، وشفتاك غير مطبقتين .

وأخيراً مست شفتاى شفتيك .. مساً لا كمس القُبَلْ .. بل مس مشدوهين مذهولين مسحورين .. فمس القُبِلْ يكون بضغط الشفاه مطبقة .. ولكننا لم نضغط ، ولم نطبق ، بل كان كلانا فاغر الفم مفتوح الشفتين .. ولم يكن اقتراب شفاهنا عن إرادة أو عمد أو رغبة فى القُبَل .. بل كان ناتجاً عن قوة جذب قاهرة لا سيطرة لنا عليها ولا قبل لنا بمقاومتها .. فظللنا منقادين إليها .. وهى تدفع شفتى كل منا إلى شفتى صاحبه .. حتى تلاقت الشفاه .. لقاء غير منطبق .. بل لقاء متداخلا كأنه العناق .

ولم نلبث فى اللقاء .. أكثر من لحظة خاطفة ، وجدتك تسحبين شفتيك وتديرين وجهك إلى الناحية الأخرى ، وقد بدا عليك ألم عميق .

وبعد فترة راحة .. عادت شفتانا إلى التماس .. صامتة متداخلة .. ثم عدت تتحوّلين مرة أخرى .. وفى هذه المرة .. رأيت الدموع تنساب من مقلتيك .. ثم سمعتك تغرقين فى بكاء وتقولين :

ــ دعنى .. أرجوك .. إنك تعذبنى !

وأمسكت يدك ووضعتها على شفتى وسألتك ، وأنا أحس بألم مرير :

ــ ماذا يحزنك ؟ وعلام البكاء ؟

وصمت برهة تمالكت فيها نفسك وجففت دمعك ، ثم قلت لى :

ــ أهناك آلم للإنسان من أن يجد أقصى أمنيته بين يديه ولا يستطيع مسها ! إنى أحس بك ملء يدى ، ومع ذلك لا أستطيع أن أقربك .. لأنك لست لى ولن تكون لى .. إنى لا أملك فيك شيئاً .

ولم أستطع إلا أن أجيبك مخلصاً :
ــ إنك حقاً لا تملكين الشيء الملموس المحس .. لا تملكين الجسد ولكنك تملكين القلب والروح ؛ تملكين الإحساس الجارف المندفع نحوك ؛ تملكين الشعور الفياض الملتهب المحيط بك والمغرقك فى عبابه . إنك لا تملكين ما يملك باليد ، أو يرى بالعين ، ولكنك تملكين ما يحس بالروح . إنك تملكين اللب والجوهر ، تملكين كل شيء .. إنى لك بحقيقتى .. بباطنى .. لك إلى الأبد ، وبلا قيد ، ولا شرط .. فلا قيد هناك يمكن أن يوضع على الروح والقلب .
ورأيت السعادة تغمر وجهك .. وهمست ، وأنت تسندين رأسك علىّ وتمسحين بشفتيك كتفي :
ــ إن ما أملك هو الأفضل والأبقى .. ليته يدوم لى إلى الأبد .. إنه أقصى ما أرجو من دنياى .
وبعد فترة صمت قلت وأنت تهمين بالنهوض :
ــ أظن يجب أن أعود الآن إلى البيت .. كم الساعة الآن ؟
ورفعت الساعة إلى عينى محاولا قراءتها فى الظلمة وأجبتك :
ــ الساعة السابعة .
ــ السابعة ؟!! لشد ما تأخرت .. يجب أن أعود إلى البيت بسرعة .
ــ أأستطيع أن أوصلك بعربتى ؟
وبدا عليك التردد برهة ، ثم قالت :
ــ على أن تدعنى أنزل بعيداً عن البيت .. خشية أن يرانا أحد ؟
ــ كما تشائين ؟!
وغادرنا مكاننا متجهين نحو السيارة ، وجلست إلى عجلة القيادة واتخذت أنت مجلسك ملاصقة لى .. واتجهنا إلى بيتك فى الطريق المقفر المظلم .
ولم يكن بيتك ببعيد .. ولقد ساءنى ذلك .. كما لا شك قد ساءك ، فقد سمعتك تهمسين :

ـــ ليتنا نسير بلا توقف !.

ـــ إلى أين ؟

ـــ إلى أقصى الأرض .. بل إلى ما بعد الأرض .. إلى السماء .. إلى ما لا نهاية .

وأسندت رأسك على كتفى ، واحتويتنى بذراعيك .. وأصابنى من عناقك رجفة ، وأنا ممسك بعجلة القيادة ، حاولت أن أمس شفتيك بشفتى ولكنك قلت لى :

ـــ أرقب أمامك . وإلا نصطدم .. دعنى أسترح على كتفك .. إنى سعيدة هكذا .. بل ما أحسست بسعادة أكثر من الآن .

وقبل أن نصل إلى بيتك توقفت السيارة ونزلت منها وحثثت الخطى إلى باب البيت .

وعدت إلى البيت وأنا أحس بنشوة يخالطها نوع من الحزن عجيب ، نشوة من حبك .. وحزن على فعلى الطائش الأحمق .

* * *

ما هذا الذى أنا مغرق فيه .. مندفع إليه ؟

أى مخلوق عجيب أنا ؟.. كيف اندفعت إلى حبك .. وتركتك تندفعين إلى حبى ؟.

أنت نفسك كنت فى حيرة من أمرى !.. وشك من مشاعرى !

كنت تظنين أنى أتسلى بك ، كما تسليت بغيرك و لم تصدقى قط فى مبدأ الأمر أنى أحبك حقاً ، حتى لقد قلت لى ذات مرة أن صديقتك قالت لك محذرة وهى ترى اندفاعك نحوى :

ـــ إنك تلعبين بالنار .

فقلت لها متحدية :

ـــ إنى أحب اللعب بالنار .

فعادت تقول ساخرة منك ومن قولك :

ــ إنه يتسلى بك .

فاستمررت فى التحدى مجيبة :

ــ وأنا أتسلى به .

ولقد كان الأمر فعلا ، يجب ألا يعدو التسلية . أنا أتسلى بك كفتاة حلوة ، وأنت تتسلين بى ككاتب تعجبين بكتابته .

ولكننا لم نقف عند حد التسلية . فمن كان المخطئ منا ؟

لقد كنت أنا فى الواقع الأكثر خطأً .. ومع ذلك فقد كنت أقل منك إحساساً بالورز .. بل إنى ما أحسست به قط إلا بالنسبة لك ، فقد كنت دائماً أخشى عليك من نتائجه .

كنت لا أحس بالوزر لأنه لم يكن المرة الأولى أن أرتكبه .. بل لقد تعوّدت مباشرته حتى خرج من نفسى عن نطاق الأوزار .. وصار شيئاً طبيعياً .. أباشره كالطعام والنوم والسير .

أفى ذلك عجب ؟!. طبعاً .. فيه عجب !.. ولكنى لو حللته .. وفسرت أسبابه .. لما بدا فيه أى عجب !.

إن كل وزر له عند مرتكبه تحليله ومسبباته .. وإلا ما أقدم بشر على وزر .

أنا مخلوق ــ كما قلت لك ــ ذو قلب غير طبيعى .

ألا تذكرين عندما قلت لى مؤنبة :

ــ إن حبيباتك كثيرات . إنك لا تكف عن الحب قط ؟

فأجبتك :

ــ إن النحلة تنتقل بين الزهور تمتص رحيقها لكى تخرجها لنا عسلا .. وكاتب الحب .. لا بد أن يمتص رحيق الحب .. لكى يسكبه على الورق مشاعر مرهفة .. كيف أكتب عن الحب .. إذا لم أحب ؟

إن تركيب البشر يختلف فبعض الناس يغلب فيهم مركب البغضاء ، والبعض

يغلب فيه مركب المرح أو الحزن ، فتجد الأول يفيض بالبغضاء ، فهو يستطيع أن يكره عشرات الناس دون أن ينفد معين كرهه . والثانى يستطيع أن يضحك ولا يكف عن الضحك ، والثالث يغرق فى حزن إلى ما لا نهاية .

أما أنا فيبدو لى أن مركب الحب قد غلب فى نفسى كل ما عداه .. فأنا أستطيع أن أحب وأحب ، فلا معين حبى ينضب .. ولا أنا أشبع من الحب .

بل إنى لا أستطيع أن أعيش لحظة بغير حب ، بما فيه من متعات وآلام وكسب وخذلان ، وانفعالات مختلفة متناقضة .

تلك هى طبيعة خلقى .. مخلوق مثالى زاهد فى كل مباهج الحياة .. عدا الحب .

أبعد هذا أعتبر حبى لك وزراً ؟.

ولكن ألست زوجاً ؟ ألا يعتبر حبى لك خيانة لزوجتى ؟

لو أتينا للواقع لوجدنا أن حبى لك أمر مصلح مفيد .. قد يكون فى حد ذاته خيانة .. ولكنه خيانة طاهرة بريئة (إن صحت التسمية) .. قد وفر علىّ بضع خيانات غير بريئة ولا طاهرة .

أهذا أمر أكثر عجباً ؟

لا شك فى ذلك .. ولكن لو فسرته أيضاً لبطل عجبه !

أولا .. نبحث قبل كل شيء عن حقيقة علاقتى مع زوجتى .. إنها قد باتت مجرد صديقة .. لا أقل ولا أكثر .

عشر سنوات قد ضمتنا رابطة واحدة .. بدأت بالحب ثم انتهت بالزمالة ، والصداقة .

لا تغيير ولا تبديل .

عشر سنوات يظلنا سقف واحد .. وحياة واحدة .

عشر سنوات .. بلا بنين ولا بنات ، ولا شيء جديد يذهب هذا الروتين المنتظم فى حياتنا .. ويذهب بذاك الملل الجاثم والتكرار المستمر .

ولست أدرى أحقاً سبب هذا الملل .. عدم وجود البنين ؟. أم تراه مجرد علة أعتذر بها عن حالتى بالذات ؟

إنى أعرف غيرى ممن أنجبوا بنين وبنات .. ليسوا بأكثر منى استقامة ولا أقل خطايا .. بل إنهم يجعلون من الذرية مبعثاً لضيقهم وضجرهم .. ومبرراً لزلاتهم .

على أية حال إن العلة فى نفوسنا .. ولقد قلت مائة مرة : إن الزوجية ليست خير حل لمشكلة الرجل ــ الطبيعى ــ العاطفية أو الجنسية .. بل إنها ليست حلا على الإطلاق .

وقد أحاول فى بعض الأحيان .. عندما أبحث عن مبررات لعدم استقامتى .. أن أرجع بعض الخطأ لزوجتى نفسها فأقول إنها قد تكون طيبة لطيفة ودودة .. ولكنها دائمة المرض والهزال .. خالية من الحياة والحرارة .

ولكن حتى هذا أجده عذراً واهياً .. فأنا أعرف رجالا .. زوجاتهم صحيحات سليمات وبهن ما يكفى من الحياة والحرارة . ومع ذلك .. يبحثون عن الحياة والحرارة خارج بيوتهم !.

ثم .. أية زوجة .. بها حرارة وحياة ؟!

إن الزوجات الطيبات يفقدن حرارتهن وحياتهن بعد شهرين من الزواج .

وكل فتاة مخدوعة فى نفسها .. تقول إنها ستعرف كيف تحتفظ بزوجها ، فإذا ما تزوجت لم تكن خيراً من بقية الزوجات ، حتى أنت !

ألا تذكرين ما قلت لى :

ــ إنى أعرف كيف أحتفظ بزوجى .. ولو تزوجتك لعرفت كيف أحتفظ بك .

ــ لا أظن .. إننى رغم ما أحس لك من حب جارف فياض .. لو تزوجتك قد لا تكونين خيراً من زوجتى ، وقد يخبو حبى المستعر بعد بضعة شهور .. وقد أبحث بعد ذلك عن أخرى أحبها كما أحبك الآن .

قلت لك هذا بصراحة . وقلت لك إنى أحب زوجتى وأحترمها وأقدرها وأؤدى لها كل ما علىّ من واجبات عدا الحب المستعر الملتهب . ولست أظن هذا من واجبات الزواج !

وهكذا ترينني بذلك القلب المرهف غير الطبيعي .. والنفس الفنانة الهائمة الحالمة .. والبيت الفارغ إلا من الملل والتكرار . والزوجة الهادئة الطيبة الهزيلة المريضة ، المحاولة القيام بواجباتها والتى قمت لها بواجباتى خير قيام .. بهذا الوضع وتلك الطبيعة .. أخذت أحيد عن جادة الصواب .. وأميل مع الهوى .. حتى بت ذا حياتين : حياة مستقيمة غير طبيعية .. وحياة غير مستقيمة طبيعية .

وأنت تعلمين أنى لست بعربيد .. ولكن قلبى هو المستهتر العربيد .. وساعدتنى ظروفى — ككاتب وكمخلوق لا بأس بمظهره — أن يهيىء للقلب العربيد .. وفرة من الزاد والشراب .. فبات متخماً من فرط الأحباء .. فلما لقيتك كان لدىّ منهن — على ما أظن — ثلاثاً أو أربعاً .

فماذا كان تأثيرك .. عليهن ، وعلى القلب العربيد ؟

أقول الحق لقد كنت لى خير مصلح ، ومقيم ، ومهذب .. حتى لقد عجب صحبى .. كيف حدث لى هذا ، وكيف أصابنى الزهد فيما كنت عليه أتلهف ؟ وكيف بت أغض البصر عما كنت إليه أتوق ؟

وهكذا استبدلت بعدة الخيانات التى كنت أباشرها خيانة واحدة هى علاقتى بك ، وهى علاقة سامية شريفة بريئة .

وأنا لم أكن أعتبر عدة الخيانات وزراً . فمن باب أولى لا أجد فى الخيانة الواحدة — البريئة الطاهرة — أى وزر .

ولكنها مع ذلك كانت تقلقنى قلقاً شديداً ، وكانت تسبب لى فى كثير من الأحيان حزناً عميقاً .

لقد أحببتك حقاً .. حباً صادقاً عجيباً .. جعلنى أترجح فى مشاعرى بين رغبتى فى أن تحبينى وفى أن تنجى بنفسك من ذلك الحب .

كان طبيعياً أن أتمنى حبك لى .. وأن أتلهف على المزيد منه .. ولكنى لا أكاد أخلو إلى نفسى .. وأفكر فى الأمر تفكيراً خاليا من عامل الأنانية حتى أجدنى أتمنى ألا تندفعى فى هذا الحب ، وأن يخلصك الله منه .

كنت أحبك إلى هذه الدرجة .. إلى درجة أن كنت على استعداد — وأنا المغرق فى حبك — أن أتخلى عنه حتى لا يصيبك منه أذى .

ولكن لم تكن هناك جدوى فى محاولة التخلص أو التراجع .. ولو كانت هناك جدوى .. لتراجعت أنت .. فقد كنت أشد منى شعوراً بالوزر .. رغم أنك — فى الواقع — أقل منى خطأ .. لقد كنت فى السادسة عشرة .. ولكن عقلك ومشاعرك تجزم كلها بأنك فوق العشرين أو الثلاثين .

كنت لا تكادين تجلسين معى حتى أجد ذهنك قد شرد وبدا عليك الوجوم والحزن .. فأسألك فى جزع :

— ما بك ؟.

— لا شىء !.

— لا تكذبى ... لقد طافت بك موجة حزن ؟

— أجل .

— لِمَ .؟

— لأنى أفكر أنه كان ينبغى علىّ ألا أجلس معك .. إنى « بنسمّ » عندما أفكر فى حبى لك ، وعلاقتى بك .

— كفى عن هذا الكلام المرير .

— كيف أكف عنه .. وأنا أشعر أنى سارقة .. إنى لم أرتكب من قبل خطأ .. ولم أتعوّد قط ثقل الضمير .

كنت تقولين هذا .. وأنت الأقل وزراً .. الأخف مسئولية .. فأنت الأصغر سناً .. والأقل تجربة ، وفوق كل هذا .. خالية بلا زوج !

فماذا أقول أنا .. الأكبر سناً . الأكثر تجربة .. الزوج !!

وهكذا بت أشعر بالوزر مما لم أعتبره من قبل وزراً ، وكنت أنت وحدك التى تشعريننى بالوزر .

وعدت إلى بيتى ليلتذاك .. وكنت قد طلبت منى أن أفكر فيك فى الساعة العاشرة كل ليلة .. لأنك ستفكرين فىّ فى تلك اللحظة ، حتى نستطيع أن نلتقى بالذهن إذا تعذّر لقاء الجسد ، وضحكت وقلت لك :

ـــ لا حاجة بك إلى التحديد .. لأنى أفكر فيك معظم وقتى .. العاشرة ، وما قبل العاشرة ، وبعد العاشرة .

ولكنك أصررت .. ووافقت على رغبتك .

وفى الساعة العاشرة بدأت أفكر فيك .. فوجدتها طريقة عجيبة .. للقاء .. لقد كان التفكير فيك يمتعنى ، ولكن التفكير فيك .. فى هذه اللحظة بالذات وأنا أعلم أنك تفكرين فىّ ، وأنت مستلقية على فراشك ترنين بنظراتك اللهفى إلى الفراغ ، وتهتفين باسمى باللهجة التى هتفت بها أنت بجوارى فى الظلمة .. كان يسبب لى نشوة عجيبة .

وهتفت باسمك هامساً ، وأحسست من فرط التفكير فيك كأننا متجاوران .

وكأن الراقدة بجوارى .. أنت ، وليست زوجتى

زوجتى !!

لشد ما خنتها بذهنى ، وتفكيرى .

ولكنى مع ذلك أعوضها عن ذهنى الشارد .. بجسدى الحاضر .. إن لك التفكير .. ولها الأفعال .

إنى أؤدى لها كل واجب ملموس .. لا عن تصنع أو ادعاء .. ولا عن إرغام وفرض .. بل برغبة ورضاء ، لأنى أحبها وأخلص لها .. بعد كل هذا كأخت .. أو كأم .. أو كابنة .. أو كصديقة .. أو كأى شىء .. عدا المعشوقة الملهبة المضنية .

أتراني كنت مذنباً فى حقها ؟ أم ترى هناك ما يبرر ذنبى ، وهو أنى فنان ، مجنون ، وهى عليلة .. ذابلة ؟

أجل ! هذا هو العذر الشرعى الذى يبرر جرمى فى حبك .. وهو أنى مصاب بجنون الحب الدائم ، والقانون كما تعلمين .. أو كما لا تعلمين .. يهيئ لكل جان الدفاع بما ينفى عن مسلكه معنى الخطأ بالاستناد إلى الأسباب المانعة كالجنون والغيبوبة والإكراه .

وأنا كنت فى حبك فى الحالات الثلاث المانعه من المسئولية .. كنت مجنوناً بك ، ومكرهاً على حبك ، وكنت منه فى غيبوبة .

كيف أسأل عن جرمى .. بعد كل هذا ؟

وهكذا لم يكن أسهل علىّ من التخلص من الإحساس بالجرم .

ولست أدرى بعد كل ما قلت .. وبعد ذلك الإسهاب فى التحليل والشرح والتبرير ، أما زلت أبدو مخطئاً ؟

على أية حال حتى لو كنت مخطئاً فإن خطئى لا شك خطأ طبيعى تبرره الظروف ، وتسوغه الأحوال والأوضاع .

ألوان من الغيرة

٨

متى التقينا بعد ذاك ؟

أذكر أننا التقينا بضع مرات لم نكن فيها على حدة ، وأذكر أنك أعطيتنى أول خطاب حب صريح كتبته إلىّ ، وجلست ترقبيننى وأنا أقرؤه ، ولقد كان فى الواقع ممتعاً .. لذيذاً .

ثم التقينا ذات مرة وكنت على موعد مع بعض صاحباتك فأنبأتنى أنك لن تستطيعى البقاء معى .. وذهبت للقائهن ، طالبة منى أن أبقى لحظة فقد تعودين إلىّ .

وكنت واثقاً أنك لن تعودى فآثرت الانصراف .

وفى اليوم التالى وصلنى منك هذا الخطاب العجيب :

« كم أود لو أستطيع التعبير عما يجيش فى نفسى ، ولكنى أحس أن الألفاظ تخذلنى .. ماذا أقول لك ، وأنا أشعر بدونك كالضالة التائهة ؟ لقد ذهبت بالأمس للقاء صديقاتى فلم أجدهن ، فعدت إليك على عجل وبحثت عنك فى كل مكان ، وذهبت إلى الموضع الذى تعوّدت أن تضع فيه سيارتك ولكنى لم أجدها هناك ، ووجدتنى أعود وحدى إلى مكان لقائنا بطيئة الخطى مطأطئة الهامة .. وأجلس وحيدة أستعيد همساتك الحنون وعينيك المتطلعتين إلى فى لهفة وشوق .

كم أشعر بالأسى والحزن وأنا أجد الفرصة سانحة للجلوس معك بلا رقيب يزعج وحدتنا .. وأنت غير موجود .. لِمَ ذهبت ؟ لِمَ لم تمكث برهة كما طلبت منك ؟ لو بقيت لكنا الآن نجلس متلاصقين وأنا أضع يدى بين يديك فأشعر بالسكينة والدفء .

لماذا لا تأتى ؟.. إنى أناديك بنفس الطريقة التى تحبها ، ولكن ما فائدة أن تنادى شخصاً لا يسمعك ، رغم أنه يفكر فيك ؟. ولكن هل تفكر فىّ حقاً ؟

هل تذكرنى كل ليلة فى العاشرة ؟ هل تمسك بيدى وتهتف باسمى وتدعنى أنام فى هدوء لأمتع بأحلام ملؤها طيفك ؟

لقد أحسست من قبل ببعض « الاستلطاف » لبعض الأشخاص .. ولكن الشعور الذى أحسه لك شعور آخر يختلف تمام الاختلاف .. إنه شعور عميق ملؤه الحرارة والإخلاص .. شعور لن تخبوله على السنين بارقة أو يطفأ له على الزمن أوار .

إنى سأغادرك الآن لأنى لا أستطيع الكتابة .. فإنى فى حالة من الانفعال لا أملك لها دفعاً .

وماذا أستطيع أن أقول .. والألفاظ — كما قلت لك — تتضاءل أمام مشاعرى .. هل يستطيع القزم أن يحمل جبلا ؟

كذلك لا تستطيع أقزام الألفاظ أن تحمل ضخامة مشاعرى .. إن ما بداخلى لايستطاع التعبير عنه . ولكنك أنت قد تستطيع التعبير عنه فى يوم من الأيام إذا قدّر لك أن تكتب عنى ، فأنت أقدر الناس على فهم الشعور وعلى جميل التعبير .

كل ما أرجوه منك هو ألا تنسانى سريعاً .. أتوسل إليك . إنى لا أستطيع أن أتصور كيف استطعت أن أعيش من قبل بدونك ، وكيف أستطيع أن أعيش بعد ذلك بعيدة عنك ؟.. حمداً لله .. أن وهبنا العزاء فى الأحلام والسلوى فى الذكريات » .

وتلوت خطابك مثنى وثلاث ورباع .. ومازلت أتلوه إلى الآن كلما استبد بى الشوق إليك .

حمداً لله .. أن وهبنا العزاء فى الأحلام ، والسلوى فى الذكريات .

كان يجب أن أكون أنا القائل هذا .. لا أنت .

إنه قد وهبنى الأحلام والذكريات .. وهبنى فوق هذا القدرة على الكتابة .. ومع ذلك .. فلا عزاء .. ولا سلوى .

حمداً لله .. والذى لا يحمد على مكروه سواه .

وكان لا بد أن أرد على رسالتك ، إذ لم أكن أستطيع أن أراك قبل مضى مدة .

وترددت برهة فى الكتابة . فقد كانت أول مرة أكتب إليك .. وبدا لى أنى أمام امتحان .. وخشيت أن أرسب فى الكتابة وهى صناعتى . والواقع ياأختاه أنى فشلت فعلا فى كل كتابتى إليك .

كيف لا وقد كنت كثيرة الوساوس والشكوك . كنت تنقبين فى كتابتى عن المواضع التى تثير ألمك وتهيج شجنك.أما بقية الكتابة الممتعة اللذيذة التى وضعت فيها كل مشاعرى .. فقد كنت تعتبرينها مجرد صنعة ، وكنت تجزمين أنى لا أقصد منها شيئاً .

كنت تعتبرين الإساءة مقصودة .. أما الإحسان فكيف ترينه احترافاً .؟ وإنى أكتبه .. أكتبه .. كما أكتب قصصى !

وبعد تردد رددت عليك :

« أشعر وأنا أكتب إليك أنى أجتاز امتحاناً عسيراً .

إنى لم أتعوّد قط الكتابة المباشرة ، الكتابة إلى إنسان عزيز أعنيه بالذات . فلقد تعودت أن أطلق مشاعرى فى كتابتى بطريقة غير مباشرة .. تعوّدت أن أطلقها لتكون ملكا مشاعاً لكل قارىء .

لم أتعوّد أن أخص بكلماتى مخلوقاً معيناً محدداً .. أكتبها له وحده ، وأسوقها إليه منطوية فى صحائفها لا تنتهبها سوى عينيه ولا تمسها غير يديه .

لقد قلتِ فى رسالتك إنك تعجزين عن التعبير بالكتابة عما يجيش فى صدرك من مشاعر وأحاسيس .. فهل أستطيع أنا الاعتذار بذلك ؟ وهل يقبل منى مثل هذا العذر إذا أنا اعتذرت به ؟

أنا محترف الكتابة والتعبير .. وتاجر الأسطر والكلمات .

غير معقول !!

غير معقول أن أعتذر بالعجز عن التعبير .. رغم أنى أشعر فعلا بذلك العجز .. ورغم أنى قد شعرت به من قبل وأنا أجلس بجوارك .. أتأمل فى

وجهك ، وأتفرّس فى عينيك .

إنى أحس بالقلم تائها بين الأفكار .. وبالأفكار تموج صاخبة فى الذهن .. وبالذهن يتململ حائراً قلقاً فى الرأس .

ماذا أقول لك ؟.

بل لِمَ أكتب إليك والحديث غير متعذر .. واللقاء غير بعيد ؟

لِمَ أضع نفسى فى هذا الحرج فأمتحن فى كتابتى إلى أعز مخلوق كائن فى الواقع .. لا فى الوهم ولا فى الخيال .

أول سبب يدفعنى إلى الكتابة إليك .. أنى أود أن أستزيد من لحظات قربك .. فأنا بكتابتى إليك أعيش معك فى لحظات الكتابة ، وأتنقل بك بين السطور .

أنا أستدعيك بالقلم ، وأجلسك على الورق ، وأناجيك وأهتف باسمك ، وأرنو إليك .. وأنت تعرفين كم تمتعنى مناجاتك والنظر فى وجهك .

والسبب الثانى .. هو إحساسى بأنى أكثر عجزاً عن التعبير بالقول منى بالكتابة .. وأنى — رغم تهيبى الكتابة — لا شك قادر على أن أكتب لك الكثير مما لم أستطع قوله ، وأن ذلك الشىء المختزن بين جوانحى .. المضطرب فى صدرى الذى لم يجد له مخرجاً بالحديث .. قد يجده بالكتابة .. وأن الكلمات الصامتة الحائرة على شفتىّ لن تحتار كثيراً على طرف قلمى .

والسبب الثالث .. أنى وجدت فى خطابك نوعاً من الزاد أتزوّد به فى فرقتك وأستعين به على بعدك .. فخيل إلىّ أنى لو كتبت إليك فقد أمنحك بخطابى زاداً تتبلغين به ، كما منحتنى زاداً أتبلغ به .

أتجديننى مبالغاً ؟.. أم حسن الظن ؟.. أم ترين تقديرى فى موضعه ؟

ولكن مالى قد استرسلت فى سرد دوافع الكتابة حتى ملأت الصفحات وأضعت الوقت وأنا لم أكتب إليك بعد .

ترى من أين أبدأ الكتابة ؟.. من أين أمسك بطرف الخيط المشوش المضطرب

من أفكار تموج كالدوامة .

إنى أجد طرفه فى رسالتك .

رسالتك العزيزة المجنونة الملتهبة الحارة .. التى أكاد أحس منها حرارة عينيك ترنوان إلىّ فى شوق ولهفة .. وأكاد ألمس فيها دفء راحتك وأشم فيها عبير شعرك .

إنه قولك : « إن ما أحس به لك إحساس آخر .. إحساس عميق . ملؤه الحرارة والإخلاص .. إحساس لن تخبو له على السنين بارقة ، أو يطفأ له على الزمن أوار » .

إنى أحس بإحساسك .. ولكنى لا أجرؤ على مثل قولك .. لا لأنى لست واثقاً منه . بل لأنى أخشى غوادر الزمن وأكره تقلباته .

يا حبيبة الروح !. ما خذلنا كالزمن ، وما أضحكنا على أنفسنا مثله .

إننا نجلس الآن فى نشوة .. هائمين كالفراشة .. ذائبين من الوجد والصبابة ، يجد كل منا فى عينى صاحبه أقصى أمنيته ، ويصعب علينا أن نصدق ، كيف عاش أحدنا ما مضى من حياته بغير صاحبه ، وكيف يمكن أن يعيش بعد ذلك بدونه .. ثم نقسم مخلصين أن الزمن لن يستطيع أن يبهت صورة أحدنا من ذهن صاحبه .. ونقسم ، ونقسم .. ونكتب ونكتب .

وبعد عشرة أشهر — ولا أقول عشر سنين — رغم ضآلة هذه وتلك فى عمر الزمن .. بعد عشرة أشهر ننظر إلى ما كتبنا ونستعيد ما قلنا ، فإذا بنا قد صرنا سخرية أنفسنا .

أنا أكره الزمن ، لأن وظيفته هى أن يحطم مثلنا العليا ويهدم أمانينا الشم الروائع .

إنى أود لو توقف الزمن الآن .. فى هذه الفترة العجيبة حيث يصنع كل منا ذلك النموذج الرائع لصاحبه .. ثم يجلس لعبادته والتأمل فيه ، ويجد فى ذلك منتهى سعادته .

أنا أحبك صادقاً مخلصاً .. وأومن بحبك الصادق المخلص . ولكنى لا أومن بالزمن ، وفعل الزمن .

أنا أكره أن أكتب لك شيئاً يكون متعتك فى الحاضر وسخريتك فى المستقبل .

إن الزمن الساخر يتحرك .. والحاضر سيجرى فى وهاده فيضحى ماضياً .. والمستقبل البعيد المجهول سيقبل علينا فيضحى حاضراً .. معلوماً .. لا بعيداً ولا مجهولا .. وأنا أود أن أكون فى كل مراحل هذا الزمن المتحرك .. أود أن أكون .. دائماً .. دائماً .. ذلك النموذج السامى الذى ترينه الآن .

فى لحظة من لحظات ذلك المستقبل البعيد المجهول .. ستكونين زوجة .. وأماً .. وستنظرين إلى الحياة نظرة جد مختلفة .. وتجدين أن لديك الكثير مما يشغلك عن ذلك الإنسان الذى كان شغلك الشاغل فى ساعة من الزمن .. ستجدين أن لديك أبناء وزوجاً وبيتاً أصبحوا فى حياتك كل شىء .

ما دام الزمن يتحرك .. فإن هذا المستقبل مقبل مقبل ، آت .. آت .. وهذه اللحظات التى نعيش فيها الآن ذاهبة ، ذاهبة .. عافية عافية .

فى هذا المستقبل المقبل .. كل ما أتمناه .. أن أظل محتفظاً بصورتى النموذجية التى ترسمينها لى الآن .. وأن تذكرينى كإنسان حساس .. ذائب القلب وألا تسخرى من حبى لك ، وأنت كما أنت ، وأنا كما أنا ، ذلك الحب الذى نقدّسه الآن فيما بيننا، والذى تخجل من أن نصرّح به أمام الناس، أريد منك أن تقدّسيه دائماً ».

* * *

ذلك هو ما كتبت لك .

وأكثر ما يبعث العزاء فى نفسى الآن ، هو أنى كنت سديد القول ، بعيد النظر ، حتى فى أشد أوقات حبى جنوناً ونزقاً وطيشاً .

الآن ، وبعد أن تحرّك الزمن كما توقعت ، فماذا فعل بنا ؟

لشد ما أعتب عليك يا حبيبة الروح !

لقد محوتنى من ذاكرتك ، وأثبتك فى ذاكرة الزمن ، لقد رفعتنى من قائمة

نفسك ، ووضعتك فى قائمة الخلود .

بت لا شىء عندك ، وبتنا سوياً شيئاً على الزمن .

ما علينا ، ما جدوى عتاب ، من لا يسمع العتاب ؟

كيف تلقيت رسالتى وقتذاك ؟

لقد أحزنتك الرسالة .. وأنا الذى كتبتها لتسعدك .

تبدد كل ما كتبت مع الرياح ، ولم يستقر منه فى نفسك إلا قولى : إننى أخشى الزمن .

وأرسلت تقولين لى إنى لم أكتب الرسالة من قلبى ، وتتساءلين فى حيرة : كيف أخشى الزمن ، وأنت لا تخشينه ؟ أليس لدىّ من الإيمان بحبى قوة كافية للتغلب على هذه الخشية ؟ أيمكن أن تكونى أنت واثقة من بقاء حبك على الزمن ، وأنا غير واثق ؟

عجباً ! عجباً !

أتصدقين الآن أنك قلت هذا ، فى وقت ما ، ترى كيف يقع من نفسك هذا القول فى وقتنا هذا ؟

مضحك ؟! أم مرير أليم ؟!

عنى أنا ، لست أملك إزاءه إلا أن أقلب شفتىّ وأهز رأسى فى دهش وذهول .

ولقد خذلنى رأيك فى رسالتى ، وكرهت أن أفشل فى أن أبلغك ما أود إبلاغه ، وأن تسيئى فهمى ، فتظنى أنى أخشى الزمن لأنى غير واثق من حبى .

وقبل أن أرد عليك ، وصلتنى منك كراسة ، كتبت فيها قصة أهديتها إلىّ .

وأقبلت على القصة أقرؤها فى شغف ولهفة .

ولم تكن القصة أكثر من قصتنا معاً ، أفرغت فيها على لسان البطلة (التى هى أنت) كل ما فى نفسك من مشاعر ملتهبة وأحاسيس متأججة .

وكتبت فى القصة كيف تعارفنا ، وكتبت عن لقائنا فى ميدان السباق ، ووصفت تطلع كل منا إلى عينى الآخر طول السباق .

وكانت خاتمة قصتك أليمة مريرة ، فقد أصبت نفسك بداء الصدر بعد أن نأيت عنى مرغمة يائسة حتى لا تجعلى من حبك عثرة فى سبيلى ، وحتى لا تدمرى به حياتى ؛ وفى الرمق الأخير دفعك الحنين إلى رؤيتى قبل الرحيل ، فسعيت إلىّ وقضيت لحظاتك الأخيرة سعيدة بين يدى .

كانت القصة رائعة ، إذ لم تكن تزيد عن مشاعر مخلصة تنساب من نفسك المرهفة العاشقة فى تدفق وقوة .

كانت انعكاساً عما فى قلبك الجياش الزاخر الفياض . كانت شيئاً حياً ، لا أثر فيه لصنعة أو احتراف .

و لم أستطع بعد الانتهاء من قراءتها ، إلا أن أمسك القلم فأكتبْ لك مرة ثانية قائلا :

« بى حنين إلى لقائك ، ولهفة على مناجاتك .

وكيف اللقاء على البعد ، والمناجاة مع الفرقة إلا بالكتابة ؟

أفلا أقل من لقاء على الورق . ومناجاة القلم !

إنى لأشعر .. وقد انتهيت الآن من قراءة قصتك التى أهديتها إلىّ برغبة شديدة فى الكتابة إليك .. وأحس أنى فى حاجة ماسة إلى اختلاس بعض الوقت للتعليق عليها .

إن أول أثر تركته قصتك هو إيضاح جديد لذلك التوافق بين روحينا ، فإن أسلوبك فى السرد تحليل المشاعر والحوار والوصف .. قد أكد لى أنك كاتبة .. فلا عجب بعد ذلك أن تفهمينى ككاتب .. ولا عجب كذلك أن تنسجم روحانا ،. ككاتب وكاتبة .

هذا ما تركته القصة من أثر فى نفسى باعتبارها مجرد قصه .

أما ما تركته باعتبارها شيئاً حياً ، أو باعتبارها حياة واقعة كائنة ، فهو كثير .. كثير جداً .

إن قصتك شطران : الشطر الأول .. وهو الواقع الكائن الذى ينبض به

قلبك .. وتفيض به مشاعرك .. والشطر الثانى .. وهو الذى لم يقع و لم يكن ، ولكنه يلوح مهماً غامضاً وراء الأفق البعيد المجهول .

أما الشطر الأول .. فهو كما ينعكس من روحك ، سعيد مورق مزدهر .. ملء كأسه الهناء .. وملء ربوعه السعادة والنعيم .

إنى أحس به كما تحسين .. إن صورته المنعكسة من روحى تنطبق تماماً على صورته المنعكسة من روحك .. إننا نلتقى فى كل ما نحس به ، ولو كتبت أنا عنه لما كتبت أكثر مما كتبت أنت .

أما الشطر الثانى .. البعيد المجهول .. فلشد ما نختلف فيه .. إنك ترينه أسود قاتماً .. ولكنى أراه أبيض ناصعاً على الأقل فيما يختص بك .

إنك سعيدة بحبك .. وإنك ضنينة به .. تكرهين له أن يذوى ويذبل ، وتكرهين أن ترى نهاية ذلك الشىء الممتع العذب الذى ملأ عليك حياتك وجعلك تعيشين فى عالم نسج من الزهور والألحان . لشد ما يعز عليك أن ترى نهاية حبك .. ولذا تفضلين — كما رويت فى قصتك — أن تجعلى نهايتك قبل نهايته .. فتصيبى نفسك الناضرة بالذبول قبل أن يذبل هو .. فإذا بك قد ذويت وبقى هو ناضراً على الزمن .

لا .. لا .. حاشاى أن أكون أنانياً إلى هذا الحد الذى أقبل فيه مثل هذه الخاتمة .

أنا أحبك ، وأنت تعلمين أكثر من أى مخلوق سواك كيف أقولها .

أحبك .. هل تسمعينها ؟.. بقلبك .. لا بأذنيك ؟.

إنى أحبك وأعتبر أن أول واجب علىّ نحوك هو أن أجعلك أنت هانئة قبل أن أكون أنا هانئاً .

أنت ما زلت صغيرة فى مستهل عمرك .. لم ترشفى بعد ما يطيب من كأسك .. ولم تأخذى بعد نصيبك من حياتك الطويلة .

أما أنا فرشفت كأسى .. وحددت مصيرى .. ومن الأنانية أن أحاول العودة

القهقرى لأشاركك فى كأسك .. وأربط مصيرك الحر بمصيرى المقيد .

إن حبك يمتعنى وينشينى .. ولكن عندما أجلس وأفكر .. تنتابنى تلك النوبات من الحزن التى رأيتنى فيها ذات مرة .. لأنى أحس بالخوف عليك من هذا الحب .

إنه يمتعك الآن .. ولكن ماذا سيفعل بك — إذا استمر على حاله — فى مستقبل الزمن .. المستقبل اليائس الذى لا أمل فيه ؟

أنا لا أخشى على نفسى .. لأنى أشد جلداً وأكثر احتمالا للشقاء وصبراً على الأحزان .

ولكن أنت ؟.. كيف أتركك تنسابين فى حبى ؟. وكيف أتمناه منك وأتوق إليه .. وأنا أعلم أنه كلما ازداد بك .. شقت عليك نهايته ، وقست خاتمته ؟

إن أكثر ما يعزينى فى حبك كلمة قلتها لى .. وهو أنه يهبك السكينة والطمأنينة .

إن هذا هو خير ما أود أن أهبه لك .. الآن ومستقبلا .

وما زلت كلما عصف بى اليأس .. أطمئن نفسى بأنى سأحتفظ بروحك وقلبك وكل شىء فيك ، حتى أردك هانئة سالمة إلى مصيرك المقبل الناضر المزدهر .. لكى تواصلى حياتك مع مخلوق يستطيع أن يهبك ما لا أستطيع أن أهبك إياه .. ثم تذكرينى كذكرى طيبة ومثل أعلى كما تريننى الآن .

لقد قلت عن رسالتى السابقة إنى لم أكتبها من قلبى ، ولست أنكر قولك هذا ففيه الكثير من الصدق .. لأنى لا أستطيع أن أمنع عقلى من التدخل عندما أكتب إليك . إنى أكره ترك العنان لقلبى عندما أكتب إليك فهو قلب عربيد لا يعرف حدوداً ولا قيوداً .. قلب أنانى أحمق مجنون .. لا همّ له إلا أن يعب من كأس حبه ، وينهل ما يشاء من مشاعره .

ولكنى — كما قلت لك — أحبك أكثر من حبى . وأكثر من قلبى .. ولذا أستعين عليك وعلىّ ، وعلى القلب العربيد .. بشىء ساكن هادىء .. بعيد

النظر ، هو عقلى .

احتمليه الآن .. فعندما يمر الزمن ويصبح الحاضر ماضياً .. ستشكرينه كثيراً » .

* * *

تلك كانت رسالتى إليك .

رسالة مخلصة صادقة .. رغم أنها قد تكون الآن مبعث هزء وسخرية .. بعد أن قلب الزمن الأوضاع .. فوقاك شر حبك .. وألهبنى بسعير هجرانك .. وحاولت أن أستعين عليك بعقلى .. فخذلنى شر خذلان ، وتركنى للقلب المهجور المجنون يسقينى من شوقه كئوس العذاب .. ويذيقنى من لهفته مرارة الحرمان .

كنت أخشى عليك وقتذاك من حبك لى .. فقد كنت مغرقة فيه إلى حد الإفراط .. ممعنة فيه إلى حد الهوس .. حتى بدأت ألقى منك ألواناً من الغيرة .. لم تكن تخطر لى ببال .

كنت أقاسى من غيرتك ــ رغم أن الغيرة هى أقصى ما يتلهف عليه العشاق ــ لأنى كنت أشعر أنها تعذبك ، أو ــ على حد قولك ــ تقتلك .

وعلامَ ؟.. على لا شىء !.

لم يكن هناك قطعاً ما يستدعى غيرتك .. و لم يكن هناك أدرى بذلك منى .. فقد كنت مخلصاً إلى أدق حدود الإخلاص .. إخلاص فى النظر وفى التفكير .. إخلاص فى القرب وفى البعد .

وكان أول مبعث لغيرتك .. هو قصصى .. أو على وجه التحديد بطلات قصصى .

كنت تتوهمين من قصصى وقائع غرام حدثت لى .. وكنت تتخيلين فى كل بطلة معشوقة شغفت بها حباً .

ولست أبرئ نفسى من كل قصصى .. ولست أنكر أن بعضها به بعض

الحقائق .. ولكن لم تكن بهذا القدر الذى تتخيلينه .. ولا كان هناك مبرر لأن تزعجى نفسك بأشياء وهمية .. حتى لو صح بعضها .. فهو لا يزيد على أصداء لذكريات غابرة .

ولكنك اندفعت فى تعذيب نفسك .

ولقد كان يحلو لك هذا دائماً .. فما خلت فترة .. من حبنا .. من إمعانك فى تعذيب نفسك بشتى الوسائل .

وكنت أول الأمر تعذبين نفسك بتوهمك أنى ألهو بك وأتسلى ، وأنى لا أكن لك حباً حقيقياً .

فلما وثقت من حبى .. بدأت نوعاً آخر من الآلام . وهو آلام غيرة موهومة .. فلما دفعت عنك هجمات الغيرة . بدأت فى نفسك وساوس القلق .. من أن أتركك كما تركت سواك ممن أحببت قبلك .. وأخذت أدفع عنك هذه الآلام فنجحت إلى أقصى حد .. حتى قلت لى ذات مرة :

« مهما فعلت من ذنوب فسيغفرها الله لك .. لأنك أسعدتنى وأذهبتَ عنى القلق والوحدة .. وملأت روحى بالطمأنينة .. ورويت نفسى الظمأى إلى الحب .. المحرومة من الحنان » .

ومع ذلك فقد بقيت فى نفسك مشكلة كبرى .. لم أكن أستطيع لها دفعاً ولا حلا .

وهى غيرتك من زوجتى .

كنت تسائليننى كيف أجلس معها ؟ وكيف أعاملها ؟ وكيف أحدثها ؟.

وتلحين علىّ فى أن أجيبك .. فإذا ما أجبتك ... انقلبت حزينة بائسة .

إنى لأذكر ذات مرة وقد جلست تنسجين صديرياً من الصوف وحاولت مشاكستك فجذبت الإبرة الطويلة من النسيج فانحلت العقدة .. ونظرت إلىّ عاتبة وأخذت فى إعادة الإبرة إلى موضعها ووجدت إعادتها يستغرق جهداً لم أكن أتوقعه فقلت لك ضاحكا :

— لم أكن أظن أنى سأعذبك بهذا القدر !

ورفعت رأسك من الصوف ونظرت إلىّ نظرة حزينة وقلت هامسة بصوت ملؤه الأسى :

— ياريت عذابك كله كده !.

وفاجأنى قولك الحزين وتمنيت أن أحتويك بين ذراعى وأضمك إلى صدرى وأذهب عنك لوعتك وأبدد حزنك .. ولكن لم أملك إلا أن أطأطئ رأسى وسط الجمع المحيط بنا وأجيبك هامساً :

— أنا آسف .

وكنت أحس من عذابك عذاباً شراً منه .. ولكن لم أكن أملك حياله شيئاً ، فقد كنت لا أكاد أدفع عنك غيرتك من زوجتى حتى تقولين فى حزن :

— لا تنصح بشىء لم تجربه .. ماذا تفعل لو كنت مكانى .. وأنا أجلس الليل وحيدة وأتخيلك بين أحضانها .. ولكني مع ذلك لا أملك إلا أن أحتمل .. على أية حال دعنا من هذا .. إنى آسفة لأنى أزعجتك .. ولكن أعدك بألا أحزن بعد هذا .

كان أمرنا غريباً .. وبات يزداد على الزمن غرابة .. فلقد كان الحب يتمكن بيننا على مر الأيام .. وكان كل منا يشعر أنه قد أضحى جزءاً لا يتجزأ من الآخر ، وأن له حق تملكه والتحكم فيه .. كل ذلك دون أن نعرف لنا غاية ، أو على الأصح ، ونحن نعرف أننا بلا غاية .

لقيتك ذات مرة فى بيت صاحبتك . وكنت أعرف أنك تحبين العزف على البيانو .. وسألتك أن تعزفى .. فرفضت . وعجبت لرفضك ، ولكنك قلت لى :

— إنى لا أجيد إلا عزف الموسيقى الغربية ، وأنا أعرف من كتبك أنك لا تحبها ، فإذا ما سمعتها منى الآن ، فسيكون إعجابك مجاملة ، وأنا أكره أن أسمع منك مجاملة ، بل أريد أن تكون كل مشاعرك صادقة عميقة حقة .

ومرة أخرى قلت لى فى نهاية لقائنا :

— لقد قلت لى كلمة ملأتنى سعادة ، وجعلتنى أشعر أنك تحبنى حقاً .. إنى أجعلها ذخيرة العمر ، أذكرها كلما همنى هم أو احتوانى حزن .

وسألتك فى دهش :

— وما هى ؟

— لن أقولها لك .

— لم ؟!!

— لأنى لو قلتها لك فستفقد قيمتها بعد ذلك إذا ما أعدت قولها لى ، لأنى سأظن أنك تقولها مجاملة .

كنت مخلوقة عجيبة تكرهين المجاملة ، وترغبين فى إظهار الشعور الصادق العميق .

وكنت تقولين لى إنك تحبين فىّ أنى لم أحاول قط آن أمتدح ثو بك أو أتملق مظهرك .

وحدث فى ذلك اليوم الذى لقيتك فيه فى بيت صاحبتك أن عرضت على بعض صور لك ، وجلسنا نتسلى بمشاهدتها حتى توقفت أمام صورة لك ، وقد وقفت تبتسمين بجوار فتى وشعرت من الصورة بضيق وسألتك عمن يكون الفتى ؟

ولا شك أنك أدركت أن لسعة الغيرة قد مستنى

وكنت على حق ، فقد شعرت بالغيرة عليك لأول مرة ، فقد كان إقبالك المفرط علىّ وحبك الشديد لى ، يجعلنى من حبك فى طمأنينة دائمة ، فلم أشعر بالغيرة عليك من قبل .

وضحكت وقلت عاتبة :

— هذا صديق لابنة عمى .

— وعلام احتفاظك بصورته ؟

ــ مجرد ذكرى .

وقلت لك بلهجة الآمر :

ــ مزّقيها .

ودهشت ، وبدا عليك الضيق والتبرم ، فإنك لم تتعودى منى مثل هذه اللهجة الآمرة ، وأجبت متسائلة :

ــ ولِمَ ؟

ــ لأنى أريد أن تمزقيها .

ــ إنى أكره أن أتلقى أمراً .

ــ حتى منى ؟

ــ من أى مخلوق .

وشعرت بالغضب ، وقلت لك آسفا :

ــ كنت أظن أنك لن تعصى لى أمراً .

ــ هذا أمر لا مبرر له !

ــ إنه أمرى وكفى .

ــ أنا أكره كل أمر .

وأضحت المسألة أشبه بالتحدى ، ولم تكن الصورة تهمنى كثيراً ، ولكنى كرهت عنادك وقلت لك :

ــ كان يسعدنى أن ترضخى لأمرى أياً كان !

ثم صمت .. ولم نعد بعد ذلك للحديث فى الصورة ، وعندما حل موعد انصرافك ذهبت صاحبتك لتوديعك إلى الخارج ، وجلست أنا على الأريكة واجماً .

وعند عودتها أحضرت إلىّ قصاصات الصورة بعد أن مزّقتها ، وهى تودعك بالباب .

وأمسكت بالقصاصات فأخرجت منها القصاصة التى بها وجهك ،

فاحتفظت به ، وأريته لك عندما التقيت بك بعد هذا ، فقلت ضاحكة :

ـــ كنت أعلم أنك ستحتفظَ به .

ـــ وأنا أيضاً كنت أعلم أنك ستمزقين الصورة قبل أن تغادرى الدار

هذه كلها صبيانيات تافهة .. لست أدرى ما يجعلنى أستعيدها لأنثرها من الذهن على الصفحات .

إنها تفاهات قد تبدو مملة من كاتب يريد أن يمسك بتلابيب قارئه ، ويحبك له القصة ، ويطرد عنه السآمة والملل .

ولكن ما لى أنا وللقارئ ، وللقصة ؟

إنى أكتب الآن لك .

هذه قصتى الأخيرة كما قلت لك ، التى يعلم الله إذا كنت أستطيع تتميمها أم لا ، بل إذا كانت ستصل إليك أم لا !

ولكنى مع ذلك أكتب فتلك هى صنعتى ، وذلك هو عزائى ، ولا أظن هناك كائناً من كان يستطيع منعى عن الكتابة .

إنى أعتصر البقية الباقية من حياتى على هذه الأوراق . أعتصر البقية الباقية من نصف الإنسان ، الراقد على الفراش .

إن الممرضة تحاول منعى ، ولكنى أفهمتها فى قسوة وإصرار أنى لا بد أن أكتب ، أراد الطبيب أم لم يرد .

وقلت لها :

ـــ إذا كانت الكتابة ستضرنى ، فإن ترك الكتابة سيقتلنى

وهكذا تركونى أكتب .

حمداً لله مرة أخرى ، لأنه ترك لى النصف الذى أستطيع أن أكتب به

ترك النصف الأيمن ، وأشل الأيسر

أنا نصف إنسان ؟!!

من كان يصدق هذا ؟

أتصدقين أنت ؟!

أتصدقين أن هذا الجسد المتين البنيان المنتصب القامة الذى كان يحتويك بين ذراعيه قد بات أشل عاجزاً ؟!

ولكن علام هذا الحديث عن نفسى !.

عذراً . إنى ما قصدته قط .. ولكن القلم قد زل به .

دعينا من الحاضر البغيض .

دعينا منه ولنواصل الحديث عن ماضينا الممتع ، وعن سويعاتنا الحلوة معاً

بـداية النهـاية

٩

كنت أقول إن كلا منا بات يشعر بتملكه للآخر وحقه عليه ، تملكا صورياً ، وحقاً موهوماً .. فقد كان كل ما بيننا لا يزيد عن الأحاديث والكتابة ، وكان أقصى ما حدث هو ما نلته من ذلك التماسّ بين الشفتين فى الظلمة وما سببه لك من آلام وأحزان .

وكنت دائماً تحاولين تجنب لقائنا منفردين .. كنت فزعة خائفة .

حتى حدث ذات يوم أن دق التليفون فى مكتبى ، وسمعت صوتك تسألين عنى فى شىء من الوجل .

وأجبتك فى شوق وفرحة ، وسألتك متى أستطيع أن أراك ، وكنت أعرف أنك ـ كعادتك ـ ستحددين اللقاء عند صاحبتك ، وأنى لو عرضت عليك الذهاب للسينما أو اللقاء وحيدين فى مكان ما ، فسترفضين لأنك تخشين الظلمة ومس الشفاه .

ولكن لدهشتى الشديد أجبت فى صوت خفيض :

ـ تستطيع أن ترانى متى تشاء .

ـ أين ؟!

ـ حيثما تشاء ، فسأكون وحدى .

ـ حقا ؟!

وقلتها فى فرحة شديدة ، ثم اتفقنا على مكان اللقاء والموعد .

وقبل الموعد كنت فى طريقى بالسيارة إلى المكان الذى سألتنى أن أنتظرك فيه ، ولم تمض بضع دقائق حتى أبصرتك تقبلين فى خطى عجلة وجلة ، وفتحت الباب بسرعة ثم جلست بجوارى قائلة :

ـ هيا بنا .

وانطلقنا .. انطلقنا بكل ما فى معنى الكلمة .

انطلقنا بسيارتنا وبأنفسنا وقلوبنا ومشاعرنا وأرواحنا .

كان الوقت أواخر الشتاء ، وبرودة الجو لطيفة محتملة ، والسحب فى السماء تغدو متلاحقة ، كأن إحداها تمسك بتلابيب الأخرى ، وهبّات الريح تنذر بالمطر ، والطريق المؤدى إلى الصحراء قد بدا خالياً ساكنا ..

وأنت .. أنت يا حبيبة الروح .. يا منية النفس الدائمة الخالدة . يا أنشودة القلب فى كل زمان ومكان ، مهما نأيت ومهما هجرت ومهما أسأت .

أنت .. جالسة بجوارى متطلعة ببصرك فى هدوء إلى ما وراء زجاج العربة ، وأنا أرقبك بين آونة وأخرى وقد ارتديت « بلوزة » بيضاء من الأنجورا ، وبدا عنقك من ياقتها المستديرة المغلقة وكأنه عنق تمثال أبدع فيه صانعه ، ورأسك قد استقر على عنقك ، وقد شع منه سحر عجيب ، وفتنة أخاذة .

وانطلقت من صدرك تنهيدة حارة ، ثم تركت رأسك يستند فى استرخاء على كتفى ، وقلت متسائلة :

ـــ إلى أين ؟

ـــ إلى حيث تشائين .

ـــ إلى ما لا نهاية .. اذهب إلى حيث لا نستطيع العودة . إنى أحس بسكينة كبرى ، واستقرار عجيب . ليتنا نضلّ معاً ، فإن ضلالنا سوياً هو خير هداية فى حياتى .

واندفعنا بالعربة فى الطريق الصحراوى مخلفين وراءنا كل أثر للعمران والحياة .

وتركنا الطريق إلى جوف الصحراء ، وسط الرمال المنبسطة على امتداد البصر ، واختفى كل شىء عن أعيننا وكل صوت عن آذاننا ، وبت وإياك وحيدين بين السماء والأرض .

وأوقفت السيارة . وعمّ السكون وراء الصمت ، كأن المكان قد أقفر حتى منا

ونظرت إليك ، ونظرت أنت إلى الفراغ البعيد ، وأخيراً التفت إلىّ ، وهتفت باسمى بطريقتك الذائبة المتوسلة اللهفى .

كنت أشعر بظمإ شديد إليك ، وما أظن ظمأك كان أقل من ظمئى ومددت ذراعىّ نحوك فأحطتك بهما وضممتك إلىّ .

وقلت وأنت تحاولين مقاومة ضمى :

— دعنا نتحدث .

ولم آبه لقولك ، وأخذت أضمك إلىّ حتى التصق صدرانا وتماسّ أنفانا ، وشممت رائحة أنفاسك الحارة ، فسرى منها إلىّ ما يشبه التخدير ، تخدير ممتع لذيذ ، وأخذت أستنشق عبيرها فى نهم عجيب .

ومضت فترة ، وأنا ملصق طاقتى أنفى بطاقتى أنفك ، كأنى أخشى أن يتسرّب من أنفاسك العطرة شىء إلى الخارج دون أن أحتويه فى صدرى .

وأحسست بك تحركين وجهك حركة خفيفة رافعة ذقنك إلى أعلى حتى انطبقت شفاهنا .

وأغمضنا أعيننا بلا وعى ، وزدنا شفاهنا ضغطاً حتى تماست أسناننا .

وخلدنا إلى السكون وقد تراخت أعصابنا ، ورحنا فى شبه إغفاءة .

وأخيراً فتحت عينيك وسحبت شفتيك من شفتى ، وفككت حصار يدى من حولك .

وأخذ كل منا يحدق فى عينى صاحبه وهمست أنت قائلة :

— قل شيئاً .

— كل ما سأقوله سيكون تافهاً إلى جانب ما يزخر به باطنى .. إن أقصى ما أستطيع قوله .. إنى أعبدك .

— وأنا أيضاً أعبدك . إنى ملكك وحدك . كم أوحشتنى غيبتك ، وكم ناجيتك فى سكون الليل . كنت أسألك وأتخيل إجابتك علىّ ، فأرد على إجابتك الموهومة ، وأظل أتحدث معك كأنك كائن أمامى . ضع رأسك فى حجرى ،

ودعنى أتحسس شعرك .. دعنى أحقق كل ما تمنيته و كل ما كنت أفعله معك فى الأوهام والأحلام .

و لم يكن من الميسور أن أضع رأسى فى حجرك ، ونحن جالسان فى المقعد الأمامي من العربة .. وسألتك أن نجلس فى المعقد الخلفى حيث المكان أكثر اتساعاً .

و كان المطر قد بدأ يتساقط دون أن نحس به أو بالرياح التى أخذت تهب عاصفة عاتية .

وفتحنا باب العربة وانتقلنا بسرعة إلى المقعد الخلفى فانتحيت أنت أحد أركان المقعد ووضعت أنا رأسى فى حجرك ممدداً جسدى على المقعد ، ماداً ساقى على نهاية حافة المسند الأمامى .

وأخذت تخللين شعرى بيدك ، عابثة به ، وقلت وأنت تنظرين إلى وجهى وتحدقين فى عينى من عل :

ـــ إنك تبدو كطفل صغير .. وإنى أحس لك بحنان الأم .

و لم أملك إلا أن أضحك ، فقد كان عجيباً أن ينقلب الحال فأصبح أنا الطفل وأنت الأم .. أنا طفل فى الثالثة والثلاثين وأنت أم فى السادسة عشرة !.

ومددت أصابعك تتحسسين أنفى وشفتى .

ورفعت أنا يدى على غير إرادة فتحسست بها شعيرات بيضاء نبتت فى فودى ، وقلت لك ضاحكا :

ـــ أيتها الأم الصغيرة الحلوة .. ألم تلاحظى الشيب الذى قد دب فى فودى طفلك .. ما رأيك فى هذه الشعيرات البيض ؟

وأخذت تتحسسينها برفق بأصابعك .. وهتفت فى لهجتك الذائبة :

ـــ إنى أحبها .. وأحب كل شىء فيك .. دعنى أقبلها .

وانحنيت برأسك فوق رأسى ، وأخذت تقبلين فودى فى شوق وحنان وأنت تهمسين :

ـ سأقبل كل شعرة فيها . إني أعبدك . أعبدك وأعبد كل شيء فيك .. كل ما بك يستحق العبادة .

ما كان أعجبك وأعجب حبك .

إني ما لقيت في حياتي .. أعذب من حبك ولا أشهى ..

أجل يا حبيبة الروح . ما أحبني أحد كما أحببتني أنت . ما أظن إنساناً قد أحب إنساناً كما أحببتني .

كان حبك أروع وأجمل من كل ما كتب عن الحب والعشاق .

كيف لا وأنت تهمسين في صوتك الذائب وجداً :

ـ لن تستطيع أن تعرف الآن كم أحبك .. من العبث أن أحاول وصف مشاعري لك .. ولكنك قد تعرفها على حقيقتها في زمن ما .

زمن ما !!.. أي زمن ؟! لشد ما خذلنا هذا الزمن . لعنة الله عليه .. وعلى كل من توقع منه خيراً .

وسألتني أن أحدثك كيف أحببتك .. ولم يكن هناك أمتع عندي من هذا الحديث .. فاندفعت أقصه عليك .

وبين آونة وأخرى كانت الأذرع تلتف في شوق .. والصدور تتلاصق في لهفة .. والشفاه تنطبق في شدة .. والأعين تغمض في رفق .. والرءوس تغفى في نشوة .

إننا لم نمل الحديث .. ولم نمل القبل

لقد قبلتك يومذاك .. حتى التهبت شفتاك .

وحلت بنا الظلمة ونحن عنها ساهيان .. وبدا عليك الوجوم والحزن وأنت تقولين :

ـ كم أكره الفرقة .. ترى كيف تكون آخرة حبنا ؟ وددت لو غادرنا الحياة معاً ، وخلفنا الدنيا بمرارتها وسيئاتها ..

تلك كانت أمنيتك وقتذاك .. أن نجتمع كموتى بدل أن نفترق كأحياء .

ولكن لم يكن من الفرقة بد .. فافترقنا أخيراً .

وفى اليوم التالى وصلنى منك خطاب .

كان خطابك هذا بمثابة تسليم بالواقع .. ورضاء عن كل ما حدث بيننا .

كان خطابك يجزم بأنك لم تندمى على لقائنا قط ، وأنك قررت راضية أن نتمتع بحبنا على وضعه اليائس الذى لا يتيح لك أملا فى المستقبل ، والذى لا يهيئ لك إلا متعة حاضرة وألماً متوقعاً .

لقد قررت فيه أن تقبلينى كما أنا بعد أن أحسست أن ليس هناك من يستحقك ويستحق حبك .. أكثر من هذا المخلوق المقيد إلى سواك .. لقد عزمت على أن تندفعى إلى أحضانى صامة أذنيك إلا عن صوت قلبك .

والتقينا بعد ذلك بضع مرات .. فى نفس المكان ونفس الموعد ، وظللنا نرشف من النعيم ، حتى وصلتنى منك رسالتك التى أستطيع أن أعتبرها بداية النهاية .. والتى تبين أقصى الصعود فى علاقتنا ثم تشير إلى بدء الهبوط .

كانت رسالة حزينة قلقة شاكية .. بدأتها بأنك تلجئين إلىّ كصديق .. لأنك فى أزمة نفسية حادة ، وأخذت تعددين مسببات ضيقك وحزنك وألمك .. وكان أعجب ما فيها — بالنسبة لى على الأقل — هو أن إحدى بنات عمك تثقل عليك بإخبارك أنها رأت صديقاً تعرفت به فى بعض المناسبات يصاحب هذه الفتاة أو تلك .. كأنما هذا الصديق يعنى شيئاً لديك ، أو كأنها تحاول أن تدخل فى روعك أنك تحبينه .. مع أنه لا يعنى لديك شيئاً .. ثم أخذت بعد ذلك تتحدثين عما يثقل ضميرك قائلة :

« إنى فى حاجة إلى إنسان أفضى إليه بدخيلة نفسى .. إنسان يفهمنى .. إنى أشعر بثقل الضمير ، ولست أريد أن أسبب لك إزعاجاً .. ولكنى واثقة أن ضميرك أيضاً يثقل عليك كما يثقل ضميرى علىّ ، فحساب الضميرين مشترك بيننا . كم أتمنى ألا أغضبك بقولى .. وكم أتمنى أن تساعدنى على فعل الصواب ، وعلى تجنب الخطأ .. إنى أود أن أكون فى باطنى بريئة مستقيمة ، كما أبدو أمام

الناس ، وكما يعتقد فىّ كل من يعرفنى ، دعنا نكف عن اللقاء وحيدين .. إننا نستطيع أن نتمتع بلقائنا عند صاحبتى وفى الحفلات وبين الصحاب .

« إنى أعرف أنى — برغبتى هذه — أحرم نفسى وأحرمك من متعة كبرى لا نستطيع تعويضها .. ولكن لا تنس أننا نرتكب خطيئة بمجرد إحساس كل منا بحب الآخر .. إن حبنا المستتر فى القلب خطيئة ، ولكنها خطيئة لا قبل لنا على دفعها ، فلماذا نضاعفها بارتكاب أشياء نستطيع تجنبها والحياة بدونها ؟

« دعنا نكون أمناء بالقدر الذى نستطيعه .. أمناء على الأقل فى الظاهر .. ما دمنا لا نستطيع أن نمنع خيانة قلوبنا .

« ليتك تقبل رجائى وتساعدنى عليه بصدر رحب ، وبفرحة المقدم على واجب لا بد من أدائه لا بأسف المقدم على حرمان نفسه من لذة ممتعة .

« لقد كتبت قصة جديدة أرسلها إليك علها تعجبك كمجرد « قصة » .. أو على الأصح كمجرد محاولة « قصة » ، لقد كتبتها لمجرد التسلية ، ولأبين فيها قسوة الحياة وضعة البشر ، ولست أقصدك بالطبع ضمنهم .

« والقصة بالطبع غير واقعية ، فأنا لا أكن لبطلها أى إحساس ، وما شعرت له بأكثر مما شعرت لأى صديق ، أو صديقة ، إنه مجرد غر أحمق لم يكن من الذكاء بحيث يستطيع خداعى .

« وإنه ليسرنى أن تؤلمك القصة ، وأن تحس منها بعض الضيق حتى تدرك كيف أشعر ، وأنا أقرأ قصصك الغرامية الواقعية ، رغم أنى لم أقصد بها قط إيلامك .

« أنا أعلم أن رسالتى هذه ستؤثر فى نفسك كثيراً .. ولكنى مكرهة عليها لأنى فى حالة نفسية مزعجة .

« إنى أشعر الآن — بعد الكتابة — بشىء من الراحة بعد أن أفرغت ما فى صدرى .. شكراً على إنصاتك لى .. وتقبل أعمق حبى » .

* * *

أعمق حبك !!.

من أين أتقبله ؟!! من هذه الرسالة ؟!! أمجنونة أنت ؟

أتعتقدين حقاً أنه يبدو منها حب عميق . أم تحول عجيب ؟

إنى أستطيع أن أقرأ ما وراء الكتابة .. بل وما وراء ذهنك .

إنك حزينة لأن ابنة عمك أخبرتك أن صاحبك (الذى تؤكدين أنه لا يعنى لديك شيئاً) قد أبصرته مع هذه الفتاة أو تلك .

ماذا يحزنك من ذلك وهو لا يعنى لديك شيئاً ؟.

وهذه القصة التى كتبتها لثورتك على البشر .. ولإرضاء نفسك الساخطة عليهم .

لِمَ تثورين عليهم ، إذا كان الرجل الذى تعبدينه ، مازال يعبدك ؟. وأى رجل هذا الذى تكتبين عنه قصة ؟ رجل تدعين أنك لا تكنين له إلا إحساس صديق .. ثم تقولين بعد ذلك إنه لم يكن من الذكاء بحيث يستطيع خداعك ؟

إنك تدعين أنها ليست حقيقية .. ثم تعلنين عن رغبتك فى إيلامى .

ما كل هذا الخلط و « الكركبة » و « اللخبطة » .

وما الذى حرّك ضميرك وأنت المعلنة عن أقصى رضائك بما كان بيننا ؟!.

أترى قد جد جديد فى مشاعرك ؟!

قاتل الله الوساوس والشكوك .. لقد بدأت أحس بالغيرة القاتلة .

ومع ذلك — ورغم ما فى رسالتك من بوادر إزعاج — فقد تقبلتها بمنتهى الهدوء .. وقلت لنفسى : إنك لا شك مضطربة .

و لم يضايقنى من رسالتك رغبتك فى عدم اللقاء وحيدين فقد كنت — رغم متعتى بلقائك — أكره أن أسبب لك متاعب أو مضايقات ، وكنت دائماً على استعداد تام لأن أضحى بكل متعة فى سبيل إرضائك وطمأنينتك .

وعلى ذلك فقد تقبلت عرضك عن طيب خاطر ، وقلت لنفسى إنى أستطيع أن أقنع منك حتى بمجرد التفكير فيك ما دمت واثقاً من صدق مشاعرك .

ولكن ما أزعجنى هو ضيقك من حديث ابنة عمك ، وأزعجنى أكثر من هذا .. قصتك .. التى كتبتها على سبيل التسلية — وأنت مغرقة فى حبى — عن شخص آخر .. كل هذا طاف بذهنى وأنا لم أقرأ القصة بعد .. طاف بذهنى من مجرد رسالتك .

وقبل أن أقرأ القصة أسرعت بالكتابة إليك محاولا جهدى إزالة أحزانك . قائلا لك : إنه يكفى أن تفكرى فى حبى لك حتى تزول كل أحزانك ، وأنى كنت أعتقد أنك مثلى ، يكفى مجرد التفكير فىّ لتبديد كل المتاعب والهموم ، وعاتبتك قائلا : إنى ظننت أنى أحتل فى قلبك موضعاً يهيىء لى طرد كل ما به من أحزان وأشجان .

وخيل إلىّ أن كتابى سيضع حداً لحالتك هذه ، حالة التوتر والحزن . ولكنى وجدت أن رسالتى ، ككل رسالة كتبتها لك ، قد فشلت فى تأدية غرضها .. وأنها سببت لك إزعاجاً فوق إزعاج وأنها على حد قولك : روّعتك .

وليس أدل على ذلك من رسالتك نفسها التى رددت علىَّ بها .

كانت رسالة عنيفة حارة ملتهبة ثائرة ، قلت فيها :

« لقد أوجعتنى رسالتك ، بل قتلتنى قتلا ، ومزقتنى من الداخل إرباً .. لقد استدرت الدمع من مآقى ولو تركته لانهمر كالمطر ، ولكن كان لا بد من التجلد والتماسك ، فإنى لم أكن وحدى ، وإنى لم أعد بعد صغيرة ، ويجب أن أكتب مشاعرى وأخفيها فى باطنى .

« لماذا تحدثت ؟ وما هذا الذى قلت ؟

« كيف تشعر أنك لست أهلا لمنحى السعادة والسكينة التى أحتاجها ؟ هلا تعرف أن هناك بعض المنغصات فى حياتنا لا يستطيع إزالتها إلا مسببها ؟

« كيف تجسر على التشكك فى موضعك من قلبى ؟ كيف تجسر على ذلك ؟ أجننت ؟ أتقول ذلك وأنت فى وعيك وتمام عقلك ؟

« لشد ما قسوت علىّ بقولك هذا ، ولشد ما عذبتنى به .

« هل تستطيع أن تتصور حالى من الألم والعذاب ؟ أنت تدرك تماماً مبلغ حساسيتى !

« وإنها قد تكون أنانية منى أن أفكر فى نفسى أولا ، ولكنى معذبة موجعة .

« إنى أهتف باسمك كما تعوّدت أن أهتف . استمع إلىّ فلا شك أن هتافى واصل لأذنيك — أو كما تقول أنت — لقلبك .

« صدقنى ياحبيبى وثق بى ، لقد كتبت لك ما كتبت فى رسالتى السابقة كصديق ، فالصديق هو الذى نلتمس معونته إذا ما أصابتنا شدة ، فهل يعنى ذلك أنى لا أحبك ؟

« هل يعنى ألا أحبك مجرد كونى فى حالة نفسية لم تساعدنى على مخاطبتك كما يتخاطب الأحباء ؟

« وما الحب ؟ أليس هو — قبل كل شىء — صداقة خالصة لا تشوبها شائبة ؟

« ياحبيبى . إنى أتعذب . إنى لا أستطيع الكتابة ولا أستطيع التفكير لأنى أكاد أجن ، لقد شككت فى حبى من مجرد قراءتك الرسالة .. شككت فيه وأنت لم تقرأ تلك القصة الحمقاء بعد ، فماذا سيحدث إذا ما قرأتها ؟

« ويحى ! إنى أخشى أن تتلف كل شىء .

« ماذا أفعل ؟

« ولكن ، ليحدث ما يحدث ، إذا لم تثق فى حبى ، فلست أهلا له .

« ماذا كتبت لك حتى تقول لى إن موضعك لم يعد كما هو ، وماذا أفعل لأثبت لك أنى لم أتغير ولن أتغير ؟

« إنى لا أستطيع أن أرغمك على الثقة بى ، فلن تتبع إلا وحى قلبك ومشاعرك .. إنى لا أملك إلا التوضيح والرجاء ، وعليك أنت أن تفهم وتقبل .

« ألا تثيرك أنت بعض مضايقات فى عملك أو فى بيتك ؟ لِمَ تأبى علىّ أنا أيضاً أن أثور وأتضايق !! أتأبى علىّ أن يزعجنى إلحاح ابنة عمى السخيفة وملاحظاتها الثقيلة التى تريد أن تثبت بها أنى مشغوفة بصاحبها الصبى الأحمق .

« ألا يضايقنى هذا ؟! أيعجبك أنت أن يظن أى إنسان أنى أعيره أدنى التفات ؟

« إنى واثقة أنه لن يعجبك .. أفلا أكون على حق إذا أنا غضبت أو ثرت ، لأنى لا أحب سوى مخلوق واحد هو أنت ولا أريد من أحد أن يعرف أنى أحبه ، إلا أنت ؟.

« هل هناك ، ما أستطيع قوله أكثر من هذا ؟

« وهل هناك طريقة أخرى لتفسير مشاعرى ؟

« إنك تعرفنى جيداً ، وليس هناك من يستطيع فهمى أكثر منك .. إنى لا يضيرنى قط أن أخبرك بكل ما فعلت فى حياتى لأنه ليس به ما يشين ، ولأنى أعرف أنك واثق من موضعك فى قلبى ومن قيمتك عندى .

« وأرجو بعد كل هذا أن تبعد من ذهنك هذه الوساوس وأن تذكر أن هناك أشياء قد تحزنك ولا يفلح حبى لك فى تخليصك منها . وكذلك أنا .. وليس يعنى ذلك أنى لا أعبأ بك أو أنه لا قيمة لك عندى .

« إنها المرة الأولى أن أصاب بأزمة نفسية وألجأ إليك بحثاً عن المعونة والسكينة .

« لقد دفعنى توتر أعصابى إلى الشجار مع إحدى الصديقات فى هذا الصباح . ولكنى لم أكد أتسلم رسالتك حتى نسيت الصديقة ، ونسيت شجارى معها ، وأحسست بالسعادة والهدوء .. تلك هى إحدى الحالات التى يجدى حبك فيها ؛ والتى يستطيع معاونتى على التخلص من أحزانها .

« أما إذا كانت رغبتى فى عدم لقائنا وحيدين هى التى دعتك إلى التشكك فى حبى ، فانس كل ما قلت ، واذكر شيئاً واحداً وهو أنى على استعداد لأن أتبعك حيثما تشاء حتى إلى أقصى الأرض .

« ياحبيبى !! إنى لا أستطيع الشرح أكثر من ذلك ، فإذا كنت لم تقتنع بعد كل هذا ، فليس أمامى سوى الاستسلام لسوء حظى . على أية حال ، سأحبك

حتى آخر رمق فى حياتى

وثقت بى أم لم تثق .. بقيت على حبى .. أم محوتنى من ذاكرتك .. « أنى أحبك » .

ملحوظة :

إنى آسفة لأنى قد مزقت رسالتك . لأنى أحسست أنها ستبكينى فى كل وقت أعيد قراءتها . إنى أكره أن أمزق شيئاً كتبته أنت ، ولكنى أيضاً أحب ألا أستبقى منك سوى الذكريات العذبة الهنيئة .. أما الخصام والحزن والأسى ، فإنى أود أن يتبدد مع الرياح . ولذا أرجو أن تمزق خطابى الذى أحزنك حتى ننسى كل شىء عن هذا الخصام ونعود.. سعيدين كما كنا .

تلك هى رسالتك !

وأكون مجنوناً سخيفاً مغروراً ، لو طمعت فى أكثر منها ، اعتذاراً وتفسيراً وتوطيداً للحب ، وتأكيداً للوفاء .

وأكون كافراً أستحق اللعنة ، لو لم يتبدد حزنى ، ولم أحلق من الفرح فى أرفع السموات .

فلست أظن هناك أبين منها ولا أحر ولا أخلص .

ومع ذلك فقد أبى القدر السىء إلا التدخل ، فجعلنى أقرؤها بطريقة ، أضاعت الكثير من وقعها ، وبددت الكثير من أثرها .

إن سوء الحظ إذا ما بدأ ، فلن ينتهى حتى يتلف كل شىء . كذا فعل بنا سوء الحظ ، لقد بدأ يزج بنفسه بيننا فلم يتركنا إلا وكل ما بيننا قد أضحى حطاما .

إن كل ما حدث بعد ذلك من خصام كان نتيجة خطأ فى توقيت قراءة رسالتك .

لقد قلت إنى أرسلت إليك رسالتى السابقة التى تشككت بها فى حبك قبل أن أقرأ القصة .

ودعتنى الظروف ودواعى العمل إلى تأجيل قراءتها . فلم أبدأ فى قراءتها إلا

وقد وصلتني رسالتك الأخيرة التي تعتذرين فيها عن الرسالة والقصة .

وصلتني الرسالة وقد قرأت من القصة بضع صفحات .

ولست أكتمك أن القصة أثارت أعصابي ، رغم كل ما ادعيت من برود وهدوء وعدم اكتراث .

كانت القصة عبارة عن رسالة كتبتها إلى شخص أحببته ، وجعلت تستعيدين فيها ذكرياتكما معاً ، وتسوقين إليه عبارات الشوق والهيام ، وتجزمين له أنك تحبينه حتى بعد أن هجرك ، وحتى بعد أن أثبت أنه لم يرع لك عهداً .

لم تكن القصة ، قصة ، لا حوادث ، ولا حَبْك ، ولا حوار . ولكنها كانت أشبه بنفثة مصدور ، أو بآهة عاشق .

ولو كنت كاتبة أو قصاصة محترفة ، لتلمست لك بعض العذر في نفسي ، ولو كنتِ قد تعوّدت كتابة مثلها من قبل لأندى ذلك على قلبي المحرور ولعزى نفسي المرورة .

ولكنك لم تكتبي قبلها سوى واحدة ، هي قصتي ، الواقعية ، الحية .

وكتبتها لِمَ ؟ لتفرغي بها مشاعر تصطخب في صدرك ، ولتسكبي على الورق أحاسيس فاضت بنفسك .

فإذا ما أتيت بعد ذلك وكتبت هذه القصة أفلا يحق لي أن أظن أنها واقعة حال تنضح بها نفسك بعد أن هاج بها داء دفين .

وإذا كنت قد قرأت في قصتك الأولى تفاصيل دقيقة عن كل ما حدث بيننا وسرداً حقيقياً لكل أحوالنا وأفعالنا . أفلا يحق لي أن تذهب بي الظنون شتى المذاهب ، وأن أعتقد أن ما قرأته في قصتك الجديدة ، لا يعدو أن يكون حوادث حدثت لك مع صاحبك هذا وقد دفعها إلى ذهنك جرح نكأه حادث طارىء ؟

ألم تثوري لأن ابنة عمك ذكرت لك أن الصبي ـــ كما تسمينه ـــ قد شوهد مع هذه الفتاة أو تلك ؟ ألم تقولي إنك قد كتبت القصة ، إرضاء لنفسك ولتبيني فيها ضعة البشر ؟ أليست قصتك إذاً ثورة على حبيب هاجر ؟

لقد قلت لى إنك لا تكنى لبطلها أى إحساس . كيف إذاً قضيت الأيام وأنت تكتبين له بتلك الحرارة وهذا الشوق ؟

أأنت مؤلفة بارعة الوصف خصبة الخيال ؟!!

أأنت كاتبة عبقرية ؟!!

لا .. لا .. إن فى قصتك كل بواعث الغيرة ، وكل بواعث الخطر والخوف .. لقد أحسست منها ببدء صراع بينى وبين الصبى ، الصبى الذى كنت تحبينه ، أو كنت — على حد قولك — تشعرين له بمجرد إحساس صديق .

لقد كنت تغارين من بطلات قصصى . وأنا كاتب محترف .. أخلق فى كل أسبوع بطلة .

فكيف لا أغار من بطل قصتك .. وأنت لم يكن لك من بطل سواى ؟!

لا تتهمينى بالطيش والاندفاع .. بل افهمى مشاعرى كما أحللها لك .. واقتنعى بأنى كنت فى غيرتى ، وفى غضبى ، على صواب .

وعندما وصلتنى رسالتك المهدئة .. المفسرة .. الذاهبة بكل غضب .. كنت قد قرأت من قصتك بضع صفحات .. وكنت فى حال من الضيق والتوتر .

ولو أننى أنهيت قراءة قصتك وابتلعت كل سوئها .. ثم قرأت رسالتك .. لكان فى ذلك الخير كل الخير .. لأنى واثق أن رسالتك كانت جديرة بأن تمحو كل سيئاتها .. ولكن ما حدث .. هو أنى تركت القصة ، ثم أقبلت على الرسالة أقرؤها دون أن أتم القصة .

وشعرت فى نهاية قراءتى للرسالة بأقصى آيات السعادة والحبور .. وهدأت نفسى الثائرة ، واستقرت مشاعرى الهائجة .

ولو أنى كتبت ردى على رسالتك عقب الانتهاء من قراءتها مباشرة .. لكان فى ذلك أيضاً الخير كل الخير .. ولما حدث بيننا ما حدث .

ولكننى — لسوء الحظ — لم أكد أنتهى من الرسالة السعيدة .. حتى أقبلت

على القصة الشائقة وانهمكت فى تكملة قراءتها .. فلم أنته منها .. إلا وقد أتلفت — كما توقعت — كل شيء .

أجل .. لقد كانت أشبه بكوب من المرارة تسكبينه فوق طعام شهى أو شراب حلو .

لقد سكبت فى نفسى من المرارة ما أنسانى حلو رسالتك وحلو حديثك .. وحلو اعتذارك .. وجعلنى أنهار فى حزن واكتئاب .

أنا يا حبيبتى .. كاتب .. شاعرى .. حساس .. أعيش على الأوهام والخيالات .. وتؤثر فى نفسى جداً ، ما قد يظنه غيرى تفاهات وسخافات .

لهذا أحببتك .. ولهذا جننت بك .. إننا نحن الاثنان : مجنونا غرام .. لم يكادا يلتقيان حتى اندفع كل منهما فى أحضان الآخر .

أغريب بعد هذا .. أن تحدث بى قصتك من الألم والأسى ما أحدثت ؟

ومع ذلك .. فقد صممت على التجلد والتماسك .. وحاولت جهدى أن أمسك بزمام نفسى ، وألا أدع أعصابى تفلت منى أو تنهار ، وأن أجيبك بمنتهى السكينة والهدوء .. وأن أترفق بك فلا أحملك فى رسالة أخرى إزعاجاً جديداً وأن أخفى عنك كل أثر لقصتك فى نفسى .

وأمسكت بالقلم .. محاولا جهدى أن يكون ردى .. على رسالتك .. لا على قصتك ، وكتبت بضعة سطور هادئة رقيقة .. قلت لك إنى واثق من حبك .. وأنه لم يعد بنفسى أى شيء ، وأنى قبلت عذرك .

وقلت لك إن القصة من حيث هى قصة ، لا بأس بها ، وإن كانت تنقصها الخاتمة .. فهى تبدو كمجرد رسالة .. أو شبه اعتراف .

أما من حيث هى واقعة فقد عجبت مما دفعك إلى كتابتها . وهنا بدأت قدرتى على التحكم فى كتابتى تخونتى ، وبدأت سخريتى الطبيعية فى الكتابة تتخذ طريقها إلى الورق لتعلن عن ألم وتعبر عن ثورتى على القصة .

قلت لك إنى أتساءل عما دفعك إلى كتابتها ، وإنى أستطيع أن أتبين بوضوح

أنها نكسة حب قديم نكىء فيه جرح حديث ، وأنك بكتابتك تتلمسين العزاء عنه .

ثم تساءلت أيضاً .. عما دفعك إلى أن ترسليها لى أنا ؟ وهل لم يكن أفضل لو أرسلتها لصاحبها كما أرسلت لى قصتى من قبل ؟!

ثم قلت لك إنى سأرد لك القصة لأنى لا أود الاحتفاظ بممتلكات الغير ، وأن من الخير أن تبقى القصة لصاحبها .

وأرسلت لك الرسالة — برغمى — مريرة ساخرة .

وداعا

١٠

إنى لأسائل نفسى الآن : ماذا كان علىّ لو تمالكت أعصابى فلم أرسل لك تلك الرسالة ؟! أما كان ذلك خيراً ؟. وأما كنا ما زلنا نتمتع بحبنا سوياً ؟

ولكنى مع ذلك لا أملك إلا أن أجيب ، أن القدر لا بد واقع ، وأن القطيعة بيننا كانت لا بد آتية مهما حدث .

و لم تجيبى على رسالتى ، وبدا لى أنها كانت أشد وقعاً عليك من سابقتها ، فلقد بلغنى أن موضعى فى نفسك قد تزعزع ، وأنى لن أستعيد حبك لى أبداً .. كما كان .

وأحزننى قولك هذا ، أكثر مما أحزنتنى قصتك .. ورأيت نفسى أهبط من سوء إلى أسوأ ومن كدر إلى كدر .

وأرسلت لك رسالة اعتذار رقيقة ، ولكنك لم تجيبى .

واشتد بى الحزن ، فكتبت هذه الرسالة .. و لم أرسلها لك ، بل أعطيتها لك عندما التقينا بعد ذلك .

هل تذكرين ما قلت لك عن السعادة المردودة آلاماً ؟ وأن القدر بقدر ما يعطينا من متع يهبنا شقاء ؟

إنى لأجلس الآن وأسائل نفسى والحزن يرسب رويدًا رويدًا فى أعماق .. هل نضب معين السعادة المستمدة منك وبدأ سيل الأحزان يطغى ويفيض ؟

حقيقة أنى أشعر أن قلبى أفعم منك هناء ، ولكنى أكره أن يكون الهناء قد بلغ منتهاه ، وأتمنى أن تكون هبتك من الأحزان هبة مدسوسة طارئة عاجلة الزوال قريبة النهاية ، وأن يعود غيث هنائك إلى التدفق مرة أخرى فيمحو الأحزان ويبدد الشجن .

أنا أكتب الآن لنفسي وبي حنين شديد إلى الكتابة ، وأحس من القلم نوعاً عجيباً من الإخلاص ، وأشعر وأنا أمسك به كالمتشبث فى بحر ثائر يلوح من حطام سفين .

أنا لا أكتب إليك لأنى أعتقد أن كتابتى إليك كانت فاشلة دائما ، وأن صناعتى التى اتخذتها ، لم تجدنى نفعاً فى نقل ما بنفسى إلى نفسك ، وأنى لم أنجح بها إلا فى إيلامك وإغضابك .

لقد قلت لك ذات مرة إنى أحببتك وسأستمر فى حبك لأنك لم تسببى لى فى حبك ألماً وأن التفكير فيك يهيىء لى راحة ذهنية ، وأنك وطيفك وذكراك خير معين لى على طرد الهموم والتخلص من الأحزان .. فهل يرضيك بعد هذا أن ينقلب الوضع ؟ فإذا بذهنى كلما شرد فى ذكرك جثم على قلبى الحزن وفاضت بنفسى المرارة والألم .

أهكذا صمودك أمام أول تجربة ؟

هبى أنى أخطأت ، وأنى قد أسأت إليك وآلمتك برسائلى ! أهذا يدعوك إلى القول بأنى فقدت موضعى عندك ، وأن حبك لى لن يعود كما كان ؟

أبمثل هذه السهولة تزعزع حبك وإيمانك ؟

أحقاً حدث منك هذا ؟

إنى لست جزعاً لأنه لو كان قد حدث فهى شيء غير مفاجئ لى ، فأنا لست شديد التفاؤل فى الحياة ، وأنا دائم التوقع للأحزان ، دائم التهيؤ لاستقبالها .

ولكنى مع ذلك لا أود قبول أحزانك لأنى لو أخذت بعضها فسأتجرعها كلها حتى الثمالة ، وسينتهى عندئذ كل ما بيننا .

وكم أكره أن ينتهى ما بيننا ، وكم أود لو يدوم أبد الدهر .. لأنى أحس أن بك ما يميزك عن سائر الناس ، وما يجعل حبك يخلد فى نفسى ، فأرجوك ألا تبددى ذلك الوهم الذى جمل الحياة فى نفسينا .

إنى أحبك الآن كما أحببتك دائماً .. لم يتزعزع حبى قيد شعرة ، فإذا كان حبك ما زال كما هو فلننس كل ما كان ، ولندع ريح الإهمال والنسيان تذروه ليصبح كأنه ما كان » .

والتقينا بعد ذاك .. لأول مرة عقب الرسائل المتبادلة بيننا ، وعقب القصة التى سببت ذلك الخصام .

وكان للقاء المباشر .. أثر عجيب .

أتدرين كيف تنفض هبة ريح كوم غبار ؟. كذلك فعل اللقاء بما بيننا من خصام !!

لقد نفخه شر نفخة .. نفخه من بعيد ، من مجرد إقبال أحدنا على الآخر .. ورؤية كل منا لصاحبه .

لم أكد أبصرك من بعد ، حتى أصابتنى نشوة عجيبة ، ودق قلبى ببلاهة محدثى العشق .. حتى أنكرت منه لهفته واستحمقته ، وعلت شفتيك ابتسامة عريضة بمجرد أن لمحتنى وبدت عليك نفس اللهفة والشوق التى كنت تبدين بهما .

وتعاتبنا طويلا ، ونظرت إلىّ نظرتك الحلوة المشوقة وهمست بى :

ــ شوقى إليك شديد ، كأنى لم أرك منذ أشهر .

وكان هذا نفس ما أحس به .. رغم أنه لم يكن قد مضى على آخر لقاء لنا أكثر من أسبوعين .

وأجبتك فى لهفة :

ــ وشوقى إليك أشد .. قاتل الله الخصام والغيرة والوساوس لقد ألهبت نفسى ، وجعلت اليوم يمر كأنه عام .

ولم نكن فى لقائنا وحيدين تماماً .. ولكننا كنا أشبه بذلك .. فقد كنا نستطيع أن نتحدث كما نشاء رغم وجود الناس من حولنا .

وبدا عليك القلق فجأة ، وأنت تتلفتين حولك فسألت :

— ما بك ؟

— سأتركك الآن .. لأن لدىّ موعدامع إحدى صديقاتى

وبدا علىّ التجهم وقلت لك :

— كان يجب عليك ألا ترتبطى بمواعيد تقطع علينا لقاءنا .

— ولكننا جلسنا سوياً مدة طويلة ، وهناك أشياء لا بد أن أفعلها .. إنى منذ أحببتك انقطعت عن صديقاتى القدامى ، وأخشى أن أثير فى أهلى الأقاويل والشكوك .

— كما تشائين .

قلتها ونفسى تفيض بالضيق والحسرة ، وأجبْتنى راجية متوسلة :

— أرجوك ألا تحزن !. يجب أن تفهم موقفى .

— إنى أفهمه .. ولكن أريد أن أوضح لك أمراً .

— ما هو ؟

— لقد جعلتنى فى حبك كالطفل المدلل . لقد أفرطت فى حبى ، وأمعنت فى تدليلى .. حتى تعوّدت منك هذا .. وبت لا أقنع منك بغير الإفراط .. والآن .. فى هذا الوقت بالذات .. وفى هذه الفترة التالية لفترة الخصام والشكوك والوساوس والغيرة .. أرانى فى حاجة إلى هذا الإفراط الذى عودتنيه أكثر مما كنت فى أى وقت مضى .. حتى يمحو تماماً كل أثر للوساوس والأحزان .. فإن أى تقصير منك — غير مقصود — سيبعث الوساوس مرة أخرى ، وستكون نفسى مهيأة لمضاعفة أثره وتأويله بغير حقيقته . فأرجو أن تراعى ذلك وتكلفى نفسك بعض الجهد حتى يمضى بعض الوقت ويزول كل أثر لما حدث بيننا .

وكنت فى قولى صريحاً مخلصاً .. وبسطت نفسى على حقيقتها .

وابتسمت فى رقة وأجبت قائلة :

— إن الجو غير مناسب لأحاديث الحب والهوى .. ولكنى مع ذلك « أعبدك » .

ومست يدك يدى مسة خفيفة .. وكان هذا أقصى ما نستطيع فعله .

وقبل أن نفترق قلت لى :

ــ لست أعرف إذا كنا نستطيع اللقاء غداً أم لا ؟ ولكن أرجو أن تتصل بى تليفونياً ، فربما قد تسنح الفرصة للقاء .

وفى اليوم التالى اتصلت بك فى الموعد المحدد ، وكانت بى لهفة شديدة إلى لقائك ، وكنت متوقعاً ــ بعد ما قلت لك أمس ــ أنك ستهيئين لنا فرصة لقاء .

ولكنك أجبتني فى عجلة أنك لن تستطيعى لقائى .

وخذلت كثيراً . ولكنى لم أجبك بأكثر من التحية . ثم وضعت السماعة فى هدوء .

ولم أكد أضعها حتى تملكتنى ثورة مفاجئة ، وغضب شديد .

كنت واثقاً إنك تستطيعين إيجاد الفرصة للقاء .

وزج الشيطان بأنفه فى رأسى .. وبدأ يؤكد أنك لم تعودى تعبئين بى كسابق عهدك .. وأخذت مظاهر الغيرة والحنق والسخط تتفاعل فى رأسى .

وعبثاً حاولت التمسك بأهداب الاستقرار والهدوء .

ولو استطعت .. لتغير كل شيء .. ولما انتهينا إلى ما نحن عليه .

ولكن مرة أخرى .. أعود فأقول .. إن ما حدث كان لابد حادثاً .. على أية حال .. ما من وسيلة هناك لتجنب فعل القدر

ومرة أخرى طلبتك فى التليفون .

لم ؟! لأفرغ لك حمق غضبى .

وقلت لك حانقاً .. إنى لن أراك بعد هذا

وصحت مذهولة :

ــ لم .. ماذا حدث ؟

وكان الحديث سريعاً أشبه بالشرر .. ولم تكن هناك وسيلة للتفاهم الهادئ ..

كان كلانا متألماً .. موجعاً .. أنا بغضبى وحنقى ، وأنت بذهولك ودهشتك .

وأخيراً انتهى الحديث .

وهدأ لهيب الغضب ، ولكن بقيت مرارة الندم .

لعنة الله علىّ .. كان يجب أن أكبت الغضب فى صدرى فلا ألقيه عليك ، فأحطم حبك .

ولكن أى حب هذا الذى لا يتحمل صدمة غضب ؟!

ومن ذا الذى لا يغضب ؟!

لقد حاولت أن أعتذر لك .. ولكنك أعلنت القطيعة وأرسلت خطاب الوداع التالى . وهو آخر ما سمعت منك :

« كم أكره أن أنهى ما بيننا ! وكم أحس صعوبة ومرارة فى إنهائه !

« أهذه هى الطريقة التى تحترم بها حبنا ؟ لقد قلت عنى « تافهة » . أحقاً أنا كذلك ؟ وهل هذا هو اعتقادك فىّ ؟

« إنك تظن أن حبى لك قد انتهى ، ولكنى أؤكد لك أنه لم ينته ، وأؤكد لك أنى مازلت أحبك ، ولكن تذكر أنك أنت البادئ بالقطيعة ، وأنت القائل إنك لا تريد أن ترانى ، لا لشىء إلا لأنى لم أستطع لقاءك ، لأنى لم أملك اللقاء .. ولأنى لست حرة فى أن أفعل كل ما أريد بل لا بد لى أن أفعل ما يريد أهلى .

« ولكنى واثقة أننا قد وصلنا إلى نقطة ، أو إلى حالة ، لا بد لنا إزاءها من وضع حد للقائنا ، وإنى أقول لقاءنا ، ولا أقول حبنا .

« لقد استطعت لقاءك فيما مضى ، ولكن لا تدرى شيئاً عما كنت أقاسيه من أجل ذلك .. كنت دائماً أضطر إلى الكذب ، وهو أبغض إلى نفسى .

« لقد اعترفنا دائماً أن ما بيننا ما كان يجب أن يكون ، وأننا لو حاولنا أن نكون أبرياء فى مظهرنا ، فإن الخطيئة ستبقى كامنة فى قلوبنا ، ومع ذلك فإنى أعتقد أنى لو استطعت أن أحبك بينى وبين نفسى ، أحبك دون أن أراك أو ألقاك حباً صامتاً فى الحنايا ، مستقراً فى الأعماق .. فإننى أكون قد فعلت بذلك ما تمنيت أن أفعله دائماً .. ولكن لم تكن لدىّ الشجاعة الكافية لكى أقدم على فعله .

« وعندما حدثتنى آخر مرة حديث الغاضب ورفضت رؤيتى .. عزمت على ألا أراك ، وأن أبقى حبى فى قلبى .. وبهذا أتحرر من وطأة الضمير الذى يثقل على نفسى .

« وإنى واثقة أن هذا خير لك ، لقد قلت لى من قبل أن بعدى لا يؤلمك لأنك تستطيع أن تسعد بالتفكير فىّ . وسأحاول أن أجرب هذا الأمر .. وأن أتغلب على آلام بعدك .

« فإذا ظننت بعد ذلك أن حبى لك سطحى .. وأن مشاعرى نحوك ليست من العمق بحيث تقاوم الأحداث . فأنت حر فى أن تظن كما تشاء ، ولست أرانى أملك لظنونك دفعاً .. كل ما أملك هو أن أداوم على حبك .. بضمير هادئ مستريح .

« وكل ما أرجوه منك هو أن تذكر أمراً واحداً .. وهو أنه مهما حدث .. فأنت دائماً فى الذهن مستقر ، وفى القلب مقيم .

« بقى لى رجاء أخير .

« أتذكر ما قالته لك صاحبتى .. عن أنى أصلح بطلة لإحدى قصصك ؟!

« أتذكر أيضاً قولك لى .. إنك ستكتب قصتى .. عندما ينتهى أمرنا معاً .. وإجابتى لك أنك بذلك لن تكتبها أبداً .

« وإنى لا أعتبر أمرنا معاً قد انتهى ، ولكن .. إذا كنت تعتبره أنت ، وإذا كنت تنوى الكتابة عنى .. فأرجوك — بحق حبنا — ألا تكتب ما يشير إلىّ .. أو ما يكشف أمرى .

« أنا لا أستطيع منعك من الكتابة ، ولا أودّ منعك .. فما تلهفت فى حياتى على شىء كتلهفى على كتابتك .. إنى أعتبرها زادى فى الحياة .. إنى أعبدها .

« وحاشاى أن أنكر أنى أتوق إلى قراءة قصتى .. وأترقب كتابتك عنى .

« إنى سأنتظرها على مر الزمن ، وستكون هى عزائى عن فرقتك ، وسلوتى فى بعدك .

« ولست أملك فى النهاية إلا أن ألقى إليك على البعد تحية وداع ، وأهتف خلالها باسمك كما تعوّدت أن أهتف به .

« وإنى أتمنى لك كل خير وهناء ، وأرجو أن تذكرنى بالخير كما أذكرك لأنى لم أفعل نحوك أي خطأ ، وأخيراً وداعاً » .

* * *

وداعاً .. وداعاً .. وداعاً .

هذا هو كل ما خرجت به من رسالتك .

أحقاً تعنين ما تقولين ؟!

إن كل ما برسالتك من ألفاظ الحب والإخلاص .. لا تستطيع أن توازن كلمة « وداعاً » .

إن كل ما أودعته رسالتك من متعة وهناء .. يمحوه ويذروه إعلانك الوداع ، إذا كنت تعنين ذلك حقاً .

أعازمة أنت حقاً على الفرقة والقطيعة ؟ وعلى أن تحبينى فيما بينك وبين نفسك ؟

أتستطيعين ذلك ، وأنت تحبينني فعلا ؟!

أم أن أحبك .. لم يعد إلا كلاماً منمقاً معسولا ؟!

وأمسكت القلم ، وأنا فى حدة أليمة .. أسائل نفسى .. أجادة أنت فى قطيعتك ؟ أتستطيعين تنفيذها وتحمل آثارها ؟

على أية حال .. لم أجد أمامى إلا قبولها ، وانتظار نتائجها العملية .. أجل .. ليس أمامى إلا التمسك بكبريائى وقبول الوداع .

وترددت .. أأرد عليك .. أم أعتبر رسالتك هى النهاية ؟ وأوحت إلىّ كبريائى ألا أجيب ، وأمرنى القلب الأحمق بأن أجيب ، فكتبت إليك :

« عزيزتى ...

« لست أدرى أكان يجب أن أكتب إليك خطابى هذا ، أم كان علىّ أن أعتبر

خطابك الأخير هو تحية الوداع فأكف عن الكتابة وأصمت عن الحديث .

« لقد ترددت كثيراً فى كتابته ، وقلت لنفسى إنه يجب علىّ أن أعاونك على ما أنتويه من إنهاء لما بيننا ، وأن أساعدك على القطيعة فأنأى بنفسى عنك ، وأبعد بها عن محيط حياتك ، وأكفيك مشقة رؤيتى أو سماعى أو القراءة لى .

« كان يجب إذاً والأمر كذلك ألا أكتب شيئاً ، وأن أخلد إلى السكون والصمت والابتعاد ، ولكنى أشعر أن ثمة شيئاً فى صدرى لا بد أن يقال ، وأن هناك بعض تعليقات على رسالتك الأخيرة لا بد أن أسر إليك بها .

« على أية حال استمعى لرسالتى ولا تزعجى نفسك بها كثيراً .. بل اعتبريها بمثابة رد على تحيتك ، وأنها بعد كل شيء لا تعدو أن تكون كلمة « وداعاً » .

« أول كل شيء أشكرك أجزل الشكر على رسالتك ، فقد كانت لنفسى — رغم أنها رسالة وداع ورغم أنك قطعت بها كل ما بيننا وأنهيت بها كل علاقتنا — كانت رغم ذلك كله أجمل عزاء وأطيب دواء ، وما أظننى قرأت خيراً منها رسالة وداع .. لقد جعلت من مرارة الوداع حلاوة ومن قسوته رقة .

« ولكن لى عليها بضع ملاحظات ألخصها فيما يلى :

أولا — قلت فى رسالتك أنى وصفتك بالتافهة فمتى قلت ذلك ؟ أقلتها بلسانى أم بقلمى ؟ إنى لا أذكر أبداً أنى قلتها لك ، وأستطيع أن أجزم بذلك لسبب واحد ، وهو أنك آخر من توصف بالتافهة ، وأن أحسن ما فيك — كما قلتَ لك مائة مرة — أنك لست تافهة ، ومع ذلك فلو كان قد حدث أنى قلتها فعلا .. فلا بد أن أكون قد قلتها ، وأنا فى حالة غضب جعلنى لا أعنى ما أقول . وعلى أية حال أنا أعتذر عنها لأنى — إذا كنت قد قلتها فعلا — فإنى قطعاً أعنيها .

« ثانياً — إنى موافقك على أن ما بيننا — منذ مبدئه شيء خطأ ، وأن من الحكمة والعقل والمصلحة أن نضع له حداً ، ولكن أتذكرين أنك سبق أن قلت ذلك كثيراً ، ولكنك لم تستطيعى تنفيذه ، حتى لقد قلت لى ذات مرة : « إنك لو كنت قد أقدمت على ترك رؤيتى لأصابك الجنون ، فهل حدث جديد جعلك

تقدرين الآن على فعل ما لم تكونى تقدرين على فعله ؟. ألا ترين معى أنه كان من الأفضل أن نجعل الأمور تجرى سهلة بلا قطيعة حتى نفترق افتراقاً طبيعياً فى عطلة الصيف ؟ أتدرين كم مرة كنا سنلتقى خلال المدة الباقية ؟ لن يزيد لقاؤنا قبل الفرقة على أربع مرات ، فهل لقاء أربع مرات قد أضحى من الخطورة بحيث يحتم علينا أن ننهى ما بيننا الآن ؟

« وأخيراً أرجو ألا تفهمى حديثى هذا على أنه رجاء للقاء ، وأرجو ألا تحملى قولى محمل العتاب أو اللوم ، بل هو مجرد شرح لوجهة نظر فى مسألة اعتبرتِها منتهية . و لم أملك أنا — تلبية لرغبتك — إلا أن أعتبرها كذلك ، بل إنى لأعتبر رسالتك الأخيرة هى النهاية فعلا ، وأعتبر رسالتى هذه شيئاً خارج الموضوع .. أو على هامشه .

« وأظنك تعرفين أكثر من غيرك .. أنى لست الإنسان الذى يرجو لقاء ، وأنه كان يكفى أن أعلم أنك نويت القطيعة حتى أنهى ما بيننا .. وأن أكبت كل مشاعرى فلا أبلغك منها شيئاً ، ولكن لم أفعل لسبب واحد ، وهو أنك مخلوقة عزيزة ، وإنى أكره منك أن تأخذينى بلحظة غضب لا يخلو منه مخلوق .

« أما عن قولك بأنى قلت دائماً : إنه لا يؤلمنى ألا أراك . فقد قلت ذلك حقاً عندما كان التفكير فيك يسبب لى كما قلت دائماً « راحة ذهنية » . أما الآن والفكر يرزح تحت عبء مُلحّ من الحزن . أما الآن ورصيد الأحلام الجميلة قد تبدد ، وربيع الذهن قد أضحى خريفاً تتساقط فيه الأوراق الصفر وتعصف فيه الريح العاتية .. فلا أظننى أستطيع أن أزعم أننى فى غير حاجة إلى رؤيتك .

« ولكنى — كما سبق أن قلت لك — أعلم تماماً أن سعادتنا لا بد مردودة ، وأن من الجنون أن نتخيل أن الحياة يمكن أن تداوم على منحنا هذا القدر العجيب الذى منحتنا إياه من السعادة .. لأن هذا ليس من طبيعة الحياة .

« لقد مررت بأجمل أيام الحياة ، والآن أمر بأشقاها ، وكما استمتعت بمتعة الأيام الحلوة ، لا بد أن أحتمل آلام الأيام المريرة ، وكما استمرأ الذهن لذة

« الراحة الذهنية » لا بد أن يلقى نصيبه من « الإجهاد الذهنى » .

« وبعد .. فالحمد لله .. إن كل شيء إلى زوال ، وإلى نهاية .. حتى الألم .. وحتى الشقاء .. لقد أقبل النعيم ، ثم ولَّى ، وأقبل الشقاء ، فلا بد أن يولى ، وسنخرج فى النهاية بلا شيء لا نعيم ولا شقاء .. اللهم إلا ذكريات راسبة فى الذهن .. الله أعلم بحلاوتها أو مرارتها .

« لعن الله الذهن الذى لا يهدأ ولا يغفو .. بل يمعن فى التفكير والتذكير ، حتى يصيبه الكلال ، دون أن يجد له مستقراً يستقر فيه ، أو ملجأ يمنحه الرجاء الضائع .. والراحة المسلوبة .

« حتى الساعة العاشرة قد باتت موضع يأس ، بعد أن كانت مرفأ رجاء .

« كان الذهن يجد فيها أقصى راحته ، إذ يشعر أنه ليس وحيداً . وأنه يلتقى مع ذهن آخر فى الفضاء الحر الطليق حيث لا حدود ولا قيود ، ولا خوف من رقابة ، ولا خشية من تقليد .

« أما الآن فما أشبهه بوحيد مهجور يحوطه الفراغ والظلمة والوحشة .. ينتظر ، وينتظر ، وينتظر .

« أجل ! إن الذهن قد بات يخشى الساعة العاشرة . بعد أن كان يترقبها ، لأنه يحس فيها الفشل والخيبة والخذلان .

« لقد أطلت فى الكتابة ، لأنى مثلك ، أكره أن أنهى ما بيننا ، ولكن ما دمت تصرين فلتكن النهاية .

« أما عن قصتك فإنى لا بد كاتبها فهى كل ما تبقى لى للعزاء عنك .. وأرجو أن تطمئنى ، فما تعوّدت قط أن أفضح أبطالى وأكشف أمرهم .

« أجل ! يا حبيبة الروح ، لن يكشف أمرك إلا ثلاثة : أنا ، وأنت ، والله .. الستار ، الغفور ، الرحيم . سأذكرك بالخير ، لأنى لا أذكر لك إلا الخير .

« وأخيراً .. وداعاً » .

« .... »

قلت لك وداعاً ، ويعلم الله أنى ما عنيتها قط .

لقد كنت أعتبرها مجرد كتابة ، وما صدقت وقتذاك .. أنها وداع حقيقى .

والآن لندع الرقة والمجاملة جانباً .. ولنتحاسب معاً على ما فعلناه بعد ذلك :

ماذا فعلت ، وماذا فعلت ؟

كنت جادة فى وداعك ، مصرّة عليه .. وكنت أنا لا أتصور حدوثه .

ومرة واحدة ، وجدت كل شىء قد تخلى عنى وإذا بى أترنح كالذبيح .

تخليتِ عنى أنت بالفعل لا بالقول .. فتجنبتنى تماماً .. لا لقاء ولا حديث ولا كتابة .

وتخليت عن كبريائى وعنادى واعتدادى .. فذهبت ألاحقك راجياً عفوك .. مؤملا صفحك وغفرانك ، وارتدادك إلّى .

وتخلى عنى الصبر والتؤدة .. فلم أحاول أن أتركك للزمن أو لنفسك .. حتى تتلهفى أنت على لقائى إذا كنت حقاً ما زلت تحبيننى .

وتخلى عنى العقل .. فتصرفت فى غير حكمة ، وفى كثير سخف وغباء .

وتخلى عنى القلب فاشتط وتغالى وجعلنى أغرق فى أعماق من الحزن واليأس لا نهاية لها .

قاتلنى الله من غرّ أحمق ، قليل الصبر ، ذاهب اللب !

ولكن .. علام التقريع واللوم وأنا بشر ؟

بشر .. عاشق .. مهجور .

مهجور .. بعدّ طول حب وتدليل .. ملطوم .. بعد طول رفق وربت

كانت صدمتك صدمتين : صدمة المفاجأة .. وصدمة الإذلال .

كانت — على كثرة تجاربى وصدماتى فى الحياة — أشق صدمة تلقيتها . وأقسى تجربة صادفتها .

إن المسألة برمتها ، قد تبدو تافهة .. أو قد تبدو إنهاء سليما لحالة خطأ .. كان لابد أن تنتهى .

فأنا زوج عاقل مستقيم ، وكاتب معروف محترم ، ورجل متزن جاوز الثلاثين ، وخط الشيب رأسه .. قد أخطأت بحب فتاة فى الخامسة عشرة ، وأخطأت هى بحبى .

وقد كنت أنا نفسى أتمنى فى كثير من الأحيان ، رفقاً بها ، أن تكف عن حبى ، وأن تنفصم تلك الرابطة التى شدّتنا بلا أمل ولا رجاء .

كنت أتمنى أن ينتهى ما بيننا .. عندما أحكم عقلى .. وعند ما أحاول النظر إلى مصلحتك ومصلحتى .

فما بالى قد جننت ! وأنا أرى ما بيننا قد انتهى ، وأجد حالة الخطأ قد زالت ؟

ولكن هذا تفكير إنسان عاقل .. يحكم على الأمور وهو فى حالة طبيعية إنسان غير عاشق ولا مهجور .

أما أنا فقد كنت عاشقاً مهجوراً ..! ذاهب اللب .. شارد الذهن ، محرق القلب .

لقد ذهبت عنى كل صفة ، إلا هذه الصفات ، صفات العاشق المهجور وانطويت على نفسى ، وكتمت السهم فى كبدى ، ولم أكن أملك غير ذلك .

ماذا أفعل وكيف أتعزى ؟

لقد حاولت التعزى بالصالحات السابقات ..! ولكنى وجدت لقائى بهن لم يغير حالى .. كنت أجلس معهن صامتاً شارداً ، لا أكاد أنبس بكلمة ، فضقن بى وضقت بهن .

إن شر ما فى الهجر .. أنه ما من إنسان يملك للمهجور عزاء .. إلا الهاجر .. وأين للمهجور عزاء الهاجر ، وهو ممعن فى هجره !

لقد كان دوائى عندك وحدك .

أنت وحدك التى كنت تستطيعين أن تفعلى لى شيئاً ، وأنت وحدك التى لم تفعلى شيئاً ، سوى التجاهل والإنكار كأنك لم تقولى لى إنك ستحبيننى دائماً ،

وأنى سأبقى فى ذهنك وفى قلبك إلى الأبد .

أمعقول هذا ؟

أمعقول أنى باق فى قلبك أو فى ذهنك ، وأنت تبخلين علىّ حتى بمجر إيماءة ، أو نظرة ، إحساس بوجود ؟

لا .. لا .. لقد انتهى كل شىء .

وأى عجب فى ذلك ؟ أهو أول حب ينتهى .. أم أنك أول محبة تكف عن الحب ؟

أنت معذورة !.. ما ذنبك وقد سلوتنى ، وتبدد حبى من قلبك ؟ حبى الذى كنت أعتقد أنه لا ينفد .

ولكننى مع ذلك أعتب عليك .. فلو أنى كنت البادىء بالسلوان ، ولو أنى أنا الذى كففت عن حبك أولا لكنت أكثر رفقاً بك .

أجل ! إنى ما كنت أمعن فى الهجر ، وما كنت أنكرك وأتجاهلك . إنى ما كنت أسبب لك جرحاً ، بل كنت أجعل من حبى صداقة أضمد بها جرحك . لو كففت أنا عن حبك لما أشعرتك بهذا ، ولما تحوّلت عنك ، بل لذكرت لك طول حبك ، وفرط تدليلك ، ولما نسيت ما أعتبره منك جميلا طوّقتنى به .

وهكذا أخذت أرزح تحت أحزان الهجر ، وآلام الإذلال .. وبدأت أقبع فى الدار .. فى شرود وصمت وحزن .

أجل! لقد أخذت أقبع فى الدار.. أنا الهائم الحر الطليق، الذى لا يستقر له قرار.

لقد عدت أخيراً ، كما يعود الطير الجريح إلى وكره .

وفى الوكر ، وجدت الصابرة الساكنة .. تنظر إلىّ فى تساؤل صامت .

لقد أخذت ترقبنى الساعات الطوال .. وأنا مغرق فى الصمت مخلد إلى الشرود .

ولا شك أن قبوعى فى الدار وشرودى قد أثار دهشها ولكنها لم تخرج من صمتها .

لم تفصح بالسؤال ، فما تعوّدت قط أن تسألنى شيئاً .. كانت سميعة مطيعة .. لا تسأل ولا تطلب ، ولكنها تسمع وتفعل .

لقد كان يداخلها إحساس بأنها مقصرة نحوى ، لأنها لم تنجب لى أطفالا ، ولأنه لا أمل لها فى الذرية ، إلا بأبهظ الأثمان ، بحياتها .

كانت تشعر أنها مقصرة فى حقى . لأنها هزيلة مريضة ولأن الطبيب حرّم عليها .. الولادة .. لأن فى الحمل والولادة قضاء على حياتها .

ولم أكن فى قرارة نفسى أكرهها .. بل على النقيض .. لقد كنت أحبها — كما سبق أن قلت — حب أخت أو أم أو ابنة ، وكنت لا أرى لها ذنباً فيما أصابها ، لقد تزوجتها كالزهرة اليانعة ، ولكن المرض بدأ يمسك بتلابيبها .. فهزل جسدها وأوجع نفسها .

وهكذا كانت دائماً ، تقينى السؤال والتدخل ، فلم تحاول قط أن تستفسر : أين كنت ؟ وأين أذهب ؟ وماذا أفعل ؟

ولكن فى هذه المرة .. كنت أقرأ التساؤل واضحاً فى عينيها .. كنت أجلس فى صمتى وشرودى ، وقد أرقت فلم أذهب إلى المضجع ، وكانت تجلس أمامى منهمكة بيديها فى عمل « التريكو » وقد طأطأت رأسها ، وأخذت تحدق فى الإبرتين بين يديها ، وبين آونة وأخرى ترفع عينيها فى تساؤل ثم تخفضهما فى استسلام دون أن تقول شيئاً .

وهكذا تظل ترقبنى حتى أذهب إلى الفراش ، فتطفىء النور وتتمدد جانبى فى صمت وسكون .

وفى ذات ليلة طال بى الأرق ، والذهن ممعن فى التفكير فيك .. كيف أنساك ؟ إنى أتوق إلى نسيانك ، ولكن كيف ؟ إنى أحاول أن أجسم سيئاتك وعيوبك حتى أكرهك .. وأظل أجهد ذاكرتى فى جمعها وفى تضخيمها وأقول لنفسى إنك رديئة متقلبة وأنك لست جميلة وأنه ليس بك ما يميزك عن سائر البشر وأنك لا تستحقين حبى ، ثم ينتهى بى الأمر بعد كل هذا .. أتدرين إلامَ ؟

إلى مزيد من شوق .. ومزيد من حب .. ومزيد من حنين ولهفة .. لا على تقبيلك ، بل على تقبيل أطراف أصابع يديك ، بل قدميك .

وطال بى الأرق والتفكير فيك ، وهى جالسة أمامى ، دائبة بيديها فى عمل التريكو .. متسائلة بنظراتها الصامتة المتوسلة بين آونة وأخرى .

وأخيراً .. وجدتها تضع الإبرتين جانباً .. ثم تنهض مقتربة منى فى سكون وتقف ملاصقة لمقعدى، ثم تمد يدها إلى رأسى وتتحسس جبينى فى رفق وتقول فى صوت خافت وجل :

ـــ ماذا بك ؟ ماذا يحزنك ؟ ألا أستطيع أن أفعل لك شيئاً ؟

وبذلت جهدى لكى أكتم تلك الزفرة الحارة التى همت بالانطلاق من صدرى .. وأجبت وأنا أربت على يدها فى رفق :

ـــ لا شىء .. اذهبى وسألحق بك للنوم .

يا للسخرية !! لقد قتلتنى برفقها وحدبها ، كما قتلتنى أنت بهجرك وقطيعتك ؟

ماذا أقول لها ؟!

أقول لها .. إنى حزين لأنى أحب غيرها .. التى هجرتنى وضربت بحبى عرض الحائط ؟!

ما هذا الخلط العجيب ؟! وعلامَ تكرهنا الأقدار على هذه المتناقضات ؟ ولِمَ تأبى إلا أن توجه أذهاننا ومشاعرنا أسوأ توجيه ؟!

ولكن . وحمداً لله .. أن جعل رءوسنا منطوية على ما فيها ، وإلا .. ماذا ترى يحدث .. لو كان كل منا يرى ما فى ذهن الآخر ؟

إنها تسألنى : هل تستطيع أن تفعل لى شيئاً ؟

ترى هل لو عرفت سبب ما يحزننى ، وأدركت حقيقة ذلك الشىء الذى يمكن أن يذهب بحزنى . أكانت تصر على سؤالها ؟!

أم تراها على استعداد لأن تذهب إليك ، وتحضرك إلىّ وتقول لك : أحبيه ،

كما كنت تحبينه ، حتى لا يقتله الحزن ؟

هذه سخرية عجيبة !

لعن الله حياتنا ، إنها كلها سخريات .

ولم أملك إلا أن أنهض وأتمدد على الفراش وقد ثبتت عيناى فى سقف الحجرة .. أو على الأصح ، فى صورتك ، فما كنت أبصر أمامى مبصراً ومغمضاً .. إلا أنت .

ومرت الأيام والشهور ، وأنا مثقل بالحزن .. مقل فى الكتابة .. لا أكاد أكتب إلا ما أكره على كتابته كواجب لا بد من تأديته ، وحتى هذا الذى كنت أكتبه كنت تزجين بنفسك فيه .. فلم تكن تخلو منه صورة لك

ولم يكن ما بى فى أول الأمر .. ليزيد على إرهاق نفسى وكلال ذهنى ، حتى أصابنى ذات يوم ما يشبه الإغماء ، وأنا أسوق العربة ، ووجدتنى أتهاوى فى مقعدى ، وقد أخذت المرئيات حولى تدور وتتمايل ، وبهتت صورتها فما عدت أرى فيها سوى أشباح متداخلة .. وحاولت جهدى أن أسيطر على عجلة القيادة ، ولكنى وجدت كل شىء يدور بى ، وفجأة سمعت صوت فرقعة شديدة .. ولم أعد أحس بعد ذلك شيئاً .

ولم أفق إلا وأنا راقد على فراشى فى المستشفى .. وبذراعى وساقى وحولهما بعض الضمادات والأربطة .

ولم أكن أحس بجراح ولا رضوض ، ولكنى لم أكن أحس أيضاً بإحدى ساقى وإحدى ذراعى .. لقد بدا لى أنهما ليستا منى .

إنى لا أريد أن أسترسل فى وصف تفاصيل مزعجة ، ولا أريد أن أستبكى بكتابتى مقلة .. أو أستذرف دمعاً .

لا .. ولا أريد أن أكتب لنفسى رثاء ، ولا أستجدى من غيرى رثاء .. فما كرهت فى حياتى أكثر من شعور الرثاء .. إن الفشل نفسه لم يكن يحزننى بقدر ما يحزننى ما أتوقعه من رثاء الناس لى على ذلك الفشل .

وأنت بالذات .. أكره رثاءك لى .. إنى أتوق إلى حبك وعبادتك وتقديرك ، وبقدر ما أتوق إلى ذلك أكره أن أكون موضع رثائك أو شفقتك .

وعلى ذلك أعلنك أنى فى أشد حالات مرضى وعجزى وشقائى وحزنى ، ما زلت قوى النفس .. شديد الاعتداد بها .. بل إنى فى باطنى أكثر منى قوة فى أى وقت مضى .. إن ما أصابنى من عجز وكلال .. لم يؤثر على قوة نفسى ، فأنا .. هو أنا ، دائماً ، وسأبقى كما أنا ، حتى الموت ، وما أظنه يبعيد .

بل أن توقعى الموت .. هو سر قوتى ، واعتدادى .

لقد كنت أفهم الموت دائماً على حقيقته .. أفهمه على أنه نهاية واجبة ، لحياة أكرهنا على تحمل متاعبها وآلامها . لقد فهمت الموت دائماً على أنه نومة مريحة ، وأنا ما أحببت فى حياتى شيئاً كالنوم ، فهو ينزعنا من كل متاعبنا ومضايقاتنا . ويتركنا فى خير حالة من الطمأنينة والراحة .

هكذا فهمت الموت دائماً ، وأنا منه بعيد ، وهكذا أفهمه وأنا منه غير بعيد .

لست أريد رثاء ولا بكاء .

فما ضايقنى من فكرة الموت .. سوى شىء واحد ، خطر لى ذات مرة وأنا أشيع جنازة صديق ميت ، وهو ولولة النساء وفزعهن ، فلقد كرهت أن أرى ذوىّ فى مثل هذا الفزع والارتياع ، ولكنى حمدت الله ، أنى عندما أموت .. لن أسير وراء جنازتى ، ولن أبصر هذا المنظر المروِّع .

إنى أحاول المزاح ، وسأمزح حتى أموت ، فإنى على حال من التجلد والقوة ، لا أشك فى أنها ستوقف رثاءك لى لو كنت تنوينه .

إنى على خير حال .

ليس هناك ما يضايقنى سوى ثلاثة أشياء .

أولها ، وأسوأها : هجرك ، ونسيانك .

وثانيها : هو مرضى زوجتى .. فأنا أحبها ، رغم كل ما فعلت بها من خيانات فى عرف الشرع والناس ، أحبها الحب الهادىء الدائم ، الثابت ، الباقى ، الذى لا

تبدو مظاهره ، ولكن لا تتزعزع أصوله .

لقد أصابتها حادثتى بصدمة أقعدتها ، وضاعفت هزالها ومرضها ، فلزمت فراشها فى الدار .

إن مرضها يضايقنى ، ويضايقنى أكثر من ذلك وجيعتها فىّ وألمها علىّ ، وعجزها عن أن ترانى وتسهر على راحتى .

أما المضايقة الثالثة : فمبعثها أبى الشيخ .. إنى لا أكاد أحتمل منظره وهو قادم إلىّ كل يوم متكئاً على عصاه ، محاولا الابتسام ، فلا يكاد يجلس إلىّ حتى ينهمر الدمع الصامت من عينيه كالمطر .

وكم أحب هذا الشيخ ، وكم أكره دمعه ، إنى أرانى صورة أخرى منه ، وأراه أكثر الناس فى هذه الدنيا فهماً لى . وتقديرا لطبيعتى .. إنه لم يحاول مرة واحدة أن يوجه إلىّ نصحاً ولا لوماً ، بل كان دائما شديد الإعجاب بكل ما أفعل .

إنى أحبه ، وأكره أن أسبب له فجيعة بموتى .

آه .. ما أحب الموت ، لولا أحباؤنا فى الحياة .. إن الموت يبدو فى عيونهم ، لأنهم يروننى شاباً ، ونافعاً وطيباً . ويحهم كأن الموت لا يأخذ سوى الكبار العجزة الأشرار : ولكن ما هذا السخف الذى اندفعت فيه ؟

ما هذه الأقوال اللينة الضعيفة ؟

إنى لن آبه بمن حولى ، لن أضعف قط ، سأخرج من الدنيا ، ضاحك الثغر مرفوع الهامة .

شىء واحد كان يزيدنى ضحكاً ومرحاً وقوة ، وهو استمرار حبك .

لو أنك لم تخذلينى ، لكنت بلا جدال ، أحسن بكثير مما أنا ، ولكنى مع ذلك ، أستطيع أن أستعيض عنك ، بالكتابة إليك .. أجل .. أجل . إن خير ما أفعل هو أن أكتب قصتك .. لقد سألتنى أن أكتبها ، وأنت لا شك تنتظرينها .. فمن النذالة أن أخذلك فأغادر الحياة ، قبل أن أكتبها لك .

لا بد أن أكتب قصتى الأخيرة .

حمداً لله .. إن الجزء العاجز منى هو الجزء الأيسر .

إياك أن تشعرى لى برثاء أو بعطف .

إنى حقاً مشلول .. ذلك الجسد الطويل الفارع — كما كنت تسمينه — والذراعان القويتان .. لم تعودا تستطيعان ضمك ، ولكن ما حاجتها إليك ، وأنت هاجرة نائية ؟!

إن يمناى تستطيع أن تمسك بالقلم .

وأنا بالقلم فى يمينى والورق أمامى أشعر بقوة خارقة.إن قوتى كامنة بين أصابعى ، وفى قلمى .. إنى أستطيع بها أن أفعل كل ما أريد .

لا يهمنى كثيراً إذا ما رقدت عاجزاً مشلولا .

فإنك لن ترينى على حالى تلك .. ولكن ما يهمنى هو أن أستطيع أن أمسك بالقلم وأكتب .. فكتابتى هى ما يمكن أن يصل إليك وهى التى يمكننى من أن أبر بوعدى لك .. فأمنحك قصتك . .

راقد على الفراش ممدود كما أنا .. وقد اتكأ ظهرى ورأسى على الوسائد .. وضعت أمامى المنضدة الصغيرة المتحركة التى أتناول عليها الطعام وهى تكاد تلاصق صدرى وعليها كوم من الأوراق .

والحجرة هادئة ساكنة لا أكاد أسمع من حولى إلا أقداماً تروح وتجىء فى الممر بين آونة وأخرى . .

أنا لا أعرف علة ما بى .. فهؤلاء الأطباء الأغبياء يأبون أن يقولوا لى إلا أنى بخير وأن ما بى مسألة بسيطة .

لعنة الله عليهم . إنى أعرف أكثر منهم . إنهم يحاولون منعى من أى جهد ، ولكنى سأكتب رغماً عنهم .

ليعاوننى الله على الكتابة .

وليهبنى من لدنه قوة ، فلا يشتت ذهنى ، ولا يفقدنى وعيى قبل أن أتمم القصة .

وبهذه العزيمة ، وبهذه القوة ، وبهذا الرجاء من الله أمسكت بالقلم لأكتب قصتك .. وظللت أكتب ، وأكتب حتى تملكنى الإعياء .

لست أدرى ماذا كتبت .. وما موقعه من الجودة أو الرداءة ؟

إنى متعب منهك ، ويبدو أن ما كتبت به كثير من خلط وتشويش ، من أثر ذلك الذهن المتعب ، والجسد المنهك ، والنفس المريضة المرهقة .

كما يبدو لى أنى لم أكتب شيئاً يستحق النشر .. أو القراءة .

ويخيل إلىّ أنه لن يرضى إذا ما نشر عامة القراء .

ولكن مع ذلك أتعزى بأملين : الأمل الأول : هو سماحتهم وسعة صدرهم ، وتقديرهم لظروفى التى كتبت بها ما كتبت ، وأن يعتذروا بما أرضيتهم فى حياتى عما ضايقتهم به فى نهايتى .

أما الأمل الثانى : فهو ثقتى من أنها إذا لم تعجب عامة القراء كقصة ، فإنها ستعجبك كرسالة .. ولقد كتبتها لك أنت ، فإن أعجبتك فكفى بهذا تقديراً .

ولكنى بعد كل ذلك تصيبنى بعض الوساوس بأنها لن تعجبك ، فأنت قد تغيرت نحوى ، وتبدد من نفسك حبى وتطايرت مشاعرك .

أفلا يبعد ألا ترى بعد ذاك فى قصتى .. سوى شيء يستحق السخرية ؟. من يدرى ؟

لقد حيرنى تغيرك نحوى ، وجعلنى أتساءل فى عجب .. عن طبيعة البشر ، وتقلبهم .. وتلونهم .

لقد ضيعت ثقتى فى نفسى ، وفى الناس جميعاً .

ضيعت ثقتى فى الناس لأنى لم أعد أثق بعدما رأيت من اندفاعك ونكوصك فى قول مخلوق أو إحساس بشر .

وضيعت ثقتى فى نفسى لأنى ظننت أنى ككاتب أستطيع أن أتفهم نفسية الناس وأحللها تماماً .

ولكنى وجدت نفسى عاجزاً إزاء نفسيتك .

ذلك الانقلاب العجيب ؟. كيف اندفعت فى حبى

اندفعت فى هجرى ونسيانى .

ألا يحق لى بعد هذا أن أتوقع منك سخرية بقصتى !. أو على الأصح بقصتك ؟

أجل ! إنك قد تسخرين الآن من نفسك ، ومن نفسى ، ولقد قلت لك هذا فيما مضى فأبيت أن تصدقيه .

إنى شديد القلق والضيق .. فإنى أكره أن أكتب شيئاً لا ينال الإعجاب .. أكره أن أخرج من الحياة بغير تصفيق وأنا الذى تعوّدت دائماً .. أن أسمع الإعجاب والتصفيق لكل ما كتبت .

لا بد أن أتمم القصة .

لا بد أن أضع لها خاتمة من عندى .. فأجعلك مثلا تعودين إلىّ فى اللحظة الأخيرة نادمة مستغفرة .. ولكن تجديننى قد انتهيت .

أجل !أجل ! هذه نهاية جيدة ، ولكنى متعب الآن .

لندع الورق جانباً .. وسأتمها فيما بعد ، عندما أستريح . أجل ..! سأكتب لها خاتمة جيدة .. وسأجعلها من خير ما كتبت .

الجزء الثالث

شمس غاربة

النصف المحرم

١١

« سأكتب لها خاتمة جيدة .. وسأجعلها من خير ما كتبت » .

وانتهت « سامية » من قراءة هذه الجملة ، وأخذت تقلب الأوراق فلم تجد بعد ذلك شيئاً .

وأحست بالدمع يترقرق فى مآقيها ، وحاولت عبثاً أن توقف انهماره .

إن الكاتب يكره أن يستبكى عيناً أو يستذرف دمعاً ، وهو لا يخشى أكثر من أن يثير الشفقة أو الرثاء .. فهو يتماسك ويتجلد ، ويدعى القوة وهو مجروح النفس ، مشلول الجسد ، مرهق الذهن .

أية قوة بعد ذلك قد تركها له الهجر والمرض واليأس من الحياة ؟

كيف يسأل قارئه عدم الرثاء ؟!

ولكن أين الخاتمة ؟! أتراه قد كتبها كما كان يريد ؟

إنه يخشى أن يخذله القارئ فى آخر ما كتب .. يخشى أن يخرج من الحياة بغير تصفيق ولا إعجاب ..

عجباً لهؤلاء الكتاب .. ما أشد حبهم لكتابتهم .. أفى مثل هذا الموقف الأليم يتوق للإعجاب والتصفيق ، ويخشى خذلان القارئ ؟

ولكن القارئ لن يخذله ، فهى لم تقرأ أروع من هذا شيئاً .. حتى ولو لم تكن له خاتمة .. أجل .. إن هذه الأوراق على حالها من النقص .. تعتبر أحر وأصدق ما قرأت .. إنها شىء حىّ .. إنها مشاعر زاخرة متدفقة ، لا حبر على ورق ، ولا حديث يقص ، أو قصة تروى .

ولكن .. أترى قد حدث هذا حقاً ؟ أهذا الذى قرأته أمر واقع .. أم مجرد قصة ؟! وإذا كان مجرد قصة فلماذا لم تطبع ؟ ولِم تركت فى هذه الأوراق القديمة الباهتة ؟ وماذا أوصلها لأمها ، وما دخلها بها ؟

ولماذا أعطتها إياها فى هذه الظروف العجيبة اليائسة ؟ أتراها تريد أن تخفف من مصابها بإعطائها أمثلة من بعض مصائب الناس ؟

إن الأمر يحتاج إلى تفسير ، فهذه المذكرات — رغم قوتها وشدة تأثيرها — لا تعتبر حلا لمسألتها ولا تفسيراً لها .

وكانت تحس بعد قراءة المذكرات بإرهاق شديد ، فقد زادتها بأساً على يأس وحزناً على حزن .. وودت لو ظلت متمددة فى فراشها مستغرقة فى النوم ، ولكنها كانت تعلم أن النوم لن يقرب من أجفانها .

وألقت بنظرة خاطفة على الساعة الصغيرة الموضوعة على المنضدة ، وغادرت الفراش ممسكة بالأوراق فى يدها .

كانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة ، وكانت تخشى أن تكون أمها قد آوت إلى فراشها ، فسارت تسترق الخطى إلى غرفة نومها ، ومدت رأسها من خلال الباب فوجدت الفراش خالياً منها .

وعبرت الحجرة إلى الشرفة المطلة على الحديقة فوجدت أمها قد جلست على الأريكة شاردة ببصرها فى أنحاء الحديقة التى لفتها الظلمة .

واتخذت « سامية » مجلسها بجوارها ، ثم مدت يدها بالأوراق متسائلة :

— أما زالت لها بقية ؟! إن الخاتمة لم تكتب بعد !

وأمسكت الأم بالأوراق فى رفق ، وأجابت وهي تهز رأسها :

— ليست لها بقية .. لقد ذهب قبل أن يكتبها .

وبدأت الأسئلة الحائرة تتزاحم على شفتى الفتاة .. من هو ؟ وما علاقته بها ؟. ولِمَ أعطتها هذه المذكرات فى هذا الوقت بالذات ؟. وما صلة ذلك كله بالصدمة المفاجئة التى تلقتها اليوم ؟ أحقاً ما قالت العجوز ؟ إن هذا أمر مستحيل ! إن العجوز تهذى بما لا تعى .. هذه لا شك خرافة ! ولكن لِمَ لا تتحدث أمها ؟ لماذا لم تجب ؟ لماذا لم تنكر ؟ بل لماذا لم تسخر وتقهقه ضاحكة ؟!

إنها لم تفعل شيئاً من هذا كله ، بل بهتت ووجمت .

وبعد كل هذا لم تقل شيئاً ، ولم تجب بنعم أو لا .

أو على الأصح لم تجب ب « لا » ، فإن إجابتها فى الواقع لا يمكن أن تكون « نعم » .

أجل ! إنه لا يمكن أن يكون هناك أبداً تعليل للمسألة .

لم تقل الأم « لا » ، وكل ما فعلت هو أن أعطتها هذه الأوراق لقراءتها .

وقد ظنت الفتاة فى ذهولها ودهشها ، أنها ستجد فيها تفسيراً لهذا اللغز العجيب والمسألة المعقدة .

ولكنها مع ذلك لم تكد تنتهى من قراءتها حتى زادت دهشتها .

واستمرت الأسئلة تلح فى ذهنها ، دون أن تجسر على الإفصاح بها .

وعادت الأم تتمتم قائلة :

ـــ أجل ! لقد ذهب قبل أن يكتب الخاتمة ، ولكنى أعرف الخاتمة ، أعرفها جيداً ، وأستطيع قصها عليك .

وهمت الفتاة بأن تصيح : « ليس هذا وقته يا أماه .. أجيبى أولا ، دعى الخاتمة الآن ، وقولى لى أهو ابنك حقاً ؟ أريحى نفسى المعذبة بالشكوك ، قولى لى إنه ليس ابنك .. وإن العجوز الغبية مجنونة مخرِّقة ! أريحينى يا أماه ! » .

ولكنها كانت تكره أن تؤلم أمها ، إنها تحبها أكثر من أى شىء فى هذه الحياة ، وقد رأت كيف أذهلها النبأ وكيف صدمها وتركها مشدوهة حيرى .. فلماذا تلح عليها بما يزيد فى إزعاجها .

وأكثر من هذا كانت تخشى الإجابة والتوضيح ، فقد كان مظهر أمها لا يوحى بخير ، بل يوحى بكل عوامل الشر وينبئ أن المسألة لا شك صحيحة .. فإنها لو لم تكن صحيحة لاستطاعت أن تقول ببساطة : لا .. إن هذا كذب .. إن هذا مضحك .

ولكنها أيضاً لو كانت صحيحة ، فقد كانت تستطيع أن تقول أيضاً ببساطة :

نعم ، إنها صحيحة ، إنه ابنى ، إنه أخوك . ولكنها .. لا تقول شيئاً .. ربما لا تريد أن تصدمها وربما تريد أن توضح لها أشياء خافية ، وأسراراً دفينة

على أية حال ليس أمامها إلا الصبر والانتظار .

ليس عليها إلا أن تسمع الخاتمة ، كما قرأت المذكرات

وبدأ صوت الأم ينبعث خافتاً متئداً ، وسط السكون السائد ، لا يشوبه سوى حفيف الأوراق ، يحركها النسيم .

* * *

قالت الأم :

ـــ إنى أعرف الخاتمة ، وأعرف الكثير مما قبل الخاتمة

أعرف الكثير مما لم يعرفه هو .

أعرفها ، وهى طفلة يتيمة .. لا تذكر عن أبيها إلا مجرد صورة باهتة .. أما عن أمها فهى تذكر بسمة حلوة ، وضمة حنون .. لم يتركها القدر تنعم بهما فى طفولتها طويلا .

ووجدت نفسها ، وهى فى الثامنة تغادر دارهم فى أسيوط نازحة إلى القاهرة لتستقر فى بيت خالتها .

لقد قالوا لها عندما مات أبوها إنه قد سافر ، وظلت على هذا الوهم حتى ماتت أمها ، ولكنهم فى هذه المرة ، لم يبالوا بأن يخفوا عنها حقيقة الأمر ، فقد كانت أكثر فهماً لحقائق الأمور ، ولم يكن هناك من يهمه كثيراً أن يجنبها الأحزان بإخفاء الوفاة .. لقد كانت أمها هى التى جنبتها الأحزان فى أول مرة .. أما فى المرة الثانية ، فقد كانت أمها نفسها هى الميتة .

ورحلت إلى القاهرة ، وبذهنها الصغير ذكريات حلوة عن أسيوط .. ذكريات لهو ومرح ولعب وضحك وحنان وتدليل .

كانت تحب كل ما يذكرها بطفولتها ، وبأمها .. كانت تحب الصيف ولياليه ، فقد كانت تذكر لعبها مع الأطفال على شاطىء النيل ، وكانت تذكر

ليالى الحر عندما كانوا يصعدون بالأسرّة فوق سطح الدار ، وكانت أمها تروى لها الأقاصيص ، وهى ترنو إلى السماء محدقة فى النجوم اللامعة حتى يأخذ الكرى بمعاقد أجفانها .

ولم تقبل على القاهرة إقبال مستبشر . فما توقعت فى بعدها عن منبتها الجميل ، وفى فرقتها عن أمها المحبوبة أى خير ، ولم تسعر كثيراً بطول السفر ولا ملله ، فقد راحت فى إغفاءة طويلة من فرط التعب لم تفق منها إلا على ضجة المحطة وأصوات المسافرين .

وهبطت من القطار تشق طريقها بين الأجساد المتزاحمة وقد أمسك بيدها « زوج خالتها » يتقدمه بعض الأقرباء .

وكان الوقت مبكراً ، ولم تلتقط عيناها الكليلتان من القاهرة المستيقظة سوى مناظر سريعة خاطفة : المسافرين يتحركون فى عجلة ، والحمّالين بوجوههم المجعدة العابسة وحناجرهم الصائحة الصارخة ، وعربات التاكسى تروح وتجىء .

وأخيراً استقر بها المقام فى إحدى هذه العربات ، وسمعت صوت الرجل الجالس بجوارها يقول للسائق :

— مصر الجديدة .

ولم تميز كثيراً من مشاهد الطريق .. فقد كانت العربة تعدو مسرعة كأن بسائقها مساً من شيطان ، وكان ذهن الصغيرة قد شرد بها فيما توشك أن تحل به ويحل بها .

إنها ذاهبة إلى بيت خالتها « زينب » فقد أنبأها زوج خالتها « أحمد بك » أنها ستنزل فى بيتهم .

وهى تحب « أحمد بك » فهو رجل طيب ودود حنون حلو الحديث ، لطيف المعشر ، وفى بضع المرات عندما زارهم فى أسيوط أو زارتهم هى وأمها فى دارهم فى القاهرة كان يغمرها بالهدايا ويغرقها بالتدليل .

ولكنها مع ذلك كانت توجس خيفة من بيتهم ، ولم تكن تشعر بارتياح كبير إلى استقرارها فيه .

كانت خالتها « زينب » هي سبب هذه الخيفة .. فقد كانت دائمة العبوس ، شديدة التجهم .. متوترة الأعصاب ، لا تكف لحظة عن الشكوى واللوم والتأنيب والتقريع .

لم تكن الصغيرة تحبها .. فقد كانت تمنعها من اللعب واللهو ، وتؤنب أمها على تدليلها لها .. زاعمة أنها « ستتلفها » قائلة إنها لو كانت ابنتها لعرفت كيف تربيها .

والآن ، وقد سنحت لها الفرصة .. فهي ستعرف كيف تنفذ وعيدها وتربيتها .

وثمة أمر آخر كان يزعج الصغيرة .. هو أنها لن تجد فى البيت أطفالا تلهو معهم .. إنها ستكون وحيدة بين المرأة وزوجها .. أو على الأصح ستكون وحيدة بين براثن المرأة .

ولكن لماذا لا تذهب إلى بيت عمها ؟

إن عمها رجل طيب ، وزوجته امرأة رقيقة ، وهى تستطيع أن تلعب مع بنات عمها وأولاده .

كان يجب عليها أن تذهب إلى بيت عمها ، فهو خير بكثير من بيت خالتها .. ولِمَ لا تذهب ؟

ولكن قد لا يريدها عمها ، فهى لا تذكر أنه قد زارهم كثيراً ، وما كانت والدتها تذكره إلا نادراً .

على أية حال لا فائدة من كل هذا .. فما كان أمامها مجال للاختيار ، إنها لا تملك إلا الذهاب حيث يأمرونها .

وأخيرا توقفت بهما العربة أمام إحدى العمارات الكائنة فى أول مصر الجديدة ، وهبط الرجل ووراءه الطفلة وتبعته صاعدة إلى الطابق الذى يسكنه .

ووقفا بالباب برهة قبل أن تفتح الخادمة ، ولم تكن خالتها قد استيقظت بعد .. فأمر « أحمد بك » الخادمة بأن تغسل لها وجهها ، وتغير لها ملابسها ، وتهيىء لها إفطارها ثم تضجعها على إحدى الأرائك لتستريح .

واستسلمت هي للخادمة ، ففعلت بها ما أمر به سيدها ، وتناولت قطعة صغيرة من الجبن ، ثم اضطجعت على أريكة فى إحدى الحجرات وأغمضت عينيها .

وكانت تعلم أن خالتها مريضة ، وأن مرضها قد حال دون ذهابها مع زوجها إلى أسيوط . على أية حال ما تظن ذهابها كان مجدياً شيئاً .. لقد انتهى كل شيء .

وشرد بها الذهن فى أمها .

أحقاً أنها لن تراها بعد الآن ؟! أمعقول هذا ؟

أيمكن أن تتركها هكذا وحيدة ؟ لا . لا . إنها لا شك عائدة فى القريب !

إن التفكير فى أنها لن تراها بعد الآن ، أمر متعذر ، بل مستحيل .

إنها ستراها .. ستراها .

وقطع عليها حبل تفكيرها صوت « أحمد بك » يناديها قائلا :

ـــ تعالي .. خالتك تريد أن تراك .

وذهبت إليها .. وكانت ترقد فى حجرة وثيرة الفراش فاخرة الرياش ، واقترب منها حتى وقفت بجوارها هيّابة وجلة . ومدّت السيدة ذراعيها فضمتها إليها وأغرقت وجهها بالدموع والقبل .

كانت المرة الأولى ، والأخيرة .. التى تتلقى منها قبلا ، وتبصر لها دمعاً .

دقائق معدودات بدت فيها إنسانة ذات مشاعر رقيقة ، وذات قلب يخفق ، ونفس تحن .

لقد هزّتها الصدمة .. وأبكاها منظر الطفلة اليتيمة الوحيدة فى الحياة ، ولكن ليس لأكثر من بضع لحظات عادت بعدها إلى طبيعتها القاسية ، ومشاعرها المتحجرة ، ونفسها الثائرة الحانقة .

وبدأت الطفلة حياتها الجديدة فى بيت خالتها ، ولم تمر بضعة أيام حتى تبينت أن ظنها قد صدق ، وأنها مقبلة على حياة جافة شاقة لا خير فيها .

حياة خلت من العواطف والتدليل ، واللهو واللعب .

إن خالتها قد نوت .. أن تجرّب فيها تربيتها الجادة الصارمة .. أو هى — على وجه أدق — لن تملك لها أكثر من تلك التربية الجادة الخشنة .. فهى امرأة قد خلقت جافة بطبعها ، عبوساً متشائمة ، نفوراً مستوحشة .. وقد زادتها ظروف حياتها تبرماً وضيقاً وجفافاً ، فهى لم تنجب بنين لزوج يحب البنين ويميل إلى البهجة والطرب والمجتمعات ، وهى شديدة القلق على نفسها دائمة الخوف من أن يفلت منها زوجها .. كثيرة الشكوك فى الناس لاتفتأ تتوهم منهم التآمر عليها لنزع زوجها منها ، ولا تفتأ تتوقع فى كل لحظة أن يعلنها زوجها أنه سيتزوج ثانية لينجب بنين .

وبهذا الوجل والشك والخوف والاضطراب زادت نفسها ضيقاً ونفوراً ، وزادت أعصابها توتراً ونفسها ثورة وانفعالا .

تلك هى نفسية المرأة التى وجدت الطفلة نفسها بين براثنها ، وتحت رحمتها وسيطرتها .

وهوّن على الطفلة حلول موعد استئناف الدراسة وقضاء معظم وقتها خارج الدار بعيدة عن تأنيب المرأة وتقريعها ، ولكنها مع ذلك كانت تجد فى الفترة التى تقضيها فى البيت ما هو كفيل بتعذيبها وإيلام نفسها .

ولم تكن الصغيرة تملك إلا الاستسلام التام .. لأنها لم تجسر على أن تعترض على شىء .

أجل .. لم تجسر على أن تعترض على مكان نومها .. رغم أنه قد أوجد فى نفسها رعباً شديداً .. لقد ضاقت الشقة على سعتها بالطفلة .. فلم تجد « خالتها » مكاناً ترقدها فيه سوى حجرة المائدة ، فنصبت لها فراشاً بجوار الثلاجة الكهربائية ، إذ كان المكان الوحيد الذى رأته خاليا فى الشقة .

ولم تكن لتهتم كثيراً بالموضع الذى ترقد فيه .. فأى مكان كان يرضيها ، ولكن هذا المكان بالذات كان مريعاً .

لشد ما كان يخيفها ذلك الصوت الذى تحدثه الثلاجة بين آونة وأخرى .. لقد كان يصدر فى صمت الليل وظلمته صوتاً أشبه « بالقر » الصادر من جوف حيوان متوحش .

كانت دائما تتوهم وراء الصوت وحشاً جاثماً فاغراً فاه يوشك أن يطبق عليها بأسنانه وينشب فيها مخالبه ، ولم تكن تملك إلا أن تغطى بالملاءة وجهها ، وتنكمش حتى تضع ذقنها فى ركبتيها وأصابعها فى أذنيها ، ولكنها مع ذلك لا تلبث حتى تسمع « القر » المخيف خافتاً مبحوحاً وكأنها بالصوت — أو بالوحش — قد ابتعد قليلا .

ومرّت بها الأيام والأشهر والسنون وهى محتملة فى صبر فقد تعوّدت الجفوة والإهمال ، والتأنيب واللوم ، والحنق والغضب .. ولكن شيئاً جد عليها لم تكن قد تعوّدته بعد ، وهو الضرب .

لو أنها كانت شريرة أو مخطئة .. لكانت تستطيع أن تحتمل بسهولة كل ما يوجه إليها .. ولكنها وهى ترى نفسها تبذل كل جهد لا تفعل ما يثير خالتها وحتى لا تتهم بالإهمال أو بالكسل .. ترى نفسها بعد ذلك فى موضع المذنبة الدائمة .. التى لا تنفك تتعمد الإتلاف والفساد .

لقد عوّدت نفسها الصبر على الأذى ، واحتمال القسوة .. فلم تحاول الشكوى أو التبرّم .

كانت إذا حاولت العمل فى البيت اتهمت بأنها تقصد العبث ، وكانت إذا لم تعمل اتهمت بأنها مكسالة مدللة .

وفى ذات يوم نهرتها خالتها على عمل فعلته فقالت لها بهدوء :

— إنك أنت التى أمرتنى أن أفعله .

فصرخت فى وجهها حانقة :

ـــ أنت كذابة شريرة مفسدة .

ولم تملك الصبية سوى الصمت .. وفى الليل آوت إلى فراشها وسكبت من عينيها دمعاً مدراراً .

وبعد بضعة أيام أمرتها خالتها بأن تفعل ذلك العمل الذى أنبَّتها على عمله .. فدهشت الصبية وتملكها الحنق وأجابت :

ـــ إنى لن أفعله .. لأنى كذابة شريرة مفسدة .

ولم تتمالك المرأة القاسية نفسها ، فرفعت يدها وهوت على وجه الصبية بصفعة أليمة ، ثم انهالت عليها باللطمات ، واندفعت فى ثورتها فأمسكت بعصا كانت فوق المنضدة وهوت بها على ظهرها .

كانت وقتذاك فى حوالى الثانية عشرة ، ووقفت صامدة للضرب فلم تقاوم ولم تفر ولم تبك .. بل تحملت الضرب حتى كلَّت يد المرأة وحتى تهاوت هى نفسها متشنجة باكية .

كانت المرأة تجعل من الصبية مخرجاً لكل همومها ، ومتنفساً لغضبها على حياتها القلقة اليائسة .

وفى الليل .. جلست الصبية فى الفراش واجمة صامتة لا يغمض لها جفن ... كانت تحس بأوجاع شديدة فى ظهرها ، ونهضت إلى المرآة وكشفت عن ظهرها فإذا به ملىء بخطوط زرقاء متورمة ، وانهارت نفسها فارتمت على فراشها باكية موجعة .

وهكذا وجدت أن عليها أن تتحمل نوعاً جديداً من العذاب والألم لم تتعوّده من قبل .. وهو الضرب .

لقد باتت تتوقع من المرأة كل ضروب الأذى ، وكل أنواع الشرور ، ولم يكن يغريها إلا فترات عطف متباعدة كان يغمرها بها الرجل الطيب ـــ زوج خالتها ـــ بين آونة وأخرى .

ولكن حتى فترات العطف هذه أخذت تقل رويداً رويداً .. فقد كانت تثير

مشكلات بين الرجل وزوجته . إذ كانت تدعى أنه يحاول بتدليله إفسادها .

وقد خيّل للصبية فى بادىء الأمر — وهى تسمع المشاحنات بين الاثنين من أجلها — أن المرأة غيورة حقاً على تربيتها ، وأن كل هذه القسوة لا تقصد بها إلا مصلحتها ، حتى بدأت الأيام تتكشف عن أمر لم يكن يخطر لها ببال .

لقد وضح لها .. أن المرأة تغار منها على زوجها .

أى والله ! هذا هو ما تبينته فعلا !

مجنونة ولا شك ، فما من مخلوقة عاقلة تغار من طفلة فى الثانية عشرة على زوج يقرب من الخمسين ؟

إنه أمر لا يصدق ، ومع ذلك فقد كان هو الواقع .

لقد حدث ذات مرة أن أحضر لها هدية صغيرة فتقبلتها شاكرة ، ولكنه سألها ضاحكا ، وهى تهم يالانصراف :

— أهكذا .. شكر حاف .. بلا قبلات ؟!

وضحكت الصبية ، وعادت إليه ، ثم أحاطت عنقه بيديها الصغيرتين ، وطبعت قبلة على خده ، فقبلها الرجل فى حنان وقال ضاحكا :

— هكذا يكون الشكر .. يجب أن يحصل الإنسان على ثمن الهدية .

وأقبلت المرأة على الصبية ، وهى تقبل زوجها ، وهو يرد عليها القبلة ، فتصاعد الدم إلى وجهها وصاحت حانقة :

— لم يكن ينقصك إلا هذا العبث ؟!

وأسرعت إليها فجذبتها من ذراعها فى حقد ، واستمرت تقول فى لهجتها الحارة :

— إنى أستطيع أن أحتمل كل سيئاتك ومفاسدك ، إلا هذا .. يجب أن تفهمى أنى لن أسمح لك بأن تخربى بيتى .. أتفهمين ما أقول ؟

وذهلت الصبية . ولم تدر بم تجيب ، ولا ماذا تقول .. ولم تملك إلا أن تتراجع فى ارتياع وتفر من أمام المرأة الغادرة المتوحشة .

وصاح الرجل فى دهش :

ــ ما هذا الذى تهرفين .. أجننت ؟!

وصرخت المرأة فى وجهه :

ــ صه .. إنى لن أسمح بهذا العبث فى بيتى .. لن أسمح لمثل هذه الشيطانة الصغيرة أن تسلبنى زوجى !

ــ كفى عن هذا الجنون ، يجب أن تكونى أكثر عقلا ! إنها ليست ابنتى فحسب .. بل إنها حفيدتى .. إنها ما زالت طفلة غريرة ..

ــ طفلة ! إلى متى ستستمر طفلة !.. إن صدرها قد نبت وأضحت امرأة لها أنوثتها .. إنى لست بلهاء .. إنى أفهم كل شىء تماماً !

ــ إنك لا تفهمين شيئاً مطلقاً !

ــ أنا أفهم كل شىء .. وإن لم تكف عن هذا الجدل العقيم سأترك لك البيت .. إنى لم أعد أحتمل .. إما أنا أو هى .

ــ أرجوك أن تهدئى ، وأن تخفضى صوتك .. هذا كلام لا يمكن أن يصدر قط من عاقلة مثلك .

ــ عاقلة أو غير عاقلة .. إنى لم أعد أحتمل ، أنا مجنونة فإذا كنت تريدنى مجنونة كما أنا ...

ــ لا داعى لكل هذا . إن الطفلة طيبة هادئة .

ــ لا تقل عنها طفلة .. إنها امرأة ماكرة .

ــ هبى أنها كذلك ، ولكنها ابنة أختك اليتيمة !

ــ لقد احتملتها كثيراً ، وإنى على استعداد لتربيتها .. ولكنى لست على استعداد لأن أخرب بيتى من أجلها .. ليكن هذا مفهوماً لديك .

ــ وماذا تريدين إذاً ؟

ــ أن تغادر الدار .

ــ إلى أين ؟

— إلى مدرسة داخلية .

— وفى أثناء العطلة ؟

— تنزل فى بيت عمها ، وأنا على استعداد لدفع كل ما يلزمها من المصروفات .

كل هذا الحديث كان يبلغ مسامعها ويقع عليها وقع المطارق ، وهى قابعة فى فراشها ، دافنة وجهها بين ركبتيها .

ولم تستطع أن تفهم سر غضبها فى بادىء الأمر ، إذ لم يخطر لها ببال أنها يمكن أن تغار منها ، أو أنها قد بلغت من الأنوثة ذلك المبلغ الخطر .

وأحست بالآلام تنهش قلبها ، وهى تصر على طردها من المنزل ، ولكن لم يكد ينتهى الحديث بإصرارها على أن تذهب إلى المدرسة الداخلية ، وتعيش فى بيت عمها ، حتى أحست براحة كبرى .

وهكذا بدأت الصبية مرحلة جديدة من حياتها قد خلت من المرارة والتعذيب .

وأقبلت على حياتها بأمل جديد ، وخيل إليها أنها قد تخلصت نهائياً من منغصات الحياة ومتاعبها وآلامها .

ولكن هل تخلو حياة إنسان من منغصات وآلام ؟

إن الصبية قد أصيبت بمزية كانت سبب مصابها فى حياتها فحق عليها القول (ويبتلى الله بعض القوم بالنعم) .

كان بالصبية ما يجذب الناس . كانت دائماً موضع إعجاب واستملاح .. ولا شك أن هذا ما أثار خالتها وزادها جنوناً على جنون ، فتوهمت فى الصبية الصغيرة خصما قوياً قادراً على أن يسلبها زوجها .

فلما انتقلت إلى بيت عمها ، بدأت منغصاتها .. مما كانت تظنه نسيكون مبعث سرورها وتسليتها .

كان خير ما أسعدها عندما تقرر نقلها إلى بيت عمها ، هو أنها ستجد من ابنتى

عمها اللتين تقاربانها سناً خير صديقتين تلهو وتمرح معهما ، ولكن لم يكد يمضى بها الزمن حتى وجدتهما أكبر سبب لشقائها ، منغص لحياتها .

لقد أمضت الأيام الأولى وهى سعيدة هانئة ورحبت بها زوجة عمها وبقية أهل الدار كما يرحبون بضيف مؤقت المقام .. عاجل الرحيل .. ولكن لم تكد تنقضى الأيام الأولى ويتعوّدون إقامتها حتى بدأت تتكشف لها خصالهم وأخذت المعاملة تتبدل .

لم يعد أحد يعبأ بها ، بل أضحت تلقى بروداً من الجميع ، ولم يحزنها ذلك كثيراً فقد تعوّدت فى ماضيها شراً منه .

وقالت لنفسها : تلك هى طبيعتهم ، وأنها لن تفترض منهم أن يولوها اهتماماً دائماً .

ولكن الأمر لم ينته عند هذا الحد ، فقد بدأت الفتاتان ابنتا عمها تتخذان منها موقف الخصومة ، وأضحى لسان حالهما « أنا واخويا على ابن عمى » .

كانت الفتاتان دميمتين ، ولم يكن هناك سبيل للمقارنة بينها وبينهما .. فى كل النواحى .. الظاهر والباطن .. الشكل والعقل ، وهكذا نشأت بينها وبين المخلوقتين — اللتين توقعت منهما أن يكونا لها خير عزاء فى حياتها الموحشة — هوَّة عميقة .

لم يكن هناك وجه للتقارب والتصادق .. فقد كانت هى من طينة .. وكانتا من طينة أخرى . كانت حساسة مرهفة شاعرية ، وكانتا تافهتين ماديتين سطحيتين .

ومع ذلك فقد بذلت جهدها لاستمالتهما .. ولم تحاول أن ترد على فظاظتهما بغير الرقة .. وعلى غلظتهما بغير الأدب ، وكانت تجيب على نقدهما المر بمديح عذب ، وقول رقيق مهذب .

ولم يكن لها أمل بعد ذلك فى غير المدرسة الداخلية التى تقرر إدخالها فيها ، وقد سرَّها أن تكون مدرسة أخرى غير مدرسة الفتاتين ، فقد أصبحت زاهدة فى

عشرتهن ومرافقتهن .

وبدأت حياتها فى المدرسة الداخلية فوجدت فيها كثيراً من عزاء ، وإن كانت الوحدة قد باتت تضنيها .

لم تجد هناك من يسأل عنها ، حتى أيام العطلات حيث كان مفروضاً أن يحضروا لأخذها فيها كانوا يتركونها فى المدرسة ولم تكن فى الواقع راغبة فى الخروج لأنها ستجد ما يفرحها ، ولكنها فقط كانت تخجل من أن تبدو أمام الفتيات أنها وحيدة ليس هناك من يهتم بها أو يسأل عنها .

وأخذت تعجب من هذه الحياة التى قست عليها فى كل أطوارها ، ومن هؤلاء البشر الذين خذلوها بكل أنواعهم .

كانت تجد المادية أمامها .. فى كل مكان تحل به ، وكانت تتبين الأنانية فى كل شخص تلقاه .

كل الناس مشغولون بأنفسهم .. كلّ يقول .. أنا .. أنا . ما من أحد قال لها .. أنت .. أنت .

خالتها المجنونة التى غارت منها وهى طفلة .. وزوجها الذى تخلى عنها خوفاً على بيته وأمنه وحياته .. وبنات عمها وبقية أقربائها .. ما من أحد قد أحس بها .. والصديقات فى المدرسة .. تافهات .. ماديات .. لا وجه قط للتقارب بينها وبينهن .. كل فتاة لا تقدم إلا على ما فيه نفعها .. ولا تبحث إلا عن مصلحتها .

وهؤلاء الفتية الذين صادفتهم سواء أكانوا أصحاب أولاد عمها أو إخوة صاحباتها ، والذين كانت تلهو بالرقص معهم فى الحفلات التى تقيمها ابنتا عمها فى الدار .. لقد كانوا أكثر تفاهة وسطحية وسخافة .. عجباً لهؤلاء الناس ! إنهم أشبه بالزبَد الذاهب جفاء .. لا عمق ولا جوهر ، ولا شيء قيم يرسب منهم فى قرارة نفوسهم .

ومرت بها السنة تلو السنة ، وكلما زادت فى النمو زادت نفسها حساسية وقلبها إرهافاً ، وزاد مع هذا مبلغ شقائها ، وإحساسها بالفراغ والوحشة من حولها .

كيف يعيش هؤلاء الناس ، وهم أشبه بالقلب الفارغ أو الطبل الأجوف ؟

لشد ما تشقى بهم .. وبحياتها .. لو أن أمها ما زالت موجودة ، لما أحست بشيء من ذلك .

ولكن أترى الخطأ فيها .. أم فى كل من حولها ؟. إن الخطأ لا شك فيها . فالمسألة قياسية ، ولو كان الناس كلهم مخطئين وهى على صواب ، فإنها تصبح بذلك هى المخطئة .

إن العاقل بين المجانين .. مجنون بين عقلاء .

إن الشذوذ فيها .. إن الخطأ كامن فى نفسها .. كان يجب أن تكون سطحية تافهة وتنطلق مع الركب لاهية عابثة راقصة .

أليس من الشذوذ أن تجلس فى الليل لترقب النجوم ، وتستمع لحفيف الأوراق وهديل الحمائم ؟! أليس من الشذوذ أن تجلس لترقب الغروب ، وتتأمل حمرة الشفق تكسو هام الأشجار ؟

إنها شاذة أن تفعل هذا وسط أناس يعدون فى العربات وينغمرون وسط الأتربة ويضجون بالصياح .

كان يجب أن تقلع عن تأملها وشاعريتها ، وتندمج معهم وسط الضجيج والصخب .

ولكن أتراها تستطيع ذلك ؟ لقد حاولت فباءت بالخيبة والخذلان.لقد أجهدها الضجيج والانطلاق وأتعبتها مشاركة صاحباتها وأصحابها رقصهم ومجونهم ، فعادت ترقب النجوم والأشجار والشمس الغاربة والقمر المشرق فى صمت بهيج وسكون ممتع .

كانت تتوق وسط ذلك الهدوء إلى إنسان ينقصها .. إنسان شاذ مثلها ، يشاركها شذوذها ، ويجلس معها ليرقب ما ترقب ويسمع إلى ما تسمع ، دون أن يسخر منها أو يهزأ بها .

كانت تحس بحاجتها إلى مخلوق غريب ، غير السائرين فى القطيع ، المتشابهين فى السخف ، المتماثلين فى التفاهة .

أترى يوجد فى الحياة مثل هذا المخلوق الذى يماثلها فى الشذوذ ؟ أم أنها الوحيدة الشاذة فى هذه الحياة ؟

ومرّ بها الزمن وهى فى وحدتها القلبية ووحشتها الذهنية تشارك أصحابها حفلاتهم الراقصة دون أن يشاركها فى مشاعرها أو تفكيرها مخلوق ، حتى تملكها اليأس من العثور على شبيهها فى الحياة .

وفجأة ، وبعد طول يأس وانتظار وجدته .

أجل ! وجدت نصفها الآخر .. زميلها فى الحس المرهف والشاعرية الذائبة والشعور الرقيق .

لقد رأته بضع مرات ، قبل أن تتبين حقيقته .. رأته يرقبها من بعد فلم تجد به ما يميزه عن سائر الناس .. لقد كان يرقبها كما يرقب سواها وكما يرقبها سواه .

وحاول مرة أن يحدثها بطريقة صبيانية ، فصدّته .. كما صدت غيره من قبل .. ثم دفعته الظروف إلى الجلوس معها ذات مرة فتكشفت لها نفسه .

لقد تبين لها أنه كاتب ، وأهداها بعض كتبه ، فاستشفت من كتابته .. عمق نفسيته وشاعريته .. واندفعت فى القراءة له بشغف .

وما من شك هناك فى أنها كانت مخلوقة سيئة الحظ .. قد نقش لها القدر فى لوحه بالخط العميق العريض كلمتى : « شقاء وفشل » .

وسط هذا الخضم المتلاطم من البشر التافهين الماديين الأنانيين ، وفى هذا الفراغ العريض من الوحشة والوحدة يلوح لها .. المخلوق الفرد ، الذى طال بها

التلهف عليه والذى نادته فى كل ترقب لها للنجوم ، وسمعت صوته فى تغريد كل طير هادل .. وورقاء هتوف .. ذلك المخلوق الذى أبصرته بعين الوهم فى كل شفق منمق ، أو زهرة موشاة ، والذى أحست بأنفاسه فى كل هبة نسيم ونفحة طيب .

ذلك المخلوق التوأم الصنو من بين كل هذا القطيع الغريب المنطلق الذى لا يمت لها بصلة ولا شبه .. يلوح لها أخيراً .

فإذا به .. من بين البشر جميعاً .. محرَّم عليها .

أما من نظرة

١٢

يا للسخرية !.

أما كان أولى بالقدر أن يبعده عن طريقها .. ويخفيه عن عينيها ويجعلها تظل هائمة شاردة ؟

أما كان ذلك خيراً من أن يلوّح لها به ليقول هذا مطلبك وتلك أمنيتك ، فإذا ما مدت يدها لأخذه سحبه منها قائلا فى سخرية .. لا .. لا .. إنه محرّم عليك ، إنه ملك لغيرك ؟

لقد شغفت به حباً .. شغفت به هو ، وليس بكتبه ، كما ظن فى بادىء الأمر ، وكما كتب فى مذكراته .

لقد كانت كتبه معبرها إلى نفسه.. إنها لم تحب الكتب لذاتها ولكن لأنها عرفتها بنفسيته وبقلبه وبذهنه وبشخصيته العميقة التى تفيض حباً وسكينة وإيماناً.

لقد كانت تبصره فى كل كلمة وبين كل سطر ، ووراء كل صفحة .. كانت تقرأ كتابته وهو فى ذهنها .. ما قرأتها قط كما يقرأ كل إنسان أى كتاب ، بل كانت تقرؤها كأنها تستمع إليه ، وكأنها تراه يتحرك فيها .

ولكنها مع ذلك لم تملك إلا أن تقول إنها معجبة بكتابته وأنها تحب كتبه .. فقد كان ذلك هو الشىء المباح الذى تستطيع أن تقوله بلا حرج .. بل كان الشىء الذى تستطيع أن تعزى به نفسها عنه .

أجل .. لقد عرفت منذ اللحظة الأولى أنه زوج ، ولم يكن فى وسعها إلا أن تصد نفسها عنه .. وأن ترغم قلبها على اليأس منه فهو كفرد ملك لمخلوقة سبقتها إلى امتلاكه . إنه بشخصه .. شىء خاص ، وليس ملكاً مشاعاً .

أما بكتبه ، وبوصفه مؤلفاً ، فقد كان ملكاً مشاعاً .. يشترك فيه آلاف القراء والقارئات المعجبين والمعجبات .. وما أظن أن هناك ما كان يمنعها أو يحرّم عليها

مشاركة هذه الآلاف فى تقديره والإعجاب به .

وقنعت بهذا ، أو على الأصح لم يكن لها مفر من القناعة بهذا .. فقد كان شىء .. خير من لا شىء ، ولا أظن المهجر الصادى الذى يتلهف على غدير يروى ظمأه ، برافض ورود الغدير .. عندما يقال له إن الغدير يشاركه فيه بقية البشر .

ولا أظن المرتجف المقرور برافض طلوع الشمس إذا عرف أنها ستطلع لتدفئه وغيره من المخلوقات .

كذلك كانت محاولتها فى إقناع نفسها ، لقد قالت إنها طالما تاقت إلى أن تجد إنساناً يشبهها فى الشذوذ والشاعرية والإرهاف ، أفلا تحمد الله على أنها قد وجدته ؟ وعلى أنه يستطيع أن يغمرها بشاعريته وإرهافه وحساسيته كما يغمر غيرها من الناس . أم أنه لا يقنعها إلا أن تتملك شخصه ؟

لا .. لا .. حمداً لله أن عثرت عليه ، وحمداً لله أنها تستطيع أن تمتع نفسها به ، وأن تذهب وحشتها بكتابته .

هكذا أقنعت نفسها ، وأدخلت الطمأنينة إلى قلبها .

ولكن القدر الساخر ، لم يرد أن يتركها فى قناعتها ، بل أبى إلا التدخل حتى يتم سخريته إلى النهاية .

وأية سخرية هناك أكثر من أن يجعل — هذا المخلوق العجيب — أمنيتها وأملها بعد طول تمن وهيمان !؟ أية سخرية أكثر من أن يجعل هذا المخلوق الذى قنعت بأن تشارك فيه آلاف المعجبين به .. يحبها هى ، من دون سائر البشر ؟

إنها مسألة عجيبة !

لم تحاول أن تصدقها فى بادىء الأمر و لم تجترىء على أن تقنع بها نفسها فقد ظنته يتسلى بها، ولكنها بدأت تشاهد الدلائل الواضحة على أنه يحبها مخلصاً صادقاً.

و لم يكن هناك بعد هذا سبيل للمقاومة .

إنها حاولت أن تقاوم .. ولكن ماذا تقاوم ؟ وكيف تقاوم ؟

أتقاوم الحنان المتدفق والحب الجارف الفياض .. بعد أعوام قحط مرت بها منذ وفاة أمها كانت فيها محرومة من كل عطف وحنان ؟

أتقاوم أشواق من طال بها الشوق إليه ؟!

أتقاوم لهفة من باتت تذوب لهفة عليه ؟!

أتقاوم هوى من تفتدى بالدنيا هواه ؟

أتقاوم الهبة التى أضحت لا تحتاج فى الحياة سواها ولا تطلب غيرها ؟!

أتقاوم الحياة التى دبت فيها ، والروح التى سرت إليها ؟

أجل .. لقد كان هو الروح ، وكان الحياة ، وكانت من قبله ، جسداً بلا روح ولا حياة .

أبعد كل هذا يمكن أن تقاوم ؟

أترفض الماء وهى ظمأى ؟ والزاد وهى مسغبة ؟ والكساء وهى مقرورة ؟ والملجأ وهى ضالة شاردة ؟

عبث ! عبث !

ما من إنسان يستطيع أن يقاوم فيض السعادة إذا ما غمره ! ما من وسيلة هناك إلى المقاومة !

نحن أمام السعادة والنعيم لا نملك سوى الاستسلام بلا تفكير فى عاقبة أو خشية من نتيجة .

وهكذا لم يكن أمامها من سبيل إلا الرضوخ والتسليم .

.. ليكن كيف يكون ، زوجاً أو غير زوج ، ملكها أو ملك غيرها .. إنه أمنيتها وأقصى أملها ، وإنه يعطيها ذوب نفسه وعصارة قلبه ، وهى أثمن ما تريد وأعز ما تبغى .

واندفعت فى حبه ، اندفاعاً لا يتصوره عقل ، حتى عقلها هى ، أو عقله هو ، لقد احتل ذهنها وقلبها ، بل لقد احتل كيانها وروحها ، احتل كل ذرة فى هيكلها وفى كل نقطة فى دمها .

لم يكن ما أصابها حب .. أبداً .. أبداً !

إن الحب شيء يمكن وصف أعراضه ، ويمكن حصر مظاهره ، أما ما أصابها فكان شيئاً لا يوصف ولا يحصر ولا يدرك كنهه ولا تفهم خفاياه .

أهو عبادة ؟!

أبداً .. إنه فوق العبادة .. فهو قد علمها العبادة .. عبادة الله .

هذا ليس كفراً ، بل هو الواقع ، ولولاه ما عرفت الله ولا الدين ولا العبادة .

كانت تجلس معه ذات مرة وقد وضعت رأسها على صدره وأحست بسكينة عجيبة وأخذ هو يتحدث إليها فأنبأها أنه رآها فى حلم فى الليلة الماضية وقد ارتدت ثوب عرس وأخذت أهبتها للزفاف ، فأصابه حزن شديد وسأل ممن ستتزوج فقيل له فلان .. فتساءل فى دهش واستنكار : كيف تتزوجه ؟! إنها مسلمة وهو مسيحى ؟

وضحكت عندما سمعت ما رواه وقالت له فى رفق :

ـــ إنى آسفة ، لأنى أزعجتك فى أحلامك .

ولم يمر حديثه عليها بسهولة .. بل استقر فى أذنها قوله إنها مسلمة .

أحقاً هى مسلمة ؟ لقد مرّت بها الحياة وهى لا تعرف إن كانت مسلمة أم غير مسلمة ! إن أحداً لم يحاول أن يلقنها ديناً ، ولا رأت هى أحداً يصلى أو يعبد الله .. إنها لم يخطر لها ببال قط أنها مسلمة ، وما عرفت عن الإسلام شيئاً .

ولكنه يقول إنها مسلمة .. إنه يؤكد أنها مسلمة ، ويرتاع لأنها تزوجت فى الحلم مسيحياً .. إنه إذاً يحبها أن تكون مسلمة ...

ولأول مرة فى حياتها تحس برغبة فى الدين ، ولهفة على أن تكون كما تصوّرها وكما يود أن تكون .. مسلمة .

لقد كانت من قبل تحس بالله كقوة مطلقة يلجأ إليها الإنسان إذا أصابه ضرر أو مسه سوء ، ولكنها لم تحاول أن تهتم بأية تفاصيل أكثر من ذلك .. لم تعرف الصلاة إلا بقلبها ونظراتها إلى السماء .. أما الركوع والسجود والتحيات فلم

تعلم عنها شيئاً ، ولا عرفت شيئاً عن محمد ورسالته ولا عن القرآن والحديث .

أما بعد أن قال لها إنها مسلمة ، فقد أحست بحنين إلى الدين الذى ينتمى هو إليه والرسول الذى يؤمن به .. إنها أحست بسعادة تغمرها لأنها مسلمة مثله .. إنها أضحت تقدّس محمدا ودين محمد .

إنها أحبت الإسلام لأنهما يتشاركان فى التبعية له والإيمان به .

أيكون ما بها بعد كل هذا .. مجرد حب ؟

لا .. لا .. إنه شىء .. فوق الحب ، وفوق العبادة .. شىء لم يوجد له اسم فى قواميس المشاعر بعد .

واندفعت فى تيار مشاعرها .. أشبه بالمسحورة .. أو بالسكرى .. كانت تفيق بين لحظة وأخرى .. فيذهلها أمرها ، ويثقل عليها ضميرها فتجد أنها سارقة ، وأنها مذنبة خاطئة ، وتندفع فى بكاء أليم ، ولكنها لا تكاد تهدأ .. حتى يعاودها الحنين إليه ، وتود لو قضت العمر بين يديه .

وكانت تقاسى من مرارة الغيرة .. الغيرة من الأوهام والحقائق .. الغيرة من بطلات كتابته ومن زوجته .. كانت تشعر أن كل هؤلاء يشاركنها فى ملكيتها له .. أو هن يملكنه دونها .

وبين كل هذه المعامع من المشاعر والانفعالات .. كانت تخرج مثقلة بالسعادة .. كانت النتيجة النهائية .. ربحاً من الهناء .. لا يقدر ولا يقاس .

لقد دفعها حبها الجنونى إلى أقصى قمم النعيم .

ومرّت بها حينذاك أسعد أيام حياتها ، وكانت أشبه بالمغامرة التى تندفع وراء هدفها مغمضة عينيها عن كل ما حولها من أخطار

كانت تحس أن فرصة السعادة لا تسنح كثيراً فى هذه الحياة ، وأنها إن سنحت فمن الحمق ألا تغتنمها ، وكانت واثقة أن هذه هى فرصتها فى الحياة .. قد تكون فرصة مبكرة ، وقد تكون غير خالصة ولا دائمة ، ولكنها مع ذلك فرصتها الوحيدة .. فلتقدم عليها وليكن ما يكون .

وهكذا أسكتت عقلها وأغمضت عينيها وتركت لقلبها العنان .. يرتع فى أخصب مرعى وينهل من أعذب مورد .

أغمضت عينيها فلم تبصر التغامز حولها ، وأصمت أذنيها فلم تسمع الهمسات .. حتى هبت من سكرتها فجأة .. فإذا بالهمس قد أضحى طنينا ، والتغامز أضحى قولا صريحا .

بدأ الأمر بسخرية من ابنتى عمها وكلام أجوف لا يعنى شيئاً ولكن يشتم منه رائحة خطر .

قالت لها إحداهما :

ــ لقد كثرت غطساتك أخيراً .. أين تذهبين ؟

ــ أقضى الوقت مع صاحبتى فاطمة .

وصاحت بها الأخرى شامتة :

ــ كذّابة .. فى كل مرة كنت تخرجين .. كانت فاطمة تسأل عنك .

ــ ربما أكون قد تأخرت لذهابى إلى إحدى المكتبات .

ــ أنت كاذبة .. إنى أعرفك أين كنت .

ــ ماذا تقصدين ؟

ــ أنت أدرى بما أقصد .

ومرة أخرى سألتها إحداهما :

ــ إننا سنذهب إلى « بارتى » .. ألا تأتين معنا ؟ سنستمتع بوقت لطيف وحفلة راقصة .

ولم يكن أكره عليها من حفلاتهم الراقصة الصاخبة فقد كانت تشعرها بالفارق الكبير بين غثاثتهم وعلو قيمته وتفاهتهم وعمقه .

فأجابتها :

ــ إنى أحس صداعاً ، ولن أستطيع الذهاب معكما .

ــ أنا أعرف من سيزيل صداعك .. أعرفه جيداً .

وتدخلت الأخرى قائلة فى سخرية :

ـــ إنك تضربين فى العالى .. نقبك على شونة .

وأحست بالغضب يفعم صدرها وتمنت لو رفعت كفها وهوت به على صدغها وأسكتتها .. ولكنها لم تملك سوى التمسك بالصبر .

وعادت الثانية تقول :

ـــ ماذا تريدين منه ؟ إنه كبير عليك .. وهو متزوج ؟

ولا شك أنه يضحك عليك .

وصاحت هى فى حنق :

ـــ من هذا الذى يضحك علىّ ؟

ـــ على أية حال .. إنى أنصحك لوجه الله . أؤكد لك أنه لو عرف عمك بما تفعلين لكانت النتيجة وبالا عليك .

وأحست بالأرض تميد تحت قدميها .. واشتمت أن الخطر مقبل لا ريب فيه .. وقضت ليلة سوداء مليئة بالوساوس والهموم والآلام .

وعادت إلى المدرسة حزينة النفس ، كسيرة القلب .. لقد أيقظها ناقوس الخطر من غفوتها ، فأبصرت حقيقة ما هى منغمرة فيه ، وأبصرت الأفق أمامها مظلماً لا بارقة فيه ولا هداية .

إن النهاية توشك أن تحل .. فما من شىء بلا نهاية ، ونهاية المتعة لا بد أن تكون ألماً .

إن الخطر لن يحيق بها وحدها .. بل سيشمله أيضاً .. وما روعها شىء مثل تصور مضايقته أو جرحه أو إيلامه .

إن الناس لا شك يتقوّلون عليه كما يتقوّلون عليها .

وهكذا أفعمت بالخوف والقلق ، وكان أكثر ما يزعجها هو تصوّر ماذا يمكن أن يقول عمها لو بلغه الأمر ؟ وماذا يمكن أن تقول خالتها القاسية ؟ إنها لا شك ستشمت فيها وتقول لمن حولها إنها كانت محقة فى سوء ظنها بها ، وإنها لو لم

تخرجها من بيتها لاقتنصت منها زوجها .

وبين هذه الوساوس والأحزان والحيرة والقلق ، كانت تتلهف على لقائه .. ولكنها باتت تخشى هذا اللقاء وتتوجس منه خيفة على نفسها وعليه .

وأضحى اللقاء متعذراً بعد أن أخذت الفتاتان الخبيثتان تضيقان عليها الخناق وتلازمانها فى كل ذهاب لها وإياب .

وكما قال هو فى مذكراته « إن سوء الحظ إذا ما دس بأنفه لا يخرج حتى يتلف كل شىء » .

لقد بدأ بينهما سوء تفاهم لم تقصده هى قط .. لقد نتج عن القصة التى أثارته والتى لم تكن تعنى هى بها أى شىء .

واستمر سوء الحظ يكيل ضرباته دون أن يمكنهما من تفاهم أو تسوية ، حتى انتهى الأمر بالضربة القاضية التى قضت على كل شىء .

إنه يتساءل فى مذكراته عن سر هجرها له ويقول « إنها جعلته يفقد ثقته بالبشر وبالحياة » . ويتساءل : « كيف كانت تحبه هذا الحب العجيب ثم أقدمت على نسيانه بهذه السرعة ؟

ولكنه لو علم لعادت إليه ثقته بكل شىء .. ولأيقن أنها ما زالت تحبه كما كانت بل أكثر مما كانت .

ولكن ما الفائدة فى أن يعلم .. وأية قوة هناك كانت تستطيع أن تسوى الأمور وتعيدها إلى نصابها ؟. لم تكن هناك وسيلة للتصرف فى المسألة إلا كما تصرفت .. كانت المسألة كلها يأساً فى يأس .

بدأ الأمر بأن عادت إلى البيت فى يوم ما ، فوجدت خالتها وزوجها ، وقد جلس الجميع يتسامرون ، ودار الحديث طبيعياً ، حتى فوجئت بقول عمها :

ــ لقد جاءك خطيب اليوم .

وتلفتت حولها إذ لم يخطر ببالها أن القول موجه لها .

ولكنه عاد يكرر قوله :

ــ أقول إنه جاءك خطيب اليوم .. مبروك .

وتساءلت فى دهش :

ــ أنا ؟ خطيب لى أنا ؟

ــ أجل أنت .. وما الغرابة فى ذلك ؟ لقد اكتملت أنوثتك ونموت وأصبحت فتاة جميلة تستحق الزواج .

وتملكها الاضطراب ، وقالت متلعثمة :

ــ ولكنى لم أتمم دراستى بعد ؟

ــ الدراسة لا تهم كثيراً .. إن أمل كل فتاة هو الزواج من رجل يصلح لها .

وأحست من قوله بصدمة شديدة .. وألم مرير .. دفعها إلى الرغبة فى القىء لولا أن تمالكت نفسها .

كان الزواج هو آخر ما ترجو وتتوقع .. كانت تعرف أنه شىء لا بد منه ، ولكنها كانت تراه بعيداً .

كانت تراه كالموت .. أمراً واقعاً .. ولكنه مكروه ومستبعد .

إلى هذا الحد كانت تكرهه ، بل كانت ترجف منه وتخشاه . وكيف لا ونتائجه والموت سواء .

إن الموت يحرم الإنسان حياته ، ويأخذ منه روحه .

والزواج سيحرمها حياتها ويأخذ منها روحها .

أفلا يحق لها أن تكرهه وتستبعد وقوعه ؟ أفلا يحق لها أن تصدم ، وهى ترى عمها يتحدث عنه كأمر واجب .. لا بد منه !

ويحهم !. ألا يتركونها بضع سنوات ؟. إنها مازالت فى السادسة عشرة ، ومازالت أمامها فسحة من الوقت كبيرة .

ولكنها كانت تدرك أنهم يتوقون كلهم إلى زواجها .. والتخلص منها فى أقرب وقت .

كانت خالتها تريد أن تتخلص من عبء مصروفاتها .. وكان عمها وزوجته

يجدان فيها عقبة كأداء فى سبيل زواج ابنتيهما ، وكان لا بد من التخلص منها وإزالتها من طريقهما ، حتى تستطيعا الزواج ، وحتى لا تظهر دمامتهما واضحة جلية بالمقارنة بها .

وهكذا أخذ الكل يرمقونها ، كأنها فريسة بين الذئاب . ولم تستغـرق أفكارها كثيراً .. حتى عاد يقرع أذنها صوت عمها قائلا :

ــ إنه خطيب محترم .. موظف فى السلك السياسى .. ومن عائلة طيبة ، كريم المنبت ، عريق الأصل .

وكانت تعلم أن الواقعة لا محالة واقعة .. ولكنها أرادت أن تبذل محاولة يائسة .. فتمتمت فى صوت خفيض :

ــ إن الوقت مازال مبكراً .. وأنا أريد أن أتمم الدراسة .

وتدخلت خالتها فى صوت ناهر :

ــ أى وقت هذا الذى ما زال مبكراً ؟! إنك أضحيت امرأة .. والعرسان لا يصادفهم الإنسان فى كل وقت !. ثم إنك لا بد أن تتحملى عبئك فى الحياة !. إلى متى ستظلين طفلة ؟. إنك لم تعودى فى حاجة إلى المدارس .

ولم يكن هناك بعد هذا مجال لقول شيء .. لم يكن هناك وسيلة خير من الصمت والتسليم !

ولم تحاول بالطبع المناقشة أو السؤال أو الاستفسار .. لأنه لم تكن هناك فائدة .. ولأنه لم يكن يهمها أمر الخطيب كثيراً أو قليلا .. لقد كان كالقضاء .. واقعا .. واقعاً .. لا وسيلة هناك لدفعه .. وعند ما يلقى الإنسان الموت لا يهمه كثيراً أن يناقش فى كيفيته أو صورته .. فالموت هو الموت مهما تعددت صوره ، وتباينت وسائله .

وعاد عمها يقول :

ــ إنه يقول إنه قد رآك فى إحدى الحفلات، وقد أعجب بك كـثيراً، وسيحضر اليوم لتناول الشاى معنا.. فكونى على استعداد لاستقباله فى السادسة.

هذه الأقدار لا شك مجنونة .. أم ترى الإنسان هو المجنون ؟

مثل هذا الخبر كان ولا شك يسعد أية فتاة .. خطيب محترم فى السلك السياسى .

ولقد كان خليقاً أيضاً — على الأقل — بألا يزعجها كل هذا الإزعاج .. فقد كانت تعلم جيداً أنه لا أمل لها فى المخلوق الذى اختارته ليحتل قلبها من بين جميع البشر .. فهو نفسه متزوج .. ومتعلق بزوجته كزوجة ، وما حاول قط أن يهبها أى أمل فى زواج ، وهى تحترمه وتجله من أجل ذلك .. فقد كان دائماً صريحاً معها فى شرح مشاعره إلى أبعد حدود الصراحة .

وهى نفسها لم تحاول حتى فى أفكارها أن تضع نفسها منه موضع الزوجة .. لأنها كانت تفهمه جيداً ، وتعرف أن قيمتها الكبرى عنده هى كحبيبة .. وأنها لا صلة لها قط بالزوجة .. بل إنها قد تتعارض معها أشد تعارض .. فقد قال لها إن الحبيبة شىء والزوجة شىء آخر ، ولا يمكن للحبيبة أن تكون زوجة ، ولا للزوجة أن تكون حبيبة .

مع كل هذا اليأس منه .. كانت تحس من خطبتها بصدمة كبرى .

وحلت السادسة .. ولم تكلف نفسها مشقة التزين .. ولم تقف أمام المرآة لتفحص نفسها جيداً .. كما كانت تفعل قبل أن تذهب للقاء الآخر .. فقد كانت تبدو لها المسألة كأنها لا تعنيها فى قليل ولا كثير .

وأتى الخطيب وجلس مع الأهل لتناول الشاى ، وكان ذهنها شديد الشرود ، فلم تأبه كثيراً لما حولها ، وإن كان شرودها لم يمنعها من أن تلقى بضع نظرات فاحصة على ذلك الرجل الذى دفعه القدر إليها لتشاركه حياته .

كان إنساناً عادياً كبقية خلق الله .. وكان يربو على الثلاثين .. بين الثلاثين والخامسة والثلاثين ، يكاد يبلغ سن صاحبها .. وقد يكون فى حقيقته أصغر منه قليلا ، ولكنه فى مظهره يبدو أكبر كثيراً .. كان على شىء من البدانة .. أكرش قليلا .. وكان منظره بطربوشه مقبولا بعض الشىء ولكنه لم يكد يخلعه حتى

أضاعت صلعته ما بمنظره من قبول .

وأبى ذهنها إلا أن يضع صاحبها مكانه .. وتخيلت القدر قد كرم معها .. فبدّل كل ما حولها من ظروف .. وساقه إليها لخطوبتها بدل هذا الغريب الجالس قبالتها .. وأبصرته بعين الوهم .. بضحكته المرحة ، وأسنانه المتلألئة ، وعينيه الصافيتين ، وشعره الذى لم يكن يمتعها شىء أكثر من أن تعبث فيه بأصابعها وتتركه ثائراً فوق رأسه .

وأبصرت جسده الفارع الممشوق ، وكتفيه العريضتين وقد جلس واضعاً ساقاً على ساق فى ثقة وكبرياء .

وعادها الشوق واستبد بها الحنين .. وساءلت نفسها : أيمكن أن تكون حقاً قد حرمت منه إلى الأبد ؟ أيمكن أن يقف هذا الشخص الغريب حائلا بينه وبينها ؟! أمعقول أن يكون لهذا الدخيل من الحقوق عليها .. ما يحرّم عليها لقاءه ؟

سخف وحمق ! من الذى يستطيع أن يحرمها من نفسها : إن صاحبها أقرب إليها من نفسها .. إن له الحق فى كل قطعة من جسدها .. إنها ملكه وحده .. لا شريك له فيها .. إنها لا تحس بينه وبينها أى فارق أو كلفة .. إنه نافذ إلى قرارة نفسها .. مسيطر على كل جارحة فيها .

إنها لم تكن تجد أى حرج عندما تتصور أن يضمهما فراش واحد ، بل كانت تلك أمنية طالما تاقت إليها نفسها ، وهى تتقلب على فراشها وحيدة .

أما هذا الشخص الغريب .. فهى تعجب لنفسها كيف يمكن أن تسمح له أن يضع فمه على فمها .. ويقرب أنفاسه من أنفاسها .

ولكن هذا هو ما ستجبر عليه ، ليس أمامها مفر منه .

إن أسعد أيام حياتها قد شارفت النهاية .. وليس أمامها إلا أن تعد نفسها لاستقبال سود الأيام وحالكات الليالى .

ليس أمامها إلا الاستسلام الأليم والصبر المرير .. إنها لم تعد تملك من وسائل العزاء.. سوى التفكير واستعادة ما باشرته بالأمس حقائق ورددته اليوم ذكريات .

أجل ! أجل ! حمداً لله .. أن ترك للإنسان أحلاماً وذكريات .

وانتهى القوم من تناول الشاى .. دون أن تسمع كلمة من أحاديثهم أو تعى شيئاً من أقوالهم .

كانوا فى واد ، وكانت فى واد آخر .. كان جسدها معهم وروحها بين أحضان صاحبها .

وأخيراً انصرف الخطيب ، واستطاعت هى أن تعود إلى غرفتها وأن تخلو بنفسها .

وفوق الفراش وضعت رأسها بين كفيها .. وانهمرت دموعها كالسيل .. إنها لم تعد تملك إلا الدموع .

ما أحمقها ! علام الحزن والبكاء ؟

أتبكى على حب يائس لا أمل فيه ؟ أم تحزن لمصير مقرر معروف لا شك فيه ؟

يجب أن تتجلد وتتماسك ، وتجتاز المحنة .

إن الظروف لا شك ستساعدها على ذلك ، فحالة سوء التفاهم ما زالت قائمة للآن بينها وبينه ، لقد حدثها آخر مرة فى التليفون غاضباً حانقاً عندما قالت له إنها لن تستطيع مقابلته لأنها لم تعد حرة فى تصرفاتها ، فقال لها إنه لا يريد أن يراها .

لشد ما أحزنها قوله .. فقد كان يجب عليه أن يفهم .. وأن يقدر ، ولكنه كان ثائراً مهتاجاً .. لقد قال لها إنها عودته الإفراط فى المشاعر ، وجعلته كالطفل المدلل .. ورجاها ألا تقتصد فى مشاعرها حتى تنتهى فترة حنقه وقلقه الناتجة عن القصة التى كتبتها .

لعنة الله على تلك القصة .. وعلى الساعة التى كتبتها فيها لشد ما أثارت وساوسه وهمومه بلا أدنى سبب ولا مبرر .

ولعنة الله على الظروف السيئة المزعجة ، التى أبت إلا أن تحرم عليها أن تهبه من مشاعرها ما تعوّدت أن تهبه .. أو كانت تتلهف على أن تهبه .

أهناك أمتع عندها من أن تهمس فى أذنه بمناجاتها وتدليلها وحبها ؟

ولكن كيف تلقاه ، وقد أمسكوا بتلابيبها وضيقوا عليها الخناق ؟

ثم .. ما الفائدة فى أن تلقاه أو تناجيه أو تدلله ، والأمر بينهما قد وصل ، أو يوشك أن يصل ، إلى نهايته .

لا .. لا .. لا فائدة من اللقاء .. لا فائدة من التراجع ، إن خير ما تفعله هو أن تسير فى طريق القطيعة التى بدأها هو .

أجل .. يجب أن تكره نفسها عليها ، يجب أن تحتمل .

إن المسألة لن تحتاج إلا لجلد وتماسك بضعة أيام ، وبعدها ستتجلد وتتماسك مكرهة لا بطلة .

وهكذا عزمت على القطيعة وأرسلت إليه خطاب الوداع الذى نشره فى مذكراته بعد أن استقر رأيها على أن تقنع منه .. بكتبه ، وأن تعود إلى موقفها السابق .. قارئة بين آلاف القراء .

ورد عليها بخطاب وداع أيضاً ، أبكاها ليلة كاملة . لقد أحست بالألم يحز فى نفسها وهى تراه يتألم .

ولكن لم يكن هناك سبيل إلى التراجع .. إن الألم واقع لا محالة ، والفرقة آتية لا ريب فيها .

فليقع الألم ، ولتأت الفرقة .. ولينته كل شىء .

لقد قال لها : إن كل شىء إلى الزوال مآله ، حتى الحزن . ولكن .. أحقاً سينتهى الحزن ؟ إن فى صدرها أكداساً من الحزن .. لن يقدر الزمن على تبديدها .. ولن تجسر كف النسيان على إزالتها .. شىء واحد هو الذى سيمحوها ، وهو الموت .. الذى سيتركها بلا شعور ولا حساسية .

وهكذا انتهى كل ما بينهما .. من حيث الشكل ، ومن حيث الظواهر .. أما ما فى القلب .. فقد كانت جذوره أعمق من أن تقتلع .. إلا إذا اقتلع القلب نفسه .

وساعدتها الظروف إلى حد .. على الاحتمال .. فقد تمت الخطبة بسرعة ،

وكان الكل متعجلين متلهفين على إنهاء كل شيء ، فقد كان الخطيب أو الزوج يريد أن ينهى كل الإجراءات قبل سفره إلى مقر عمله فى أحد الأقطار الشقيقة حيث عين ملحقاً بالمفوضية المصرية هناك .. وكان يرغب فى أن يتم الزواج ويصطحبها معه فى سفره .. ولم يكن الأهل أقل منه لهفة فى إتمام الزواج .. للتخلص منها .

وفى بضعة أيام ، كان كل شيء قد انتهى ، وهى مشدوهة مأخوذة .. تباشر أعمالها فى شرود .. كأنها تشاهد رواية أو تقرأ قصة .. وفى النهاية وجدت نفسها فى المطار تسير إلى الطائرة والأهل يلوّحون لها بأيديهم .

وفى الطائرة .. جلست بجواره وقد أغمضت عينيها واستغرقت فى صمت عميق .

وأخيراً وصلت إلى مقرها النهائى .. الذى فرض فيه أن تجعل منه ملاذ العمر وملجأ الحياة .

ولكنها كانت فيه ضالة تائهة شاردة .

لم يكن هناك قط ما يسيئها .. على النقيض ، لقد وجدت أقصى ما تأمل فيه فتاة .. بيتاً جميلا هادئاً .. وزوجاً محباً طيباً محترماً .

لقد وجدت الشيء الطبيعى ، الذى تتمناه الفتاة الطبيعية ، ووجدت حياة طبيعية وزوجاً طبيعياً ، ولكن المصيبة لم تكن فيما حولها .. بل كانت فى نفسها .. كانت هى غير طبيعية .. أحبت إنساناً غير طبيعى .

لو أنها مخلوقة طبيعية .. أحبت إنساناً طبيعياً ، وخذلها القدر فلم يهبها إياه .. وأعطاها بدله آخرَ .. لا بأس به .. لما أثر ذلك فى نفسها كثيراً .. ولتقبلت مصيرها بنفس راضية قريرة .

ولكنها .. هى بالذات .. كانت بلا جدال .. شاذة بين البشر .. بحسها المفرط فى الإرهاف ، ونفسها المفرطة فى الهيام والوله والشاعرية والرقة .

وأحبت من ؟ مخلوقاً .. كانت واثقة أنه نسيج وحده .. مخلوقاً ليس به من

صلة ولا شبه ببقية المخلوقات .

لقد كان يخيل لها ، أن الله عندما خلق البشر خلق الملايين المحتشدة فى هذا العالم الواسع من طينة معينة وبطريقة مخصوصة ، فلما انتهى من خلقهم ، وجد لديه قطعة طين مختلفة فصاغ منها مخلوقين بطريقة مختلفة أيضاً ، ثم ألقى بهما فكانا شيئاً غريباً بين البشر ، كانا هذين المخلوقين ، كانا إياه وإياها .

كانت تجد فيه مخلوقاً لا يقارن .. وما الداعى للمقارنة وليس هناك وجه للمقارنة ؟

ذلك هو مبعث عدم استقرارها النفسى ، وعدم قدرتها على الرضا بفعل القدر والرضوح لسلطانه .

ولم يكن عدم رضائها أو عدم رضوخها .. فعلا .. بل كان مجرد حس .. كان شيئاً فى الباطن .، فقد كانت ذات إرادة على فعلها وعلى مظهرها .

كانت تقوم بواجبها الشكلى نحو زوجها خير قيام .. ولكنها كانت فى تصرفاتها معه سلبية .. كانت تؤدى كل ما يطلب منها ، ولكنها لا تفعل قط ما لم يطلب .. كانت تجيب على حديثه ولكنها لا تبدؤه الحديث ولا تسأله .

كانت تجد حياتها فارغة خاوية لا يملؤها سوى شيء واحد .. هو مجموعة رسائله التى احتفظت بها فى صندوق ، وكانت تستعيد قراءتها كلما زاد بها الحنين أو عاودها الشوق .

وكانت تكره الخيانة والكذب ، ولكنها لم تكن تجد فى احتفاظها برسائله نوعاً من الخيانة لزوجها .. بل كانت موقنة أن هذا من حقها على نفسها ، أو من الظلم أن تحرم نفسها البائسة العزاء الوحيد الذى يمكن أن تتعزى به .

ورآها زوجها ذات مرة وقد اختلت بنفسها وأقبلت على قراءتها فى لهفة فسألها فى هدوء :

ــ ما هذه ؟

ــ رسائل خاصة .

— ممن ؟

ورفعت رأسها عن الرسائل ونظرت إليه نظرة بها بعض التبرم والضيق واليأس :

— إنها رسائل خاصة بى .

— أقول ممن ؟

— من مخلوق عزيز لدى .

— أما زال عزيزاً إلى الدرجة التى تحتفظين فيها برسائله وتقبلين عليها بمثل هذه اللهفة !؟

ولم تكن ترغب قط فى تحديه أو إثارة أية مشكلات بينها وبينه ، وكانت تراه دائماً هادئاً طيباً ودوداً .. فبهتت لمحاولته التحدى والبحث عن المتاعب .

ووجدته قد أثارها بسؤاله وأحست منه بما يشبه الإهانة فأجابت فى حدة :

— أجل .. إنه ما زال عزيزاً لدىّ .

واقترب منها وجلس قبالتها ، وأجابها بصوت أكثر رقة وهدوءا :

— اسمعى .. إنى أعرف كل شىء .. ولم أقدم على خطبتك إلا ليقينى أن المسألة لم يكن فيها فائدة .. وأنه لم يكن هناك أمل فى أن تتزوج فتاة مثلك رجلا ذا زوج .. إنى لم أقدم على زواجك إلا وأنا واثق أنى لن أحرمك هدفاً تأملين فيه .. بل كنت واثقاً أنك سرعان ما تنسين ، وأنى سأستطيع أن أمنحك حياة سعيدة وأجعلك تحبيننى ، ولكن يبدو لى أنى قد فشلت .. إنك دائمة الشرود والذهول .. أنا أعرف أنك تمنحيننى كل ما هو مطلوب من الزوجة شكلا وعملا ، ولكن لا تمنحيننى حساً ، وأنا لا أستطيع إلا أن أشكرك على ذلك ، ولا أملك أن أجبرك أن تمنحينى الحس .. فذلك شىء لا يجبر عليه إنسان وإلا منح فى غير صدق وبلا رغبة ، منح فى تظاهر وادعاء .. فكأنه لم يمنح . إنى أفضل ألا تمنحينى حساً .. من أن تمنحينى حساً كاذباً ، ولكنى أيضاً أكره أن أراك لا تبذلين جهداً فى النسيان .. أكره أن أراك تستثيرين مشاعرك وتنكئين جراحك .. إن

من حقى كزوج أن أمزق هذه الرسائل ، ولكنى لا أريد أن آخذك بالعنف .. فهذه طريقة لا فائدة منها .. فهى تزيد الهوة بيننا .. وكل ما أرجوه أن تبذلى بعض الجهد .. لا من ناحية الشكل والمظهر .. فهذا قد بذلت فيه أقصى الجهد . ولكن من ناحية الحس والباطن .. لا بد أن تحاولى .

وكان حديثه كريماً معقولا .. زادها ألماً على ألم . ولم تستطع أن تجيبه بأكثر من قولها فى حزن :

ـــ إنى شديدة اليأس ، ولن يضيرنى شيء بأكثر مما أنا فيه .. وهذه لحظات عزاء أتعزى بها .. إنى أكره الخيانة والكذب ، ولكنى أعتبر هذا حقاً لى نحو نفسى ، ومع ذلك .. إذا كنت تجد فيها نوعاً من الخيانة .. فسأطويها ، ولن أفتحها بعد ذلك .

وفعلا ، طوتها فلم تفتحها أبداً .

ولكن لو كان يدرى .. لما حرّم عليها قراءتها !

ما الفائدة فى أن يحرّم عليها قراءتها .. وهى تحفظها عن ظهر قلب ، وتستطيع أن تتلوها كلمة كلمة وحرفاً حرفاً ؟

إنه لم يزد على أن منعها من مجرد الشكليات والمظاهر ، ولم يكن هناك أقدر منها ، ولا أقوى إرادة فى هذه الشكليات والمظاهر .. أما فى الذهن وفى القلب .. فقد كانت مغلوبة على أمرها مقهورة فى باطنها .

وأخذت الأيام تمر بها هادئة طبيعية .. فحملت بعد بضعة أسابيع .. ومرّت بها شهور الحمل كما تمر بكل امرأة ، وفى نهايتها وضعت طفلا .

وما من شك هناك فى أن البعد واليأس ومرور الزمن والحمل والولادة ومتاعب الطفل وغيرها من مشاغل الحياة قد هدأت نفسها كثيراً ، وخففت من حدة أحزانها ، وإن كان الحب والتقديس ما زالا راسبين فى أعماقها .

وما من شك أيضاً فى أن الأمور لو سارت على ما هى عليه لزادت من تهدئتها ، ولجعلتها أكثر استقراراً وقناعة بحياتها ، ولجعلت من حبها .. شيئاً ساميا علوياً ،

لا يقض مضجعها ولا يقرح جفنها ، ولا يشوقها ولا يعذبها.. ولكن يضيء لها الحياة ، ويهيء لها السكينة والطمأنينة ، وتشعر به كمنحة منحه الله لها فى فترة من فترات حياتها ، لتهديها سواء السبيل .

هذا هو ما كان يمكن أن يحدث ، حياة هادئة ، تضيئها ذكراه ، وتنعشها القراءة له ، وتصوّره فيها ، كما كان يطلب هو منها : مثلا أعلى ، وقدوة حسنة .

ولكن القدر يأبى علينا ، حتى تعوّد المصائب .. فهو فى البلايا مجدد مبتكر يكره الركود ويأبى الاستكانة .

لقد عادت مع زوجها إلى القاهرة فى أول عطلة .. عادت وهى أشبه بالناقهة .. ناقهة القلب .

والنقاهة تحتاج إلى الراحة والهدوء ، والبعد عن الإجهاد والإرهاق والإثارة ، حتى لا يصاب المريض بنكسة ، تعيد إليه الداء .

وهى فى نقاهتها الحسية .. كان يخشى عليها التعرّض لأقل انفعال أو إثارة . فقد كان قلبها يكاد يستقر فى موضعه ، كان ضعيفاً مترنحاً ، وكان جرحه يكاد يلتئم .

وكانت هى عازمة .. أن تقى نفسها شرّ التجارب ، وأن تبعد بها عن كل ما يثير مشاعرها ويرهف حسها .. عازمة أن تقضى المدة التى ستقضيها فى القاهرة وهى مغلقة على نفسها وقلبها كل السبل .

كانت تعرف أن عليها أن تقاوم الحنين ، وكانت تعرف أن عليها أن تبذل جهداً فى المقاومة ، ولكنها كانت مصرّة على هذا البذل .. مصرّة على أن تخرج من التجربة بسلام .

وبدأت المقاومة ، بمجرد أن وطئت قدماها أرض مصر،بل بمجرد أن لاح لها النيل والمزارع والصحراء فى نهايتها .

لعن الله هذه المرئيات ، إنها تأبى إلا أن تلصق نفسها به .. كل شيء تراه .. لا بد أن يمت إليه بصلة .

هذه الصحراء كانت تلقاه فيها ، وهذه الأرض وطئتها قدماه ، حتى هذه العربة التى بدأت التحرك لحملها هى وزوجها إلى البيت ، وجدت فيها ما يذكرها به .. إذ أبت العربة أن تتحرك وأخذ السائق يضغط على « المارش » فأحدث صوتاً جعلها تذكر كيف كان يحاول إدارة عربته فلا تقوم لأول وهلة .. ثم يخبرها ضاحكا أن العربة بردت ، ويسألها :

ـــ أمستعدة للزق ؟

فتجيبه ضاحكة :

ـــ وللجر .. وللحمل .. ولكل شىء معك .

وخيل إليها أن السائق سيسألها نفس السؤال ، ولكن العربة دارت أخيراً واتخذت طريقها إلى البيت .

ووصلت العربة إلى بيت أبى زوجها حيث كانا سيقضيان مدة العطلة ، وكان البيت يقع فى أحد أطراف مصر الجديدة .. بيتاً منعزلا صغيراً ، وكان الأب يقطنه وحيداً .

وأحست فى البيت نوعاً من الطمأنينة .. فقد أحبت عزلته وسكونه ورحب الأب بهم ترحيباً شديداً .

ولم تجد هناك ما يضايقها أو يقلقها .. فقد كان العجوز هادئاً ميالا للعزلة .. وكان بالبيت خادمة كبيرة تستطيع أن تحمل عنها أعباء الطفل .

وهكذا استقر بها المقام فى أمن واطمئنان ودعت الله أن يجعلها تقضى بقية المدة دون أن تتعرّض لأى إثارة .. أو على وجه أصح .. دعت الله .. ألا يعرضها للقاء .. وألا يلقى بأحدهما فى طريق الآخر .

هكذا دعت الله بذهنها وعقلها .. دعته برغبة قوية أكيدة وإن كان ذلك لم يمنع قلبها المريض المترنح من أن يهتف فى صوت خافت :

أما من نظرة ؟! أما من لقاء .!.

كان يهتف فى شبه توسل .. كان أشبه بالسائل .. بين بخلاء قساة .. أو باليتيم فى مأدبة اللئام .

نداء ...

١٣

وبدأت زياراتها لأقربائها ولصديقاتها .. ومرت الزيارات مروراً عادياً ، بما فيها من ترحيبات ودعوات وولائم وحفلات ، حتى زارتها ذات يوم صديقتها العزيزة عليها ، التى كانت السبب فى تعريفها به .

كان الوقت صباحاً حوالى الساعة العاشرة ، وكان اليوم من أيام الصيف ، ولكن الجو مع ذلك كان لطيفاً ، وكانت بعض السحب المنخفضة تحجب الشمس من آن لآخر فيبدو الجو كأنه فى يوم من أيام الخريف .

كانت تجلس تحت خميلة فى ركن الحديقة ، وكانت تتسلى بعمل التريكو .. معدة ثياب الشتاء لطفلها الراقد فى عربته بجوارها .

ودق جرس الباب الخارجى ، ورفعت بصرها فلمحت من خلال الأشجار صديقتها وقد وقفت بالباب .

وفتح الحارس الباب ونهضت هى من مقعدها لاستقبالها مرحبة بها .

وأقبلت عليها الصديقة تحتضنها وتقبلها وتصيح بها مؤنبة :

ــ يا خائنة .. أتمضى عليك هذه المدة وأنت فى القاهرة دون أن تخبرينى .. يخونك البسكوت والجلاس ؟

ــ كنت أنوى أن أزورك اليوم .

وكانت كاذبة فى قولها .. فهى لم تكن تنوى زيارتها أبداً .. فقد كانت تعتبرها ضمن مناطق الخطر، إذ كان لقاؤه عندها أمراً محتمل الوقوع ، وحتى لو لم تلقه فإن بيتها نفسه شر مثير لذكريات دفينة .

وعادت صاحبتها تقول مؤنبة :

ــ أتذهبين لزيارة « عفت » قبل أن تزورينى .. ولو لم ألقها مصادفة لما علمت بوجودك ؟

ــ كانت زيارتى لها مصادفة .. كيف حالك ؟ وكيف حال المدرسة ؟

ــ كيف حالك أنت ؟ لقد أصبحت أماً .. ومع ذلك فلا يبدو عليك أى تغيير ، ولو عدت إلى المدرسة تحملين الحقيبة لبدوت طفلة كما كنت .. لا بد أن تكبرى قليلا وإلا لن يحترمك ابنك .

وانطلقتا تضحكان وتتبادلان تافه الحديث وغث الأسئلة وكانت تتمنى لو مرت الزيارة بمثل هذه التفاهة والغثاثة .

كانت تسكت بشدة وحزم ذلك الهاتف من أعماقها باسمه المتسائل عن أخباره ، المتلهف على أنبائه .

وحمدت الله أن ألزم صاحبتها جادة العقل .. فلم يجر لسانها بذكره ، والواقع أن ذلك كان منها غريباً فما اجتمعتا قط إلا وكان هو محل حديثهما .. بل لقد كانت هى نفسها تدفعها إلى الحديث عنه حتى تمل صاحبتها وتصيح بها :

ــ أرجوك ، دعينا نتحدث عن شخص آخر .. لقد مللت من ذكره .

ــ ولكنى لا أمل أبداً .

كيف إذاً استطاعت أن تجلس معها طوال هذا الوقت دون أن تلفظ عنه كلمة واحدة !

ولكن حمداً لله .. إنها فتاة عاقلة .. وهى تعلم أنها قد أضحت زوجة ، ونبش ماضى الزوجات أمر غير مستحب .

واستمر الحديث يطرق كل موضوع إلا هو ، وكانت هى ما زالت مكبة على عمل التريكو ، وقد طاف بذهنها عبثه المستحب فى نزع الإبرة من الصوف ، وتخيلته بجوارها يرمقها بنظراته المشوقة اللهفى .. ولكنها سرعان ما طردت طيفه من ذهنها .

ويبدو أن صاحبتها كانت قد سألتها سؤالا .. خلال شرودها ، فلم تسمعه ، إذ قالت لها ضاحكة :

ــ اللى واخد عقلك .. يتهنى به .

وكان لهذه الجملة وقع شديد .. كأنها مطرقة هوت على سندان .

كانت جملة « شهيرة » إذ كانت لا تفتأ ترددها لها كلما وجدتها شاردة الذهن .. وكانت إجابتها الدائمة لها هى قولها فى استسلام : « واخد عقلى بس .. دا واخد عقلى وروحى وقلبى .. وكل حاجة فى » .

وساد صمت عجيب .

صمت هو أبعد ما يكون عن الصمت .. صمت صارخ صائح .. ملىء بصخب الصدور وضجيج القلوب .

ولم تنبس ببنت شفة .. ولم تقل بالطبع جملتها .. التى تعوّدت أن تقولها .. ولكنها كانت ترزح تحت وطأة حنين ملتهب وشوق متأجج . وكأنما القدر أراد أن يحكم إخراج الموقف المرهب المستعر .. فانبعث فى تلك اللحظة لحن من ناى فى الإذاعة .. لحن سمعته فى أول لقاء لهما على حدة .. وأنبأها هو أن هذا اللحن يطربه وينتشيه ويذيب نفسه .

ورفعت عينيها إلى وجه صاحبتها .. فإذا بسحابة حزن معتمة قد طافت به .. كأنما هى قد تذكرت أمراً أليماً .

وفجأة ألقت صاحبتها بسؤالها المروع .. قائلة فى صوت خافت يملؤه الأسى والألم :

ـــ ألم ترى ....؟

ولم تذكر الاسم ، ولكنها أدركت من تعنى .. ولم تجب بشىء ، ولكنها هزتْ رأسها بالنفى .

وعادت صاحبتها تسأل :

ـــ ألم تسمعى بما حدث له ؟

ـــ حدث له ؟

ولم تستطع أن تتمالك نفسها فهتفت متسائلة :

ـــ ماذا حدث ؟

ـ أحقاً لم تسمعى ؟

ـ أسمع بماذا ؟ قولى أرجوك !

ـ إنه راقد فى المستشفى .. فى حالة خطيرة .

ـ كيف ؟.. ومتى ؟.. ولمه ؟

ـ لقد تصادم بعربته .

ـ وماذا أصابه ؟

ـ يقولون إن الصدمة أصابته بارتجاج فى المخ .. أو كسر فى العمود الفقرى .. لست أدرى .. ولكن النتيجة أن نصفه الأيسر قد أضحى عاجزاً .

وأحست بأطرافها تتثلج وبأعصابها تنهار .. ووجدت نفسها قد باتت عاجزة عن فعل أى شىء .. لا دموع .. ولا صراخ .. حتى صيحة دهشة لم تستطعها .

ووضعت منديلها بين أسنانها وأخذت تضغط عليه .. محاولة كبت ما بها من ألم والسيطرة على نفسها .

وبعد فترة صمت أليمة .. استطاع صوتها أن يخرج متحشرجاً من شفتيها متسائلا :

ـ فى أى مستشفى ؟

ـ الإسرائيلى .

ونهضت فى تثاقل واتجهت إلى البيت فى بطء وصاحت :

ـ فاطمة .

وظهرت الخادمة بالباب فأمرتها بحمل الطفل إلى الداخل وإحضار حذائها .. ودست قدميها فى الحذاء .. ثم سارت إلى صاحبتها كأنها شبح يتحرك ، وقالت لها فى هدوء :

ـ هيا بنا !

ـ إلى أين ؟

— إلى المستشفى .

وبدا التردد على وجه صاحبتها وقالت معترضة :

— ولكن ...؟

— ماذا ؟. أتخشين زوجته ؟

— لا .. ليست زوجته هي التي أخشى .. إن زوجته راقدة فى دارها .. إنها لا تستطيع النهوض .. فهى كما تعلمين مريضة من قبل ، ولم تستطع احتمال الصدمة لشدتها فأقعدتها فى الفراش .

— علام ترددك إذاً ؟

— إن زوجك قد ...

وجذبتها من ذراعها نحو الباب وقالت فى يأس شديد :

— زوجى ؟ إنى أكره زوجى .. وابنى .. أكره الناس كلهم .. وأكره الحياة .. لن يستطيع أحد أن يفعل بى شراً مما بى .. أنا ميتة .. وما لجرح بميت إيلام .

واندفعت فى عزم إلى الخارج ، ولم تملك صاحبتها إلا أن تسير خلفها .

كانت تسير بلا وعى وبلا إرادة .. لقد أفقدتها الصدمة كل سيطرة لها على نفسها وعلى عقلها .

كانت تتحرك بدافع خفى مجنون .. كانت لا ترى شيئاً ولا تسمع شيئاً .. ولا تحس بشىء .. إلا أنه هو .. راقد بلا حراك .

هو .. الذى ظنته قد انكمش فى قلبها على مر الزمن .. لم تكد تسمع نبأه .. حتى وجدته قد تضخم وعاد ليحتل مكانه .. فى كل ذرة فى كيانها وكل نقطة فى دمها .

هو .. كل شىء .. وسواه لا شىء .

هو .. فى جانب .. والدنيا كلها فى جانب .

هو .. هو .. وإذا لم يبق هو .. فلا بقيت هى .. ولا بقيت الأرض .. ولا.

السماء على الأرض .

ووصلتا إلى نهاية محطة الأتوبيس رقم ١٠ ، واتخذتا مجلسيهما متجاورتين ..
وكانت العربة خالية تماماً إلا من الكمسارى والسائق .

وهمست صاحبتها فى أذنها معيدة النصح :

ــ أما كان يجب أن تنتظرى زوجك .. و ....

ولم تجب عليها بكلمة ولكنها نظرت إليها نظرة أسكتتها .

وتحركت العربة وتتابعت المحطات ، وتزاحم الركاب ، وهى شاردة بعينيها لا تبصر شيئاً ، وسمعت صاحبتها تصيح بالسائق :

ــ محطة السلم .

ووقفت العربة وجذبتها صاحبتها من يدها ، وهبطتا إلى الطريق .. عابرتين أسفل الكوبرى .. متجهتين إلى المستشفى الإسرائيلى .

وعبرتا الباب الحديدى ثم صعدتا السلم الرخامى العريض وقادتها صاحبتها يميناً فى ممر بين الحجرات .. وأخذت تمر ببصرها على الأرقام الصغيرة التى على الأبواب .. ثم توقفت أمام باب مغلق .. وبدت عليها الحيرة .. ولم تدر أتطرق الباب أم تنتظر .. وأخذت تتلفت حولها ، علها ترى أحداً خارج الحجرة .

وأقبلت إحدى الممرضات فى خطوات سريعة حاملة في يدها « طاقية ثلج » واقتربت من الباب هامة بالدخول .

وسألتها صاحبتها :

ــ أنستطيع أن نراه ؟

ــ إنه نائم .. لقد مضت عليه بضع ساعات وهو فى غيبوبة تامة .. إن أباه فى الداخل ، وسأخبره بوجودكما .. استريحا قليلا فى الردهة .

واختفت الممرضة داخل الحجرة ، وتهاوت هى على أحد المقاعد فقد أحست بقدميها تكادان لا تحملانها .

وأخذت صاحبتها تسير جيئة وذهاباً بحركة عصبية متوترة . وأخيراً فتحت

الممرضة الباب ودعتهما :

ـــ تفضلا .

وتقدمت صاحبتها أولا .. وسارت هي خلفها .

وهى لا تدرى حتى الآن .. كيف لم تخر مغشياً عليها .. وكيف استطاعت الوقوف على قدميها .. والإحساس بما حولها .

وقع بصرها على الحجرة البيضاء الجدران والسقف ، وفى وسطها الفراش بملاءاته البيض ، وجسده الطويل مسجى تحت الملاءات ، وقد بدا وجهه شاحباً هزيلا رقيقاً ووضعت فوق رأسه « طاقية ثلج » وامتدت إحدى ذراعيه وقد اتصلت بخرطوم رفيع تدلى من حقنة « جلوكوز » مدلاة من أعلى .

وبجوار الفراش .. وقف عجوز أشيب الرأس ، بادى الهزال ، يمد إليهما يده مرحباً .

كان الرجل ولا شك أباه .. إذ كان الشبه بين الاثنين واضحاً فى ملامح الوجه ، وطول القامة وعرض الكتفين .

وقامت صاحبتها بواجب التعريف فى كلمات مقتضبة سريعة خاطفة قائلة :

ـــ والد محمود بك .. صديقتى .

ثم تساءلت .. لمجرد السؤال :

ـــ كيف الحال ؟

ولم يجب الرجل .. بل بدا تشنج خفيف فى نهاية شفتيه وفى ذقنه ، وحاول جهده أن يمنع نوبة البكاء التى توشك أن تمسك بتلابيبه ، ولكنه لم يفلح .. فقد احمر جفناه ، وهمى الدمع من مقلتيه ، وتهاوى على مقعده ودفن وجهه فى كفيه .

ولم تستطع هى المقاومة .. وكانت أحزانها المكبوتة فى صدرها تتحين الفرصة لتجد لها مخرجاً .. فلم تكد تبصر دموع العجوز حتى انهارت تماماً ، واستندت بيدها إلى حرف أحد المقاعد ، وأخفت وجهها باليد الأخرى. واندفعت فى نوبة بكاء.

وبكت صاحبتها .. ولكنها كانت أول من أفاقت .. وأخذت تربت على كتف العجوز فى رفق قائلة :

ــ إن شاء الله سليمة .. لا داعى للبكاء .. أكثر من هذا ويزيله ربنا .

ثم اتجهت إليها وأخذت تهزها من ذراعها ، قائلة فى شبه تأنيب :

ــ كفى .. كفى هذا .. يجب أن تتماسكى .

وكان يجب أن تتماسك وتتجلد .. فكفت عن البكاء .. وتهاوت على أحد المقاعد ، وبعد برهة صمت سألتها صاحبتها فى همس :

ــ أظننا يجب أن نعود الآن ؟

ــ نعود ؟!! إلى أين ؟.. وإلى من ؟

لقد كانت تعرف أن مقرها بجواره .. وأنه هو كل ما لها فى هذه الحياة . فكيف تتركه ؟

أتتركه ملقى هكذا ؟ لا كانت .. ولا كانت الحياة .

ولكن أى حق لها فى البقاء بجواره ؟ بل أى حق لها فى أن تبكيه كما بكته ؟

أياً كان هذا الذى بينهما ، وكيفما كانت الرابطة الروحية التى تشد أحدهما بالآخر ، فإنها لا تزيد فى الواقع وأمام الناس عن أن تكون غريبة عنه .. دخيلة عليه .. حتى فى مرضه .

إنه ما زال زوجاً ، وقد تكون زوجته راقدة الآن فى فراشها .. ولكن ذلك لا يمنع من أنها قد تبل فى أية لحظة ، وتأتى إلى المستشفى لتتخذ مكانها بجواره .

يا للعجب !.. أيعقل أن يحرم إنسان حق الحزن .. وحق العناية والتمريض ؟

التمريض ؟ ولكنها قطعاً تستطيع تمريضه .. إن أية ممرضة هنا تستطيع تمريضه .. وهى لن تقل بحال عن أية واحدة منهن .

أجل . لن يستطيع أحد أن يمنعها من تمريضه والسهر عليه .

واستمرت الأفكار تطن فى رأسها ، وعادت صاحبتها تستحثها :

ــ أظن الوقت قد حان للذهاب ؟!.

ولكنها لم تجبها بكلمة ، واستمرت متهاوية فى مقعدها مغرقة فى شرودها .

وانتظرت صاحبتها برهة أخرى ثم قالت هامسة فى حزم :

— يجب أن تعودى .. ماذا يقول زوجك ؟

وأخيراً نهضت متحاملة على نفسها ، وألقت نظرة أخيرة على الوجه الذابل الساكن ، وشدت على يد العجوز ، واستدارت متجهة نحو باب الغرفة ، ولكنها لم تكد تبلغه حتى سمعت هتافاً باسمها .

هتافاً حاراً متوسلا متلهفاً .. نفس الهتاف الذى تعودا أن يتبادلاه فيما بينهما .

وأصابتها رجفة شديدة وجمدت فى مكانها .

حمداً لله .. لقد أفاق .

واستدارت فى بطء لتستقبل هتافه .. ولكنها وجدته ما زال مغمض العينين وتكرر الهتاف ، وهو مستغرق فى غيبوبته .

لقد كان يهذى .. باسمها .

وقال الأب مفسراً بصوت متهدج فى شبه اعتذار :

— إنه يهذى .. منذ أن راح ق غيبوبته ، وهو لا يفتأ يهذى بهذا الإسم

ومرة أخرى أحست بأنها تتهاوى ، واندفعت ثانية فى نوبة بكاء مريرة .

وهمس الأب متسائلا فى دهشة شديدة :

— أهو أنت التى يهتف باسمك ؟

ومدت صاحبتها يدها فسحبتها من ذراعها ، وأخذت تهرول بها إلى خارج المستشفى ، وهى تقول مؤنبة :

— ما كان يجب أن تحضرى .. ولكنى أنا المسئولة .. كان يجب ألا أوافقك ، وأن أمنعك عن المجىء .. بل ما كان يجب أن أخبرك بالنبأ أصلا .

وصمتت برهة ثم عادت تقول وهو تهز رأسها فى دهشة :

— ولكنى كنت أظنك قد نسيت و لم أكن أظن أنك ستنهارين بهذه الطريقة ،

ولا كنت أظن أنه قد بلغ هذه الحال من السوء .

وأخيراً بلغت الدار وهى تكاد تكون فاقدة الوعى .

وعلى باب البيت لقيها زوجها .. فأذهلته حالها وأدهشه احمرار جفنيها وهتف بها متعجباً :

ـ أين كنت ؟!

ولم تجبه ، واتجهت إلى داخل البيت وارتمت على أقرب مقعد ، ووضعت رأسها فى كفها وأخلدت إلى الصمت .

وتبعها زوجها وعاد يلح عليها بالسؤال :

ـ أين كنت ؟ أجيبى ؟ أين كنت ؟

ورفعت رأسها وأجابته فى هدوء وقد تمالكت نفسها :

ـ فى المستشفى .

ـ أى مستشفى ؟

ـ الإسرائيلى .

ـ لِمَ ؟. ماذا حدث ؟. هل أصيب أحد من أهلك بسوء ؟!

ـ ليس من أهلى :

ـ من يكون إذاً ؟! من يكون هذا الذى أزعجك كل هذا الإزعاج ؟

ـ إنه هو ..

وعض زوجها بأسنانه على نواجذه ، وأحس بثورة شديدة تهب بين جوانحه .. وحاول جهده أن يتمالك أعصابه وقال فى غيظ مكتوم :

ـ أذهبت الآن لزيارته فى المستشفى ؟

ـ أجل .

ـ أنت لا شك مجنونة !

ولم تجبه بكلمة .. وعادت تضع رأسها فى كفها .. فازداد غيظه ، ولم يستطع أن يكبت ثورته وصاح بها :

ـــ أجيبى ! ما الذى دفعك إلى زيارته ؟

ـــ لأنه مصاب .

ـــ ومالك به ؟ إنك تنسين نفسك .. تنسين أنك متزوجة .. فبأى وضع تزورينه ؟ وما علاقتك به حتى تزوريه ، وهو رجل متزوج .. أتزورينه كعشيقة ؟

و لم تكن حالتها تسمح كثيراً بالمناقشة أو بالرد .. و لم تكن تضيرها أقواله .. بل إنها كانت لا تكاد تفهمها .

واستمر هو فى ثورته قائلا :

ـــ يجب أن تفهمى أنى لن أسمح لك بهذا العبث .. لقد صبرت عليك كثيراً .. هذا الشرود والوجوم .. الذى أنت فيه .. شيء لا يحتمل ، ومع ذلك فقد احتملته ، وقلت لنفسى إن الزمن سيعيدك إلى رشدك ويرد إليك صوابك ، وإنك ستردعين من تلقاء نفسك . لقد قلت لك إنى لن أحاول التدخل فى مشاعرك الخفية ، ولكن هذه الفضائح التى تحاولين إثارتها ، وهذا الجنون الذى أنت مندفعة فيه .. لن أقبله قط بحال من الأحوال .. لن أسمح لك بأن تجعلينى مضغة فى الأفواه ، وأضحوكة بين الناس . إنى سأغفر لك لوثتك وحمقك هذه المرة ، ولكن إذا عدت إليها ، فسأعرف كيف أتصرف .

و لم يكن لهذه العاصفة من أقل أثر فى نفسها إذ لم يكد ينتهى من حديثه حتى رفعت رأسها وأجابت بنبرات هادئة وفى عزم وإصرار :

ـــ خير لك أن تتصرف من الآن .. فإنى سأذهب إليه غداً و كل يوم ، وسأبقى بجواره حتى يبل أو ينتهى .. أعلم هذا جيداً .. وافعل كل ما يبدو لك .

ـــ ما هذا الذى تقولين ؟. إنك لا شك مجنونة ؟

ـــ مجنونة أو غير مجنونة .. من الغد .. سأقوم بتمريضه .. إنى لن أفعل نحوك ما يمكن أن يسمى خيانة ، إن ضميرى مستريح .. لأن كل ما سأفعله هو أن أمرّض مريضاً على فراش الموت .. مريضاً لا يحس بشيء مما حوله ، ولا يحس

حتى بى .. فإذا كان ذلك يفزعك ويسبب لك مثل هذه الثورة والانفعال .. فلتفعل ما تشاء ، ولكن لن يثنينى عن عزمى شىء .

وصمت برهة تمالك فيها نفسه ، ثم قال فى حزم :

ــ اسمعى .. إذا خرجت من هذا البيت فلن تعودى إليه ؟

ــ سأخرج .

ــ ولن ترى ابنك ؟

ــ سأخرج .

ــ يجب أن تفكرى جيداً ؟

ــ سأخرج .

ــ إنك مجنونة ؟

ــ سأخرج .. سأخرج .. دعنى وشأنى .. أرجوك .. كفى ما بى .

وعادت تخفى رأسها بين كفيها مخلدة إلى الصمت .

وقال لها قبل أن يوليها ظهره :

ــ على أية حال سأترك لك فرصة تفكرين خلالها حتى الغد .. فربما تعودين إلى رشدك وتصرفين هذا الشيطان الذى يركب رأسك .

وأحست أنها لم تعد تستطيع احتمال كلمة منه ، فرفعت إليه رأسها محدقة فيه برهة ، ثم نهضت فجأة قائلة :

ــ لا داعى لهذه الفرصة .. سأذهب من الآن .

ثم اتجهت إلى الباب بخطوات ثابتة .. ولكنه أسرع فوقف بينها وبين الباب وصاح بها :

ــ إذا خطوت خطوة واحدة نحو الباب فأنت طالق ؟

ــ دعنى أخرج .

ــ وابنك ؟

ــ دعنى أخرج قلت لك .

— لن أتركك تخرجين من هنا حتى تكتبى لى تنازلا عن كل شىء .

وخرجت من بين شفتيها ضحكة مريرة ساخرة :

— لست فى حاجة إلى شىء ، ولا أريد منك أى شىء . دعنى أخرج .

— لن تخرجى .. حتى تكتبى التنازل .

— سأكتب لك ما تريد .

وبعد لحظة كانت توقع على ورقة قدمها إليها وهى مغمضة العين وقذفت إليه بها وبالقلم ، ثم أخذت طريقها إلى الخارج متجهة إلى بيت صاحبتها .

ووصلت إلى بيت صاحبتها وقد استمدت من يأسها شجاعة .

إنها تشعر أنها قد أضحت حرة طليقة .. تشعر براحة لأنها وجدت فى نفسها من القوة ما جعلها تقدم على ما أقدمت عليه .

ولقيتها صاحبتها صائحة فى دهشة :

— أنت !! ماذا أتى بك ؟!

— لقد أصبحت حرّة .. وسأذهب إلى المستشفى .

— ماذا تعنين بحرّة ؟!

— حرّة طليقة .. أو طالقة .. كما يسمونها .

وندت عن صاحبتها صرخة فزع وصاحت :

— ماذا فعلت بنفسك أيتها المجنونة ؟ ما الفائدة من كل هذا ؟

وأجابتها فى ضيق وملل :

— مجنونة .. مجنونة .. هو أيضاً قال لى ذلك ، وسيقول الناس جميعاً عنى مجنونة ، ومع ذلك فلن أتراجع . أى جنون هذا الذى ترينه فى عملى !! ألم تسمعى عن أحد دخل الدير .. إنى سأعمل ممرضة .. بدل دخول الدير .. أى جنون فى هذا ؟!

— ومستقبلك ؟!

— ليس لى أى مستقبل .. كل هذه الظواهر لم أعد أعبأ بها .. إنى ذبيحة فى

باطنى .. إنى ميتة .. أى مستقبل هناك لامرأة ميتة ؟

ــ وابنك ؟!

ــ هو أعز لدى من مائة ابن .. إذا كنت على استعداد لأن أفتديه بروحى .. أفلا أترك من أجله ابنى ؟

ــ ولكن ...

ــ أرجوك . وفرى نصحك .. لقد انتهى كل شىء .. لقد كتبت له إقراراً بالتنازل عن كل شىء .. ولا فائدة من الجدل .

ــ وماذا تنوين الآن ؟

ــ سأعمل ممرضة ، وسأقوم بتمريضه .

ــ كيف تعملين ممرضة .. إن التمريض يحتاج إلى دراسة . يجب أن تهدئى وتتروى .

ــ إذاً سأقوم بخدمته .. أظنهم لن يرفضونى مجرد خادمة ؟

ثم تهدج صوتها وقالت بتوسل :

ــ أرجوك .. لا تعقدى الأمور .. أرجوك أن تساعدينى .. كل ما أطلبه هو أن أكون بجواره .

واغرورقت عينا صاحبتها فضمتها إليها .. وهمست فى أذنها :

ــ لا تحزنى .. سأفعل من أجلك كل شىء .. اعتمدى على الله وعلىّ .. وليساعدك الله .. سأخرج معك ، ولكن بعد تناول الغداء .. إنك لا شك لم تتناوليه .. فهيا بنا الآن نأكل لقمة تقيم أودك .

وتناولت بضع لقمات ، ثم خرجت وصاحبتها إلى المستشفى .

ولم تكن صاحبتها تعرف كيف يمكن أن تفعل لها ما تريد ، ولكنها دعت الله أن يوفقها فى سعيها .

ودخلا إلى المستشفى ، واتجهتا إلى حجرة المريض ، وهناك وجدتا الأب والطبيب المشرف على العلاج .

وسألتها صاحبتها أن تبقى خارج الغرفة ، ودخلت هى وبدأت فى عرض مطلبها .

ودهش الرجلان .. وهز الطبيب رأسه فى حيرة وقال :

ــ ولكن يجب أن تكون لديها شهادة .

ــ يا دكتور أرجوك .. إنها ستسهر على خدمته هو ، ولن تقوم بعمل من الأعمال الفنية . ستكون ممرضة شكلا . لقد تركت زوجها وابنها من أجله .. فيجب ألا تخذلها .. ولا أظن هناك أى شىء يمكن أن يحول دون تطوع إنسان لخدمة مريض !

وهز الطبيب كتفيه وقال لها :

ــ أمرك .. دعيها تلحق بى فى المكتب .. حتى أتفاهم مع مدير المستشفى .

واتجه الطبيب إلى المكتب .. وبعد برهة لحقتا به .. ولم يستغرق الحديث وقتا طويلا .. حتى كان كل شىء قد انتهى .

وأحست وهى ترتدى ثياب الممرضات البيضاء أنها تقذف من فوق كتفيها عبئاً ثقيلا .. وتملكها إحساس المؤمن يبدأ جهاده .

وتركتها صاحبتها عائدة إلى بيتها .. وهى تقول لها فى حزن :

ــ ليعاونك الله .. إن ما فعلته .. غريب على البشر .. إنه عمل لا أتوقعه من مخلوق على الأرض .. ولكن منك أنت محتمل الوقوع .. لقد كنت دائماً أراك مخلوقة عجيبة .. ليرحمك الله .. وليجعلك لا تندمين على ما أتيت .

ــ لن أندم على شىء قط .. ما من شىء كان يمكن أن يسعدنى فى هذه الظروف إلا ما فعلت .. كل ما أطلبه من الله هو أن يحفظه ويرده سليما .

يحفظه !! من أجل مَنْ ؟!

ويرده سليما ؟!.. لمن ؟!

لها هى ؟.. أم لزوجته الراقدة فى فراشها ؟

أية سخرية هذه .. لقد ضحت بكل شىء .. لكى تنقذه لغيرها ؟!

إنها الخاسرة فى جميع الأحوال .

لو ذهب إلى ربه .. فهى الخاسرة .. ولو عاد إلى بيته فهى الخاسرة أيضاً

لو ذهب .. فسيذهب عنها .. ولو عاد فلن يعود إليها .

لو عاد .. فسيعود إلى زوجته .. وستعود هى .. إلى أين ؟! الله وحده أعلم بمصيرها .

إنها ضائعة ضائعة .. مفقودة مفقودة .

ومع ذلك .. فما استقر فى ذهنها شىء من هذا .. فقد كان ذهنها لا يتسع لشىء قط .. كان لا يملأ ذهنها إلا الجسد المسجى ، والوجه الشاحب ، والرأس المثقل بطاقية الثلج ، والذراع المربوطة إلى السقف بخرطوم الحقنة .. وبعد كل هذا .. الصوت العميق .. الهاتف باسمها .

إنه لم ينسها حتى فى غيبوبته .. فكيف تنساه ؟

إنه ينادى .. فلا بد أن تلبى نداءه !. إنه لا شك فى حاجة إليها .. فى حاجة إلى حبها وعطفها .. وإجابتها هتافه باسمها .. بهتافها باسمه .. لقد كان ذلك هو أحب شىء إلى نفسها ونفسه .

فى العرين

١٤

وسارت بخطى ثابتة إلى حجرته ودفعت الباب برفق فوجدت الأب قد أسند برأسه على كفه .. وراح فى إغفاءة .. فلم يكد يسمع وقع أقدامها حتى تنبه من غفوته ، وهمست به فى رفق :

ــ يجب أن تستريح الآن .. سآخذ دورى فى الخدمة .

ــ بل سأبقى معك .

ــ يجب أن يريح أحدنا الآخر .. حتى نستطيع أن نتناوب الخدمة . أرجوك أن تذهب لتستريح الآن .

ونهض الأب متحاملا على نفسه .. وقال ، وهو يفتح أحد الأدراج :

ــ عندما تنتهى حقن الجلوكوز .. ستحضر الممرضة لإعطائه واحدة من هذه الحقن .. إنها موجودة هنا فى هذا الدرج .

ونظرت إلى داخل الدرج فوجدت أنه قد صفت فيه بضع « أمبولات » ، ووجدت بجوارها رزمة ورق .. لم يصعب عليها تمييز الخط الذى كتب عليها .

ولاحظ الأب نظرتها إلى الورق ، فقال فى صوت خافت :

ــ هذا آخر ما كتب .. إنها قصته الأخيرة .

واغرورقت عيناه بالدموع وتهدج صوته ، وهو يتمتم قائلا :

ــ لقد كانت السبب فى انتكاسه ، وفى مضاعفة حالته .. لقد أمره الطبيب ألا يجهد نفسه ، ولكنه أصر على الكتابة ولو علمت بما سيحدث ، لقتلت نفسى قبل أن أدعه يكتب .

وغادر الأب الحجرة ، وأغلق الباب .

وأخيراً .. أصبحا فى خلوة .

سخرية أخرى .. من نوع بديع .. لا شك أن القدر يصفق لها ، طرباً وإعجاباً .

أجل ! لقد باتا فى خلوة .. وأية خلوة ؟

ألم يكن هذا ما يتوق إليه ، وما طلبت هى منه فى خطابها أن يقلع عنه ؟ فلما غضب أنبأته بأنها ستذهب معه إلى آخر الأرض ، بل إلى آخر العمر ؟

ها هى قد أتت إليه .. لا لتذهب معه إلى آخر الأرض بل إلى آخر السماء .

من كان يصدق هذا ؟

إنه أضحى ملكها أخيراً .. ملكها وحدها .. هى خادمته وعبدته .. ألا تجمعهما الآن وحيدين غرفة واحدة ؟! ألا يرقد أمامها على الفراش وحده .. وهى التى لم تكن تتمنى شيئاً قدر أن ترقد بجواره وتختبئ بين أحضانه ؟

ماذا تراه بقائل لو فتح عينيه ووجدها أمامه ؟ لقد قال لها فيما مضى إنه لا شئ أحب إليه من التطلع إليها ومناجاتها ..

أما يستطيع أن يتطلع إليها الآن .. ويناجيها ؟

وعلا صوته مرة أخرى هاتفاً باسمها .. هتافاً حاراً مخلصاً ، يذوب من الصبابة والوجد .. ومس الهتاف جسدها كما يمسه تيار كهربائى ، وانتفضت مرتاعة ، وأخذت تقترب منه فى بطء ، ولم تملك إلا أن تجيب هتافه .. بأحر منه .

وأخذ يهتف باسمها ، وأخذت تجيبه ودمعها ينساب من عينيها كالسيل المنهمر .

آه لو يسمعها ! آه لو يحس بها !

واستمر فى هذيانه قائلا فى رجاء حار :

ـــ تعالى .

وأجابت باكية :

ـــ إنى بجوارك ياحبيبى .. إنى بجوارك .

وأخيراً عاد إلى صمته .

وانحنت عليه تمس بشفتيها وجنتيه .. وتغرق بدمعها وجهه ، وحتى أحست

بأنها تكاد تتهاوى فهبطت فوق المقعد .

ومضت فترة سكون عجيب كانت تبدو كأنها فى غيبوبة .

فلم تفق إلا على صوت الباب يفتح ، والممرضة تدخل لتعطى الإبرة للمريض .

وبعد لحظات انتهت الممرضة من عملها .. وغادرت الغرفة .. ومرة ثانية ضمتهما الخلوة .

وجذبت المقعد بجوار الفراش ، وجلست ملاصقة له ، واضعة كفه بين كفيها .. مقبلة إياها بين آونة وأخرى .

وأتى بعض زوار .. ثم انصرفوا ، وهم أشد حزناً .. ثم أقبل الليل ، وأخذت الممرضة تلقنها بعض الواجبات التى يجب عليها عملها .. ثم تركتها وحدها .

وجلست ترقبه .. وكانت تجده بين آونة وأخرى يقلب رأسه يمنة ويسرة فى تململ وضيق .. ثم يطلق تنهيدة حارة ، أو آهة متوجعة ، فتحس كأن نياط قلبها تتمزق .

ومضت الساعة تلو الساعة ، وهى جالسة فى مقعدها لا يغمض لها جفن .. وأحست بصداع شديد يطرق رأسها فقامت إلى الدرج الذى به « الحقن » تبحث فيه علها تجد قرصاً من الأسبرين .

ولم تجد سوى الحقن .. والورق .

وأخذت تحدق فى الورق .. وخيل إليها أنها تسمع صوت الأب يقول :

ـــ هذا آخر ما كتب .. إنها قصته الأخيرة .

« القصة الأخيرة » .. لقد قال لها إنه سيكتب قصتها .. وسيسميها القصة الأخيرة ، وأنبأها أنه سيجعل كاتبها يكتبها وهو على فراش الموت ، يلفظ آخر أنفاسه .

أيمكن أن يكون قد حدث هذا ؟!

لا .. لا .. إنه لم يلفظ آخر أنفاسه .. ولن يلفظها ! إنه يتنفس بانتظام ..

وسيفيق من غيبوبته قريباً . قد يصيبه الشلل ، ولكنه سيبقى على قيد الحياة .. سيتحدث ويضحك وسيبقى حياً .

ولكن ترى ماذا كتب ؟

أتراه قد كتب عنها حقاً .. أم تراه قد نسيها فيما نسى ؟! أطواها قلبه كما طوى غيرها ؟. لقد قال لها إنه لا يستطيع أن يعيش بغير حب .. فهل استطاعت واحدة سواها أن تحتل مكانها كما احتلت هى مكان سواها ؟

من يدرى ؟.

ترى ماذا كتب ؟

ومدت يدها فأمسكت بالأوراق .. وبدأت فى قراءة بضعة الأسطر الأولى .

وضغطت بأسنانها على شفتيها حتى كادت تدميهما

إنها قصتها هى .. بل إنها رسالته إليها !

إنه يناجيها .. ويعتب عليها هجره ونسيانه

لقد كتبها من أجلها .. وفاء بوعده لها .

وعاد قول أبيه يطن فى أذنيها :

ــ لقد أصر على كتابتها .. وكانت السبب فى انتكاسه ومضاعفة حالته

ليتها ما رجته أن يكتبها .. ليتها ماتت قبل أن تسبب ذلك الجهد له !

وأمسكت بالورق ، وجلست على المقعد تقرؤه بنفس مضنية ، وقلب محروق من اليأس والعذاب .

* * *

وأخيراً انتهت من قراءتها .

وسقط رأسها على صدرها فى إعياء ويأس .

وعادت تستعيد ما قال :

ــ لا بد أن أضع لها خاتمة من عندى .. أجعلك مثلا تعودين فى اللحظة

الأخيرة نادمة مستغفرة .. ولكنك تجديننى قد ذهبت ..

لقد عادت إليه .. غير نادمة ولا مستغفرة .. لأنها لم تنسه قط .. و لم تهجره ولا تسلوه .. إنها ما كفت عن حبه لحظة واحدة .. ولا شغلت نفسها بغيره .

إنها عادت إليه .. ولكن قبل أن يذهب .. إنه لن يذهب قط .. إنها ستعيده إلى الحياة .

إنه لن يذهب أبداً وهى بجواره .

إنه سيفيق من غيبوبته ويراها .. ويعرف أنها تحبه كما أحبته دائماً .. وكما ستحبه إلى الأبد .

أجل ! ستدفع عنه ما أحزنه .. وتعيد الثقة فى نفسه .. فيها وفى البشر ، وفى الحياة .. ستجعله سعيداً .. سعيداً .. ومن غيرها أقدر على ذلك ؟

إنها لن تتخلى عنه قط .. ستكون له كما يشاء .. وعلى أى وضع يريد .

ما أشد حمقها لو حاولت بعد ذلك أن تتمسك فى هذه الحياة القصيرة الزائلة المعقدة .. التى لا منظم لها سوى قدر ساخر ، ولا محرك فيها سوى قوة جائرة لا تبغى سوى الهزل بنا والعبث بمشاعرنا وبرغباتنا !

ما قيمة حياة طويلة رتيبة مملة قاتلة .. إذا قيست بلقاء بين ذراعيه واستسلام تحت شفتيه ؟

ما قيمة حياتها لو لم تتخللها بضعة الأشهر التى تمتعت فيها بحبه ؟ لقد منحها من السعادة ما يجعلها تشعر أنها قد أخذت أكثر من نصيبها من الحياة .. وما جعلها تشعر أنها الرابحة مهما لقيت من صنوف العذاب والشقاء .

إنها ستعيده إلى الحياة .. وتعيد نفسها إليه .. ليفعل بها ما يشاء ، ولن تحاول صده أو هجره أو البعد عنه .. ليقل الناس عنها ما يقولون .. إنها مجنونة شاذة .. ولن تعبأ بأقوال العقلاء الطبيعيين .

فقط .. لو يعود إلى وعيه !.. لو يحس بها ويراها !.. ويغفر لها ما قد ظنه بها !

ولكن لم يبد لها أن هناك أية فائدة .. فلقد استمر فى رقدته محركاً رأسه يمنة

ويسرة فى ضيق وتململ .. مرسلا الآهة تلو الآهة .. فإذا ما كف عن التململ والآهات .. اندفع يهذى .. تارة باسمها ، وتارة بخليط مشوش من الأقوال والنداءات .

ومرت بها الأيام وهى مشدوهة تائهة .. تمر بها أشباح الزائرين ، الرائحين والغادين دون أن تميز لهم وجهاً ، فما كانت تبصر إلا وجهه الذى يزداد هزالا وشحوباً يوماً بعد يوم .

واستمر الجلوكوز وغيره من الحقن تدفع فى دمه وهو مسجى لا حراك به ، وبدأ يداخلها إحساس أليم باليأس .. فما كانت ترى من حولها ما ينبىء بأن هناك بادرة رجاء ، أو بارقة أمل .

كانت الوجوه كلها عابسة مقطبة والنفوس تفيض باليأس والمرارة .

وجلست ذات ليلة فى مقعدها ترقبه فى حزن وهو يتململ ويتأوه .. وطاف بذهنها كيف قال لها ذات يوم : إنها مسلمة ، وكيف حاولت بعد ذلك أن تكون مسلمة وكيف تعلمت الوضوء والصلاة ، وقراءة القرآن .

ولقد نسيت كل ذلك بعد زواجها .. لقد جعلها اليأس تكفر بكل شيء .

ترى لِمَ لا تعاود صلاتها الآن .. وتجرب أن تلجأ إلى الله عسى أن يعيده لها ؟

وأحست من تفكيرها بسكينة كبرى ، وبدت لها فى الظلمات بارقة أمل ، ولم تفتأ حتى قامت إلى الحوض الأبيض الصغير فتوضأت .. ثم افترشت منشفة على الأرض .. وأخذت فى الصلاة .

ولم يكن فى ذهنها إلا هو .. كانت تردد صلاتها برجاء واحد .. هو إعادته إلى الحياة .

وكانت تحدق فى سقف الغرفة وهى راكعة ، وكأنها تبصر الله من خلاله ، وأخذت تتمتم هامسة :

ـــ يارب .. أنت تسمعنى . أعده إلى يارب ، ولو بضع لحظات .. لست أطمع فى كثير .. بضع لحظات فقط .. ألقاه خلالها قبل الفرقة الأخيرة .. لقاء

أخير يارب هو كل ما أرجو منك .. أريد أن أمسك يده ، وأحدثه .. أريده أن يشعر بى .. ويعرف أنى عدت إليه .. وأنى أحبه ، وسأحبه حتى أموت .. وبعد أن أموت .. لو يكون فى قدرتى أن أشعر وأن أحب .. أريده أن يموت قريراً هانئاً سعيداً .

أعده إلىّ يارب .. لحظة واحدة .. دعه فقط يرانى ثم يذهب .. يارب اغفر لى ولا تؤاخذنى بما سبق من خطاياى . ارحمنى الآن فقط ، وعذبنى بعد ذاك كما تشاء .. أريده يارب .. بضع ثوان .. ليس هذا عليك بكثير .

وقطع عليها همساتها الداعية .. صوت تنهيدة طويلة انطلقت من صدره ، وأعقبتها آهة حارة .. وازداد تململ رأسه وحركته فوق الوسادة .

ونهضت بسرعة فوقفت بجواره وانحنت عليه تمسح بكفها جبينه .. كانت أنفاسه تتلاحق ، وبدا عليه كأنه يبذل جهداً .

وتلاحقت أنفاسها كأنما قد شدت إلى أنفاسه .. وخفق قلبها بشدة .

أيمكن أن يكون الله قد استجاب إلى دعائها ؟!

أيمكن أن يكون فى طريقه إليها ؟

أيمكن أن يعود حقاً ؟

وبلا إرادة .. أخذت تهتف باسمه .. كأنما تراه مقبلا من بعيد وتتعجل قدومه .

أخذت تهتف ، وتهتف .. هتافاً من أعماق الأعماق .. لم تكن تهتف بشفتيها .. بل بروحها وقلبها .

إنه لا بد أن يسمعها ، ولا بد أن يعود !

وفجأة كفت عن الهتاف .

فلقد كف هو عن التململ ، وكف عن التأوه .

إنه لا شك عائد .. عائد .. إنه سيفتح عينيه ، ويراها ويتحدث إليها ...

وأحست به يأخذ شهيقاً طويلا .. بلا زفير ، وشهيقاً ثانياً ، وثالثاً .

وبعد ذلك ساد سكون عجيب .. لا شهيق ولا زفير .. ولا تململ ولا تأوه .
وساءلت نفسها فى فزع : ما سر هذا السكون ؟. لقد خيل لها أنه عائد إليها .
إيمكن أن يكون قد ذهب ؟!
ذهب نهائياً .. بلا أمل فى عود .. أو رجاء فى لقاء ؟
ومدت أصابعها مشنجة فى ذعر شديد ، وبمنتهى البطء ، وضعتها على طاقتى أنفه .
لقد كانت هذه الوسيلة الوحيدة التى تعرفها لتمييز الموتى من الأحياء .
ولم تحس بهبة نفس تصدم أصابعها الباردة .
ولكنها لم تقتنع .
إنه لا يمكن أن يذهب .. لقد كان عائداً إليها .
وأحست بجسدها ينهار ، وتهاوت فوق الجسد المسجى تضمه إليها وتضع وجهها على وجهه .. كانت تتشبث به .
وشعرت ببرودة وجهه تحت لهيب وجهها ، واندفعت تنشج فى بكاء عنيف .
ولم تشعر بالباب حين فتح ، ولكنها أحست بيد تمس كتفها ثم تجذبها من ذراعها محاولة دفعها عن الفراش .
وسمعت صوتاً يسألها :
ــ ماذا بك ؟! ماذا حدث ؟
وتحاملت على نفسها ونهضت عن الفراش ، وأشارت إلى الجسد الساكن وهى تضغط بأسنانها على شفتيها وهمست :
ــ لقد ذهب .. انتهى كل شىء .
وأقبلت الممرضة الأخرى تتحسس الراقد ثم جذبت الملاءة البيضاء .. فغطت وجهه ؛ وجذبتها من ذراعها خارج الغرفة وهى تقول آمرة :
ــ تعالى .. لا فائدة من بكائك .

وسارت معها بلا مقاومة .. فقد كانت لا تملك المقاومة..كانت بلا وعى ، ولا حس ، ولا قوة ، ولا إرادة .

ومن العبث أن تحاول أن تتذكر كيف مرّت بها الفترة التالية بعد ذلك .

كانت أشبه بالضائعة .. الضالة .

بل كانت فعلا ضائعة ضالة .. كانت أشبه بالمتحركة فى سحب ثقال معتمات سود .

لقد غادرت حجرته ، وجلست فى حجرة الممرضات صامتة واجمة .. لا بكاء ولا دموع ، ولا صوت ولا حركة .

لقد انتهى كل شىء .

كان هذا هو ما يسيطر على ذهنها .

انتهى .. انتهى .

ليت مرضة قد طال ؟. ليته استمر فى غيبوبته إلى ما لا نهاية ؟! لقد كانت على الأقل .. تراه ، وتسمع أناته وتتحسس يده .

كانت تخدمه وتسهر عليه .

كانت تشعر أنه لها ، وأنها تابعة له .

أما الآن .. فقد فقدت كل شىء .

إنها لا تستطيع أن تضم جسده .. أو تشيعه .. إنها لا تملك إلا التباعد والانزواء .. فهى لا تملك حتى حق البكاء عليه ، فهى بالنسبة إليه .. لا شىء .

لا شىء أكثر من ممرضة .

و لم تك تعرف إلى أين تذهب ؟ وماذا تفعل ؟ وهى شريدة منبوذة .. لقد تركت بيتها وزوجها وابنها ، وهى لا تندم على ما فعلت ولا تفكر قط فى العودة إليهم ، وهى كذلك لا تستطيع العودة إلى أقاربها ، فهم لا شك قد لعنوها وتبرءوا منها . واعتبروها مجلبة للعار .

ليفعل القدر بها ما شاء .. فلا تظن أنه قد بقى لديه شر مما أعطاها .. لقد وهبها

أسوأ ما عنده ، وكل ما يهبه لها بعد ذاك محتمل .

وفى وسط معمعة الموت .. خيل لها أنها أضحت عند الجميع نسياً منسياً .. ولم تمض برهة حتى أقبل عليها الأب الشيخ الذى لم تنسه الصدمة القاتلة أن يسأل عنها ويذهب إليها فيضمها إليه باكياً ويقول لها :

ـــ لست أدرى ماذا أقول لك ؟ ولا كيف أكافئك ؟ فلست أملك ما يساوى فعلك ، ولكن ...

ثم مدّ إليها يده برزمة الأوراق التى كانت فى الدرج وأردف قائلا :

ـــ خذى هذا فإنى أظن أنك أحق الناس به . لقد قرأت ما به ذات ليلة .. فلم أشك فى أنه قد كتبه من أجلك .. خذيه إنه ملكك ، وليرعك الله .. فإنك لم ترتكبى إثماً ، ولم تأتى ذنباً ، ولا تستحقين إلا كل عطف ورعاية .

وملأها قوله بعزاء عجيب .. كانت المرة الأولى التى تسمع من إنسان .. أنها لم تخطىءولم تذنب ، وأنها تستحق كل عطف ورعاية .

الحمد لله أن جعل هناك من يفهم مشاعرها ويقدر تصرّفها .

ولم يكد الشيخ يودعها .. حتى أقبلت صاحبتها فضمتها إليها ، وقالت لها فى لهجة شفوقة وإن كانت لم تخل من تأنيب :

ـــ كنت أعلم أن هذا سيحدث ، والآن ماذا أنت فاعلة ؟ هيا بنا إلى البيت لتتدبر الأمر .. فلا أظنك تستطيعين الجلوس والتفكير إلى ما لا نهاية .

ولم تكن هناك فائدة من مقاومة صاحبتها .. بل لم يكن هناك موجب للجدال والمناقشة ، وإلا فأين ستذهب إذا لم تذهب معها ؟

وأمضت بضعة الأيام التالية فى بيت صاحبتها ، وهى فى حالة ذهول تام .. منهارة النفس ، متداعبة الجسد .. لا تكاد تتناول إلا ما يقيم أودها ، ولا تذوق النوم إلا لماما .

وأخيراً .. بدأت تفكر .

ما المصير ؟ وما النهاية ؟ إلى متى ستظل هكذا عبئاً على صاحبتها ؟. إنها لو

احتملتها غداً فلن تحتملها بعد غد .. إن لكل شيء نهاية .. والكرم إذا طال .. انقلب ضيقاً وتبرماً ، وهى لا تستطيع قط أن تفكر فى أن ترغم أحداً على إيوائها وإطعامها .

يجب إذاً أن تفكر فى حل لمصيرها .

ولكن علام كل هذا الإجهاد والحل ميسور ؟

لماذا لا تعمل ممرضة كما كانت .. لِمَ لا تستمر فى العمل بالمستشفى ؟! إنهم لا شك يقبلون إيوائها وإطعامها .. نظير خدماتها .

إنها لا تريد سوى الكفاف ، من المأوى والمأكل والملبس .. إنها تريد أن تقبع بعيدة عن الناس ، وستهيئ لها خدمة المرضى الكثير من راحة البال والضمير .

وفى ذات ليلة أنبأت صاحبتها بعزمها على الرحيل فى الغد لكى تعمل فى المستشفى .

وذهلت صاحبتها ورفعت حاجبيها متسائلة فى دهشة :

ـــ تعملين ؟ أين ؟

ـــ فى المستشفى .. ممرضة أو خادمة .. أو أى عمل يضعوننى فيه .

ـــ ما هذا الذى تقولين ؟. ألم يكفك كل هذا الهوس الذى مضى ؟ يجب أن تعودى إلى رشدك الآن .

ـــ وماذا تريديننى أن أفعل .. وأى عمل أستطيع أن أتعيش منه سوى هذا ؟

ـــ عمل ؟!! وما الذى يجبرك على العمل ؟ ولماذا لا تعودين إلى بيتك أو إلى ذويك ؟

ـــ بيتى ؟ وذوى ؟ إنك حسنة النية جداً .

ـــ بل أنت الحمقاء المجنونة .. إن كل شيء يمكن أن يغتفر . لِمَ لا ترجعين إلى بيتك ؟ ولا شك أن زوجك سيغفر لك وسيسمح لك بالعودة !

ـــ أولا .. هو لن يغفر ، وثانياً ، أنا لن أقبل غفرانه ولن أعود إليه بعد ما فعلت .

ــ وذويك؟

ــ ولا ذويّ ، إنى لست محتاجة لأحد . أنى أعرفهم جيداً .. إنهم قوم نفعيون ، أنانيون ، كفانى ما رأيت منهم . لقد نشأت بينهم كأنى فى صحراء أجدبت من قطرة حنان . إنى لم أعد صغيرة ولا عاجزة ، وسأعرف كيف أعول نفسى .

ــ على أية حال ، ليس هناك وجه للعجلة .. إنك فى بيتك ، ولن أضيق بك ذرعاً . امكثى معى حتى يحلها ربنا .

« يحلها ربنا » وانطلقت منها ضحكة قصيرة ساخرة وأجابت .

ــ ربنا يأبى أن يحلها فى وجهى .. لا بد أن أحلها أنا . سأذهب غداً إلى المستشفى .

ــ لا تكونى عنيدة .. امكثى بضعة أيام !

ــ لا داعى للتأجيل .. لن يكون هناك فارق كبير بين اليوم وبعد بضعة أيام .

ــ ابقى على الأقل إلى ما بعد غد ، حتى يدبرها المولى .

ــ قلت لك لن يدبرها المولى !

ــ سأدبرها أنا .. صبرك علىّ .

و لم تملك إلا أن ترفع كتفيها فى يأس وتجيب :

ــ كما تشائين .

و لم يكن يخطر على بالها كيف تنوى صاحبتها أن تدبرها ، بل لم تكن تظن قولها أكثر من مجرد رغبة فى استبقائها ، و لم تشأ أن تستمر فى جدالها ، قائلة لنفسها إنه لن يضيرها أن تمكث يوماً أو يومين أو حتى بضعة أيام ، لا سيما وأن البيت لا يحتوى إلا على أمها العجوز الطيبة التى لا يكاد يحس بها أحد .. فهى والأمر كذلك .. لا تثقل على أحد .

ولكنها فى اليوم التالى فوجئت بصاحبتها .. وقد أقبلت عليها قبيل الظهيرة بعد غيبة ساعتين خلال الصباح ، وتبينت فى وجهها تجهماً وضيقاً .

و لم يكد يستقر بها المقام حتى سألتها مستفسرة :

ــ ما بالك ؟! إنك لا تبدين مسرورة !. هل هناك ما يضايقك ؟

هزت صاحبتها رأسها فى أسف وأجابت :

ــ لم أكن أظن البشر بمثل هذا الحقد والسوء ..

ــ كيف ؟ ماذا حدث ؟

ــ لقد ذهبت إليه .. وحاولت استغفاره .. ولن أحاول أن أصف لك كيف قابلنى .. لقد ازدرانى كما يزدرى متسوّلا حقيراً .. و لم يجلس معى سوى بضع لحظات ثم نهض بعدها قائلا لى : « إن الأمر قد انتهى .. أخبريها أن لا أمل يرجى لها فى العودة .. وأنبئيها أنها لن ترى ابنها ما دمت على قيد الحياة .. ومن الخير لها .. أن تبقى فى المستشفى لخدمة المرضى » .

وأحست من قولها بطعنة أليمة .. ليست من الخذلان بل من الإذلال .. ولكنها كتمت ما فى نفسها .. إذ لم يكن من العدل أن تثور على صاحبتها .. وهى التى عرضت نفسها للخذلان من أجل ما ظنته مصلحتها .

وتمالكت نفسها وقالت فى هدوء :

ــ كان يجب عليك ألا تذهبى .. على أية حال .. الحمد لله أن خذلك هو .. لأنه لو رضى عودتى .. لخذلتك أنا ورفضت العودة .

وكانت تقولها فى عزم وصدق ، رغم أنها كانت تعتقد أن صاحبتها لن تصدق إلا أنها مجرد « مقاوحة » .

وفى اليوم التالى كانت تسير وإياها إلى المستشفى ، و لم يستغرق الأمر كثير جهد .. حتى عينت بالخدمة فيه .. وارتدت ثياب الممرضات .

ومضت بها الأيام وهى مجدة فى عملها .. مخلصة فيه ، وكان لديها من ذكائها وثقافتها .. ما يجعلها تهيىءلنفسها مركزاً طيباً ، حتى أضحت فى بضعة شهور ممرضة ممتازة .

وعاشت حياتها فى المستشفى شديدة الانطواء على نفسها مكبة على عملها ..

لا تكاد تجد لحظة للخروج أو التفكير .

ومنحها عملها الجديد .. خير ما يمكن لمثلها من عزاء وتهدئة وصبر .

ووطنت نفسها على أن تقضى حياتها فى المستشفي .. ولم تعد تطمع فى أى شيء .. حتى ذلك الحنين إلى ابنها الذى كان يخزها بين آونة وأخرى استطاعت أن تسكته تماماً ، لا سيما وأنها كانت تعرف أنه قد سافر مع أبيه .. وأن من المستحيل رؤيته .

لقد أدركت أن أكثر ما يشقى الإنسان فى حياته هو رغباته .. حقيقة أنها قد تمتعه قليلا .. ولكنها تحمل وراء تلك المتعة كل مسببات الشقاء .. شقاء السعى ، وشقاء الخيبة وشقاء الحرمان .. وحتى بعد الحصول عليها .. تحمل شقاء الملل .

فلو أمكن للإنسان أن يحد من رغباته .. من شتى الأنواع .. وأن يعيش بلا رغبات .. فقد سيطر على حياته وملك زمامها .

وكذلك عزمت هى على أن تكون .

كانت تحيا بلا رغبة .. فى أى شيء .

لقد كانت لها رغبة وحيدة .. ذرتها ريح الزمن .. ومزّقها القدر .. فيجب أن تعيش بلا رغبة ولا أمل .. إنها الرابحة .. فلقد تناولت مرة واحدة كل ما يخصها من متعة وألم ، وعليها الآن أن تقطع طريق الحياة بلا أمل ولا رغبة ولا متعة ولا ألم ، ولا سعادة ولا شقاء .

وقد بدا لها أنها على هذا النمط قد استقرت حياتها ، وإلى هذه النهاية قد انتهى أمرها .

حتى أقبلت عليها إحدى الخادمات ذات يوم .. تنبئها أن هناك من يطلبها فى المكتب .

ولم تشك فى أن صديقتها قد أتت لزيارتها ، فقد كانت لا تفتأ تزورها بين آونة وأخرى ، حاملة لها بعض الهدايا .

وسألت الخادمة من باب تحصيل الحاصل :

ــ من الذى يريدنى ؟

ــ رجل .

ــ رجل ؟!

قالتها فى دهشة شديدة .. وعادت تسائل نفسها .. رجل ؟!! أى رجل هذا الذى يسأل عنى ؟ ولمه ؟

و لم يطل بها التساؤل .. حتى وصلت إلى المكتب ، ودفعت الباب فإذا بها تجد نفسها أمام الأب الشيخ .

ونهض الرجل ومد يده إليها مرحباً ، وبادلته الترحيب مخلصة .. فقد كانت تكن له حباً عميقاً . إنه الشىء الوحيد الباقى من روحها الذاهبة .

إنها تبصر فى وجهه المتغضن ، وشعره الأشيب .. وقامته المهيبة .. صورة حبيبها .. إن عليه سيماء الكبرياء التى كانت تلازم ابنه ، الكبرياء الظاهرة التى ملؤها الدماثة واللطف والرقة والمرح .

وجلس الاثنان ، وبدأ الحديث متعذراً فى أول الأمر ، وقطعت هى الصمت الذى ران بسؤالها .. ذلك السؤال التقليدى :

ــ كيف الحال ؟

وأجابها هو الإجابة التقليدية :

ــ الحمد لله .. وأنت ؟

ــ الحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه .. الدنيا تسير .

ومرة أخرى ساد الصمت ، وأخذت الأفكار تتزاحم فى مخيلتها .. ماذا حدث ؟. وماذا يريد ؟ وفيم مجيئه لها ؟

أيريد أن يعطيها شيئاً ؟.. أوراقاً أخرى كتبها حبيبها الراحل ؟ أم ترى يريد أن يأخذ الأوراق التى أعطاها إياها .. زادها فى الحياة ، وتعلتها فى الوحشة والفراغ ؟

أم تراه يريد أن يمنحها أجراً .. ولكن متى ؟.. بعد هذه الأشهر ؟. ولكنها لن

تقبل منه شيئاً .. إنها ليست ممرضة مأجورة.، وماذا تكون إذاً ؟! وماذا تسمى هذه النقود التى تتناولها آخر كل شهر .. أليست أجراً ؟ أليست هى ممرضة مأجورة ؟. ولكنها لم تكن كذلك .

وقطع الرجل عليها سيل أفكارها بقوله :

ــ لقد أتيت إلى هنا لأنى أريد ممرضة، و لم يخطر ببالى أنك مازلت هنا.. حتى أنبأتنى الخادمة التى قابلتها بوجودك فأحسست بغبطة لأنى أستطيع رؤيتك .

ــ أنا أيضاً أحسست بنفس الغبطة .

ــ وإنى لأرجو أن تساعدينى فى الحصول على ممرضة .

ــ لأجل من ؟ أبعد الله الشر ؟

ــ لأجل زوجة ابنى .

ــ أما زالت مريضة ؟

ــ إنها توشك أن تضع .

وكان قوله آخر ما كانت تتوقع .

تضع ؟! لماذا ؟.. لماذا تضع ؟ وكيف ؟. إنها تذكر أنه قال لها إنه ما من سبيل له إلى الأبناء .. وأن امرأته لن تضع .. لأنها أجهضت فى أول حمل لها ، وقد قرر الأطباء أنها لو حملت بعد ذلك فستعرّض حياتها للخطر .

كان ذلك من أسباب تنغيص حياته .. فلشد ما كان يتوق إلى الأبناء ، ولقد أمضى حياته بلا أبناء .. فلم يكد يذهب حتى قرر القدر أن يرزقه بهم .

و لم تملك إلا أن ترفع حاجبيها فى دهش وتقول لنفسها « برافو أيها القدر » .

ثم أخذت تردد للرجل قوله فى ذهول :

ــ إنها توشك أن تضع ؟

ــ أجل .. لم يبق سوى بضعة أيام ، وحالتها تزداد سوءاً يوماً بعد يوم .

ــ ولكنى أعلم أن الأطباء أمروا ألا تحمل .. خشية على حياتها ؟

ــ لقد أمضت عشر سنوات بلا حمل ، وقبل الحادثة ببضعة أيام .. تركت

نفسها تحمل .

وران الصمت برهة وعاد الرجل يتساءل :

ـــ أأستطيع أن أجد ممرضة جيدة ؟ إننى وحدى معها فى البيت .. وليس معنا سوى خادمة وطاه ، ولا بد أن يعتنى بها إنسان يعتمد عليه .. ولا شك أنك تعرفين الممرضات هنا جيداً ، وتستطيعين أن تدلينى على واحدة .

وفجأة .. أجابت .

ـــ سأذهب أنا معك .

قالتها بلا سابق إنذار .. لا له .. ولا لها .. لقد فاجأته بقولها .. كما فاجأت به نفسها .

وحملق فيها الرجل وتساءل فى عجب :

ـــ أنت !.. تذهبين معى ؟. أنت تقومين بتمريضها ؟

وفى إصرار وحزم أجابت :

ـــ أجل .. سأذهب .. إذا لم يكن لديك مانع .

ـــ مانع !! أبداً .. أبداً .. أيمكن أن أصطحبك معى الآن ؟

ـــ انتظرنى برهة حتى أعد نفسى .

وتركت الرجل وسارت فى عجلة لتستبدل ملابسها .

وانطلق ذهنها يصيح بها :

ـــ قفى .. أيتها الحمقاء .. ماذا تفعلين ؟. وإلى أين أنت ذاهبة ؟ علام تذهبين من دون سائر الممرضات ؟ و لم تزجين بنفسك مرة أخرى فى معمعة قد تخلصت منها نهائياً ؟ مالك ولزوجته وأبيه وبيته ؟ اقبعى فى مقرك .. وكفى اندفاعاً !! اهدئى فى حياتك الرتيبة الراضية .. أعينى نفسك على البرء والنسيان !؟

أية مخلوقة أنت ؟ إن الرجل لم يسألك الذهاب ، ولكنه سألك أن ترشديه إلى ممرضة .. فلمَ زججت بنفسك فى الموضوع .. إن هذا آخر ما كان يجب أن تفعليه ؟

تمرضين زوجته ؟.. وتتلقين ابنه ؟.. وتنامين فى بيته ؟ وربما على فراشه ؟.

استريحى يا بنية !. استريحى !. وكفاك ما لقيت من انفعال وعناء .. أرسلى أية ممرضة أخرى .. أية مخلوقة على ظهر الأرض سواك .. ستكون أصلح منك .. فلن تحس بأى إحساس لما حولها .. ولكن أنت ؟.. تتجوّلين فى بيته وتعيشين مع زوجته .. هذا جنون !

كونى عاقلة .. ارجعى إلى الرجل .. وقولى له .. إنك وجدت ممرضة جيدة ستذهب معه .. أجل ! أجل ! اذهبى إلى إحدى الممرضات وكلفيها بالذهاب معه .

وهكذا ظل الذهن يهتف بها ملحاً مقنعاً ، وظلت هى فى الوقت نفسه تواصل ارتداء ملابسها ، وإعداد نفسها ، وكأن صيحات الذهن ليست لها .

إنها مخلوقة عنيدة .. لا ترجع عن غيها .. ولو لم تكن كذلك .. لما صارت إلى ما هى فيه الآن .

وبعد لحظات كانت تهبط الدرج معه .. ثم استقرت فى العربة بجواره .

إنها نفس العربة ، ونفس الجلسة التى كانت تجلسها فيما مضى .. لا فارق بين أمس واليوم .. إلا أنها استبدلت بالابن الأب .. أجل لا فارق بين الجالس أمس والجالس اليوم .. إلا جيل واحد .

وأخذت الدور تمر عليها بسرعة ، وهى جالسة فى العربة ، مرت غمرة ثم السكاكينى وشارع الملك والعباسية ، ودلفت العربة فى طريق الخليفة المأمون .. عابرة مزلقان العباسية . ثم سارت بجوار ثكنات الجيش حتى منشية البكرى .. ثم اتجهت يساراً فى أحد الشوارع الجانبية ، وبعد دورة أو دورتين وقفت العربة أمام فيلا بادية الفخامة .

ونزل من العربة وتبعته إلى الداخل عابرة الحديقة الأنيقة الوارفة الظلال ، ودق الجرس ، ثم وقفا برهة أمام الباب الداخلى .. حتى فتح الباب خادم صغير ، وتنحى عن الباب مفسحاً الطريق للداخلين .

وأحست بأنفاسها تتلاحق وبقلبها يخفق بشدة ، وقبل أن تخطو إلى الأمام مجتازة الباب .. تمنت لو استطاعت أن تنكص على أعقابها وتفر هاربة من حيث أتت .

لقد أصابها إحساس المقدم على خطر لا يعرف كنهه أو مبلغه ، فهو يظل مندفعاً إليه غير هياب .. حتى إذا ما لاح الخطر وصادفه وجهاً لوجه .. خارت عزيمته .. وخذلته قواه .

هذا هو ما أصابها ، وهى تخطو الخطوة الأولى إلى الباب .

لقد أحست بمبلغ حمقها وجنونها ، وخيل إليها أن الكل سيمسكون بتلابيبها ثم يقذفونها خارج الدار .

أجل !.. إنهم سيعرفونها .. سيقولون .. هذه هى حبيبته .. هذه هى التى كانت تريد أن تنتزعه من زوجته ومن بيته .

لقد تملكها إحساس عجيب بالخطيئة ، وكأنها توشك أن تزج بنفسها إلى القصاص .

ومع ذلك لم تملك إلا أن تسير وراء الرجل فتجتاز الممر القصير إلى الردهة .. ثم تقف مترددة برهة وهى تراه قد صعد درجاً خشبياً مفضياً إلى الدور العلوى .

ولاحظ ترددها فناداها فى أدب :

ــ تفضلى اصعدى .. إنها راقدة فى الدور العلوى .

ما كان عليها من هذا كله !؟ أما كان خير لها أن تقبع آمنة فى المستشفى بين مرضاها المجهولين ؟

وصعدت السلم .. ووصلت إلى القاعة العلوية ، فوجدت خادمة عجوزاً فى انتظارهما ، وقال الرجل للخادم الصغير وقد وجدها ما زالت تحمل حقيبة التمريض :

ــ خذ الحقيبة من الهانم .

الهانم ؟! لا .. لا .. يجب أن يكون الرجل أكثر حرصاً .. إنها ليست بهانم ..

إنها مجرد ممرضة .

ومد الخادم يده فتناول الحقيبة ووضعها على منضدة وسط القاعة ، وسأل الرجل الخادمة العجوز :

ــ كيف حال سيدتك ؟

ــ كما هى .. لقد نامت نصف ساعة .. ثم استيقظت ثانية ..

ــ أهى الآن يقظى ؟

ــ أجل .

ووجه الحديث إليها قائلا :

ــ تعالى .. تفضلى .. هذه هى حجرتها .

ومرة أخرى أصابها نفس الخور والانهيار الذى أصابها عندما همت باجتياز باب البيت ، ولكن هذه المرة كان أشد .. حتى لقد همت بأن تقول صارخة :

« لا .. لا .. أعيدونى . ارحمونى . لا أريد أن أراها.إننا غريمتان .. طالما كرهتها ، وحقدت عليها ، وتمنيت لها الموت .. طالما تخيلتها جالسة فوق ساقيه ، أو راقدة بين أحضانه ، كان ذكرها يقتلنى قتلا . كلا .. كلا . لن أدخل إليها ، ولن أمرضها.ابحثوا لها عن ممرضة أخرى واتركونى أعد .. أطلقوا سراحى .. لقد تبت إلى الله .. ما عدت أفكر فى مثل هذا الحمق مرة أخرى » .

كان الهاتف يصيح بها فى داخلها ، وكانت قدماها تعبران الغرفة كأنها منساقة بدافع داخلى ، لا قبل لها على وقفه أو مقاومته .

وأخيراً وقفت فى الغرفة .. غرفة غريمتها .. أو غرفة حبيبها .

وكان أول ما صدمها ، صورة مكبرة له بالألوان ، نفس الصورة التى أعطاها لها مصغرة والتى مازالت محتفظة بها مع خطاباته وأوراقه ، وهداياه .. ذخيرة العمر ، وزاد الحياة . أجل إنها نفس الصورة التى لا يغمض لها جفن كل ليلة إلا عليها ، ولا يستقر لها بدن حتى تضمها بيدها وتضعها على شفتيها .

ويبدو أنها حملقت فى الصورة أكثر مما يجب ، حتى إنها لم تبصر المريضة ،

وحتى اضطر الأب أن يلفت نظرها بقيامه بواجب التعريف بين المرأتين مرفقاً اسميهما بكلمة هانم .

أما زال يصر على أنها هانم ؟.. يجب أن تلفت نظره إلى ذلك ، كما يجب أيضاً أن تحذره من أن يفصح ـــ دون أن يقصد ـــ عن حقيقتها وعن أصلها .

ورحبت المريضة بها بصوت رقيق عطوف خافت قائلة وهى تبتسم ابتسامة باهتة :

ـــ أهلا وسهلا .

إذاً فهذه هى غريمتها ، والتى طالما أقضت مضجعها .

ولكنها ليست كما كانت تتصور ، ليست كما تعوّدت أن ترسمها فى ذهنها .. إنها توحى بالمحبة والسلام والسكينة والهدوء .

إن الإنسان ـــ كائناً من كان ـــ لا يملك إلا أن يحبها ، فقد كانت تفيض من وجهها الطيبة والرقة .

ما أعجب هذا الزمن !

أكان يخطر ببالها يوماً ما وهى تتقلب على الفراش مسهدة متخيلة حبيبها بين أحضان زوجته ، أنها ستقف أمامها يوماً وجهاً لوجه ، وتشعر لها بالعطف والحنان ؟

أكان يخطر لها ببال وهى التى كانت ـــ عندما يتملكها شيطان الغيرة ـــ تتمنى لها الموت ؟.. أكان يخطر لها ببال أنها ستتمنى لها البقاء .. وستبذل كل ما فى وسعها لإنقاذ حياتها ؟

كانت تحس فى قرارة نفسها أنها ستقدم على عملها ذاك وهى أشد ما تكون رضا وغبطة .

ومدت يدها فأمسكت بيد المريضة وضغطت عليها برفق وهتفت فى إخلاص وحرارة :

ـــ إن شاء الله تقومين بالسلامة .

وتم التعارف بينها وبين غريمتها .. تعارف رقيق ودود ما كانت تتخيله قط .
وران الصمت برهة .. ووقفت تنظر إليها .
وقالت المريضة للأب :
ــ دعها .. ترى حجرتها .. وتغير ملابسها .. وتستريح .
عجباً لهذه المرأة !!.. إنها أبداً .. تبحث عن راحة غيرها !
وعلا صوتها الضعيف ، تنادى الخادمة قائلة :
ــ أعدى الفراش فى الحجرة التى بجوار السلم ، وضعى المنضدة .
ولكنها قاطعتها برفق قائلة :
ــ لا داعى أن ترهقى نفسك بشىء .. سأذهب أنا وأتولى كل شىء ..
استريحى الآن .. وسأعود إليك بعد برهة .

ساكنة الدمن

١٥

وهكذا استقبلت في بيته . استقبالا طيباً بدد كل مخاوفها ، وملأها شجاعة ورغبة وإخلاصاً .

وذهبت إلى الحجرة التي قادتها إليها الخادمة .. كانت حجرة صغيرة نظيفة أنيقة مرتبة .. ذات فراش ودولاب ومنضدة وبدت كأنها معدة دائماً لاستقبال أي ضيف .

كانت الحجرة غربية بحرية تطل على الحديقة ، وكانت تواجهها حجرة بدا من بابها المفتوح نصف فتحة أنها حجرة مكتب .. حجرته هو التي كان يجلس للكتابة فيها .

وجلست على الفراش وانطلقت منها تنهيدة طويلة .

لشد ما كانت تحس بالراحة والطمأنينة ،والعزاء.. إنها هنا في بيته ، وكل شيء يقع عليه بصرها قد وقع عليه بصره من قبل ، وكل شيء تمسه يدها قد مسته يده .

تطلعت ببصرها من باب الشرفة المطلة على الحديقة ، فوجدت الشمس تنساب وراء الأفق .. لم تكن تبدو كالشمس ، ولم تكن أشعتها تذهب بالبصر .. بل كانت قرصاً أحمر قانياً ، كأنه قرص جمر ، وكان يفيض من حمرته الصافية على كل ما حوله ، على قمم البيوت ، وعلى رءوس الشجر وأطراف الأعمدة المتناثرة على بعد .

وعادت تذكر خلوتهما معاً ، يرقبان القرص الهاوي ، وتذكرت قوله :

« اذكري هذا المنظر واذكريني .. اذكريه جيداً ، فسأستوعبه في رأسي حتى أذكرك كلما رأيته » .

إنها تذكره جيداً ، تذكره كلما رأت شمساً غاربة ، أو نجماً هاوياً .. فما أشبهه به شكلا وموضوعاً .

وأخرجها من شرودها طرق خفيف على الباب ودخل الخادم يسألها :

ـ ماذا ترغبين فى العشاء ؟

ـ أى شىء .. أنا لم أتعود إلا عشاء خفيفاً ، ومازال الوقت مبكراً .

ـ إنى أسأل حتى نستطيع إعداده .. إذا كنت تريدين شيئاً معيناً ؟

ـ شكراً .

ـ أتريدين الآن الشاى ؟

ـ لا أريد شيئاً .. لا تزعجوا أنفسكم من أجلى .

ـ إن السيدة أمرتنا بأن نعد لك كل ما تطلبين .

ـ شكراً للسيدة .. ولكم جميعاً .. شكراً لله أن منحنى بضعة أيام فى داره وفى مقره .

وبدأت حياتها فى دار الحبيب الراحل ، وتمريضها لزوجته الراقدة .. وهى قريرة النفس ملء قلبها العزاء والسكينة .

وأحبت هى المريضة ، وأحبتها المريضة .

تحابت الغريمتان حباً خالصاً فى بضعة أيام .

لم يكن عجيباً أن تحبها الزوجة وتأنس إليها ، وقد وجدت منها تفانياً فى خدمتها وسهراً على راحتها ورقة فى جلستها ، وجمالا فى خلقها وتكوينها ، ولطفاً فى عشرتها ، ولم يكن عجيباً أيضاً أن تحب هى الزوجة .. الطيبة الودود ، المسالمة الأمينة التى تأبى إلا أن تعاملها كأخت .. لا كممرضة مأجورة .

كانت قريرة النفس .. لإحساسها أنها تخدمه هو .. بطريقة غير مباشرة .. إنها تخدم شيئاً متعلقاً به .. إنها تخدم ابنه الذى يوشك أن يرى النور والذى طالما تاق هو إلى رؤيته .

وكانت تمر بها أوقات يستبد بها الحنين ويهفو بها الشوق .. كانت أوقاتا عسيرة أشبه بالأزمات .

عندما تجلس فى حجرة المريضة فى الليل ، والسكون سائد ، والصمت مخيم

إلا من أنفاس المريضة النائمة تتلاحق فى هدوء ، ويطوف بصرها فى أنحاء الحجرة باحثاً منقباً حتى يستقر على الفراش الخالى بجوار المريضة .

هنا كان يرقد .. كم تخيلت فراشه فى أرقها ، وكم تخيلت الحجرة بأكملها .. كانت تسأله كيف ينام ، وكان ينبئها ضاحكا :

ـــ كبقية خلق الله .

ـــ أتنام على ظهرك أم على جنبك ؟

ـــ أبدأ بالنوم على جانبى الأيمن واضعاً ذراعى اليمنى تحت الوسادة وذراعى اليسرى مثنية من المرفق فوق رأسى هكذا أبداً ، ولست أدرى على أية صورة مضحكة ينتهى بى الوضع إذا ما استغرقت فى النوم ، على أية حال أنا لا استريح إلا على جانبى الأيمن .

كانت دائماً تتخيله فى نومته ، وكانت لا تنام إلا على جانبها الأيسر كأنها تواجهه ، وقد وضعت إحدى الوسائد بين أحضانها كأنها تشاركه الفراش .. كانت سعيدة بالتخيل وكانت لا تفتأ تحدث الوسادة وتناجيها ، وعندما قبل يدها أول مرة .. كانت تنظر إلى يدها وتقبلها فى حسد ثم تمس موضع قبلته بشفتيها وتهمس ليدها قائلة :

ـــ أنت يد محظوظة لأنه قبلك .. سأظل دائماً أعتز بك .

كانت تطوف برأسها كل هذه الذكريات ، وهى تجلس صامتة فى بهمة الليل ترقب الفراش الخالى ، ويعودها الشوق فترفع يدها وتمسها بشفتيها كما مستها فى زمن خلا .

وينتقل بصرها من الفراش إلى الشرفة . هذه هى الشرفة التى كانت تنتظره فيها زوجته حتى يعود .

كانت قتذاك تحسدها على انتظارها له وقلقها من أجله وكانت تقف هى فى شرفتها متوهمة أنها تنتظره .. متوقعة قدومه فى كل وقع خطوات تسمعها فى الطريق .

كانت مجنونة .

كانت ؟! بل إنها مازالت .. وستبقى مجنونة به ، حتى الرمق الأخير .

وينتقل بصرها من الشرفة إلى المشجب إلى الدولاب إلى التسريحة .. فتتخيله فى كل وضع له فى الحجرة .. ينشف رأسه بالمنشفة ، أو يعلق بدلته فى الدولاب ، أو يمشط شعره أمام المرآة .

وأخيراً يستقر بصرها على صورته .. وتهتف باسمه كما تعوّدت ان تهتف ، ولكن فى صوت خافت خشية أن توقظ النائمة .. أو خشية أن يضبطها أحد متلبسة بجريمة الهتاف باسمه .

ألا تعتبر جريمة ؟!

ماذا إذاً يمكن أن يعتبر ما يجول برأسها .. وما يستعر فى قلبها ؟

يارب حمدك أن طويت الصدور على خباياها وأطبقت الرءوس على أفكارها وخفاياها .

يارب حمدك أن تركت للبشر حرية الشعور والتفكير .. تلك هى الحرية التى لا يستطيع أن يسلبها إياها مخلوق .

* * *

عندما كان يرهقها الجهد ويضنيها السهر .. كانت تأوى إلى فراشها فترقد عليه مستسلمة مسترخية .

كانت تحب حجرتها ، إذ كانت تحس فيها بهدوء وطمأنينة وكان يمتعها أن تجلس فى المقعد الكبير المواجه للحجرة المقابلة حجرة مكتبه .

كانت تبصر من مكانها طرف المكتب ، وقد وضع مائلا فى إحدى زوايا الحجرة ، وكانت تبصر رف الكتب فى مواجهتها ، وزهرية على منضدة صغيرة بها زهور ذاوية .

لم تكن تجرؤ على دخولها .. بل لم تكن تجرؤ على التحرك فى البيت إلا فيما بين حجرتها وحجرة المريضة .. حتى سألها الأب أن تناوله قرصين من الأسبرين ،

وأمسكت بالزجاجة الموضوعة فوق المنضدة التى فى القاعة لتخرج له قرصاً فوجدتها فارغة .

وببساطة قال لها :

— أظن أنه كانت توجد زجاجة أخرى .. فى درج المكتب الأوسط .. لقد تعوّد أن يحتفظ بها .. إذ كان كثيراً ما يصاب بالصداع .

وترددت برهة .. لقد كان قوله بمثابة أمر بأن تذهب لإحضار الزجاجة ، وكانت تتهيب دخول الحجرة ، ولكنها كانت أيضاً لا تجرؤ أن تقول ذلك .. فلم تملك إلا أن تتجه إلى الحجرة متحركة فى تثاقل ، ودفعت الباب الذى كان مغلقاً نصف إغلاقة واتجهت إلى المكتب وفتحت الدرج الأوسط فلمحت بعض صور له ، وأوراقاً بخطه متناثرة فى الدرج ، وتمنت لو تستطيع البقاء فى الحجرة برهة ، ولكنها لم تجرؤ .. فتناولت الزجاجة وعادت بها إلى الرجل .

وكانت الحجرة قد علتها الأتربة ، وبدت كأن لم تمتد إليها يد التنظيف منذ أن رحل صاحبها .

وسألت الخادمة ذات مرة :

— لِمَ لا تنظفون حجرة المكتب ، وترفعون الزهور الذابلة من الزهرية ؟

— لقد أمرتنا سيدتى ألا نقربها .. إنها كانت دائماً تنظفها بيدها .. لأنها كانت تخشى أن نعبث بأوراقه أو كتبه أو لا نضع شيئاً فى موضعه فتسبب له ضيقاً وإزعاجاً . أما الزهور .. فقد قالت إنه هو الذى نسقها آخر مرة ولا تريد أن تزيلها من موضعها .

وتعوّدت بعد ذلك أن تتسلل بين وقت وآخر فتجلس فى حجرته ساكنة سامتة .. مجرد جلوس .. دون أن تحاول أو تفتح درجاً .. أو تعبث بورقة .. كانت تتوق لأن تقرأ كل كلمة مكتوبة فى هذه الحجرة .. ولكنها لم تجرؤ مع ذلك على أن تمس ورقة واحدة .

ويوماً بعد يوم أخذ تهيبها من الدار يزول .. وبدأت ترتاد . الحديقة بين آونة

وأخرى ، وتنتقل فى الدار كأنها دارها واطمأنت إلى كل شىء .. عدا شيئاً واحداً .. هى الخادم العجوز .. التى كانت دائمة التقطيب والعبوس .. تنظر إليها فى ريبة وشك .. كأنها توجس منها خيفة .

ولكن حتى هذه .. ما لبثت حتى أقبلت عليها فى ثقة واطمئنان .. بعد أن ثبت لها فرط إخلاصها لسيدتها .

وأخذ موعد الولادة يقترب .. وكلما اقترب الموعد ازدادت الأعصاب توتراً .. والنفوس قلقاً .. والقلوب رجفة ورعباً .

كانت حالة المريضة لا تنبئ بخير .. وعندما زارها الطبيب آخر مرة .. غادر غرفتها وهو يحاول جهده أن يخفى قلقه ، وعندما شرع يهبط الدرج سمعته يتمتم :

ــ ربنا يسلم .

ثم التفت إليها وهز رأسه فى ضيق وقال لها :

ــ كنت أعرف هذا من قبل .. لقد توقعت كل ما حدث .. وحذرتها من الحمل .. وأوضحت لها مدى خطورته على حياتها .. وقلت لها إن حياتها فى ناحية .. والحمل فى ناحية أخرى .

وأحست بالمرارة تملأ نفسها ، ولم تملك إلا أن تجيبه :

ــ ربنا يسلم .. ليس أمامنا من ملجأ غيره .

وعادت إليها بنفس مهمومة .. بعد أن ودعت الطبيب على الباب .

وجلست بجوارها على الفراش .. ونظرت إلى وجهها الشاحب وعينيها الغائرتين ، وقالت مطمئنة :

ــ الحالة جيدة بإذن الله ، وستكون الولادة طبيعية .

وضحكت المريضة ضحكة صفراء ، وتمتمت قائلة :

ــ الحالة جيدة .. حالة من ؟.. حالتى أنا ؟ لا .. لا .. قولى شيئاً غير هذا .. إنى أدرى بنفسى منك .

ــ إنك بخير .

— بخير أو بشر .. إنى لا أرجو لنفسى شيئاً .. وأنا أحفظ جيداً ما سبق أن قاله الأطباء .. لقد حذرونى من الحمل ، وقالوا إنى سأقضى على حياتى لو حملت ، ومع ذلك فقد أقدمت على الحمل راضية ، وأنا أعرف كل عواقبه .

— أحقاً فعلت ذلك ؟

— أجل ! لقد أقدمت على الحمل برغمه .. بل دون أن يدرى .. ولقد مات وهو لا يعرف أنى حامل .. لقد حملت من أجله .. ومع ذلك فقد تركنى وذهب .. ومن يدرى ربما أذهب أنا .. وأترك الطفل ! عجيبة هذه الدنيا !. نحن نقدر .. وهى تقدر .. ويمحو تقديرها كل ما قدرنا .. ويجعل أمانينا فى واد .. والواقع فى واد آخر .. كنت أعلم دائماً أنه يحب الأطفال . وأنه يتمنى لو رزق ابناً أو ابنة ، ولم يكن يحز فى نفسى قدر أن أرانى عاجزة عن أن أهبه مطلبه .. المطلب الطبيعى الذى تهبه كل زوجة لزوجها .. إنه لم يحاول قط أن يظهر ضيقاً أو تبرما .. بل كان معى رقيقاً إلى أبعد حدود الرقة .. ما سألته شيئاً إلا وأجابه .. بل إنه لم يدع لى الفرصة أن أسأله شيئاً .. فقد وفر لى كل شىء .. كان حنوناً ودوداً .. مرحاً لطيفاً .. ما ذكرت أنه غضب علىّ .. أو لامنى أو عنفنى .. إنى لم أكن معصومة من الهنات البسيطة .. ولكنه كان دائماً كريماً متسامحاً .. ومع هذا — ورغم أنه لم يحاول الإفصاح — لم يغب عنى لحظة واحدة .. حنينه إلى الأطفال ولهفته عليهم .. ولكن كان يعلم ألا سبيل إليهم إلا على حساب حياتى .. كان واثقاً — بناء على تحذير الأطباء — أنى سأكون الثمن الذى يدفعه لأول ابن .. ولذلك لم يحاول قط أن يدعنى أحمل .. بل كان أشد منى تحرّزاً .. ومرت السنة تلو السنة وأنا أرانا وحيدين .. وأرانى مقصرة فى حقه .. هو يعطينى كل شىء ، وأنا لا أعطيه الشىء الوحيد الذى يجب أن أعطيه له .. وأخيراً بدا لى أن أقدم على المغامرة .. لقد بت أخشى عليه من الملل والسآمة .. بل بت أخشى على الرابطة بيننا أن تنفصم عراها .. وما قيمة حياتى بعد ذلك بدونه ؟.. وساءلت نفسى : أحقاً يصدق الأطباء فى أقوالهم ؟! أهم

يعرفون كل شيء ؟ أم أن هناك رباً علمه فوق علمهم ، وتقديره فوق تقديرهم ؟ أيكثر على الله أن يهبنى من لدنه رحمة ، ويهيىء لى من يأسى أملا ؟! ألا يجب أن نسلم أمرنا لله ، وهو يدبره !!

وبهذا الرجاء ، وبهذا الإيمان والأمل فى الله ، وبرغبتى القوية فى أن أنجب له ابناً ، وبقلقى على الرابطة التى تضمنا أقدمت على الحمل .. لقد كانت مقامرة .. اندفعت فيها قائلة : إما حياة هنيئة ، أو لا حياة .. إنى لا أستحق العيش إذا لم أنجب له ولداً .. أما إذا ذهبت .. وأنجبت له الابن ، فإن حياتى لن تذهب سدى بل سيكون لها ثمن .

هذه هى الاحتمالات التى افترضتها .. كانت كلها تملؤنى شجاعة وإقداماً ، ورغبة فى التضحية .

شيء واحد هو الذى لم يخطر لى ببال .

احتمال وحيد .. هو الذى أسقطته من حسابى فلم أدخله مع غيره من الاحتمالات .

أن يذهب هو .. ويتركنا .

كان هذا هو الشيء الذى لم أقدره .. وما كنت لأقدره أبداً .. فقد كنت من فرط حبى له .. أراه شيئاً خالداً باقياً ، لا يجسر الموت أن يمد له يداً .

كنت أود أن أفاجئه بالأمر .. ولكنه فأجانى قبل أن أفاجئه .. فاجأنى وذهب ..

لقد صرعتنى الصدمة .. ولكنى مخطئة .. يجب علىّ أن أتحمل .. يجب أن أثق فى الله .. وأن أومن بحكمته .. يجب أن أذكر قوله « الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون » .

الحمد لله على كل حال .. إنه هو الذى يملك المصاب . وهو الذى يملك العزاء .. أما نحن البشر .. فما حيلتنا سوى الخضوع لمشيئته .. وحمده على كل ما وهبنا .

* * *

عجيبة هذه المرأة !. ما كل هذا الإيمان والسكينة والطمأنينة ؟ وهى التى لو كفرت بالله وملائكته ورسله .. ما لامها لائم !؟

فيم كان الحمل .. وفيم كانت التضحية .. إذا كان المضحى من أجله قد تركها وولى ؟!

فيم كل هذا العناء ؟ وهى ترقد الآن بحملها فى جوفها ، وبحياتها فى مهب الريح .. وصاحب المطلب قد خذلها وفر :

ومع ذلك فهى تحمد الله .. علامَ ؟!! ماذا يمكن أن يفعل بها شر من هذا ؟

و لم تملك إلا أن تخفى مشاعرها الثائرة فى صدرها .. إذ كانت ترى واجبها هو أن تزيد سكينة المريضة .. لا أن تزيد لوعتها .

وأمسكت بيد المريضة المستسلمة الطيبة وربتت عليها برفق وقالت :

— ربنا يعوّضك بولدك خيراً .. إن شاء الله تقومين سالمة ، وتتمتعين به ، إن الله لا بد أن يكافئك على تضحيتك .

كانت تقولها قول المتمنى المخلص .. فقد أحست بحب شديد للمريضة .. كانت تجد أن مصابهما واحد .. وأنهما شريكتان فى ضربة القدر القاسية .. لقد كرهتها عندما كانت تشاركها المتعة .. وأحبتها وهى تشاركها الألم .. غارت منها وهى تزاحمها على الحى .. ورثت لها وهى تقاسمها الميت .

وفى الليلة التالية بدأت الولادة ، وكان الطبيب قد أعد نفسه لكل الاحتمالات .. وجهز أدوات العملية .. كان يعرف أن المسألة لن تمر بسلام ، وكان بودّه لو وضعتها من أول الأمر فى المستشفى .. ولكنه كان يعرف أن فى نقلها خطورة عليها .

بدأت الولادة .. ومن بدايتها أحست أنها بدأت تخوض المعركة الثانية ضد الموت .

مالها هى ولكل هذا ..لو لم تأت إلى هذه الدار ، لوقت نفسها كل هذا الأسى والألم.. إنها باتت تخشى على غريمتها السابقة أكثر مما تخشى على نفسها.. ولو بقيت

حيث كانت و لم تغامر بخدمتها لكانت تجلس الآن مستريحة هانئة .. بل إن نبأ وفاتها لو حدث .. لما أحدث فى نفسها أى تأثير ، بل من يدرى ؟ ربما كان قد سرّها وأطربها !

أما الآن فهى تخوض معمعة الموت وكأنها طرف فيها .

كانت تشعر أنها هى التى تقاوم الموت لا المريضة المستسلمة .

وبدأ الطلق ، وعلت بضع صرخات ضعيفة .. ما لبثت حتى خفتت ، وراحت المريضة فى إغماء ، واشتد شحوب وجهها .. لقد كانت فى حالة شديدة من الضعف .

وتشاور الطبيب برهة مع مساعده ، و لم يكن هناك بد من أجراء عملية ، وبدىء بإجراء العملية ، وكانت تحس بإرهاق شديد ، وكانت تتحرك هنا وهناك لتناول الطبيب أدواته .. وهى تحس أنها مغرقة فى ظلمة كثيفة .

وأخيراً أخرج الجنين .

حمداً لله .. هذه أولى بشائر الخير .. إن الجنين حى .

إنه بنت .. كان خيراً لو كان ولداً ، ولكن لا بأس بنت أو ابن .. كله خير .. المهم أن تنهض الأم سليمة .

وأخذ الطبيب يتمم العملية ، وقامت هى والممرضة الأخرى بتجفيف الطفلة ولفها .

وأخيراً انتهى الطبيب من عمله .. حمداً لله .. إن كل شىء على ما يرام .. إن المريضة شديدة الشحوب ، ولكن صدرها .. يعلو ويهبط بانتظام .

وخرج الطبيب ، ووقف الأب يتساءل فى لهفة :

ـــ كيف الحال يا دكتور ؟

ـــ الحمد لله .. بخير إن شاء الله .. ربنا يتم فضله ويسترها .

ـــ سليمة بإذن الله .. سليمة .

وجلس الطبيب يستريح برهة فى القاعة .. وبقيت فى غرفة المريضة .. كان

كل شيء يبشر بخير ، وكانت الساعة قد بلغت السادسة صباحاً ، وبدأ الطبيب يستعد للانصراف قائلاً .

ـــ سأعود بعد بضع ساعات ، وإذا حدث أى شيء فاتصلوا بى فى العيادة أو البيت . ولكن إن شاء الله لن يحدث شيء .

وقبل أن يرحل ، دخل الحجرة ليلقى نظرة أخيرة على المريضة .. نظر فى وجهها ، ثم أمسك بيدها يجس نبضها ، وبدا على وجهه القلق وهمس قائلا :

ـــ النبض ضعيف جداً .

وألقى على المريضة نظرة فاحصة ثم عاد يهمس فى قلق :

ـــ الظاهر أنه قد حدث نزيف .. أحضرى أسطوانة الأكسجين

وبدأ التنفس الصناعى .

كانت المريضة تفلت من أيديهم رويداً .. رويداً .كان الموت يذهب بها بعيداً بعيداً .

ولم يطل بهم الأمر ، حتى أعلنوا الاستسلام .

مرة أخرى .. انتصر الموت .

أبعد هذا سخرية ؟!

أبعد هذا يطلب من العبد حمد الله والإيمان به ؟

بل .. أبعد هذا يوجد شيء اسمه الله ؟ أيوجد رب مدبر منظم حكيم ؟

لا .. لا .. كل هذا عبث فى عبث ، إن ما حدث لا يمكن أن يكون من تدبير مدبر ، ولو كان من تدبير مدبر فلا مراء فى أن هذا المدبر ، يبغى السخرية والهزل ، هذا لا يمكن أن يكون تدبير جاد حكيم .

هذا هو الطفل .. المطلب العزيز ، والأمنية المستعصية قد باتت ملء اليد ، وما عاد مستعصياً ولا متعذراً .

فأين الطالب ؟ وأين المتمنى ؟

أين صاحب الأمنية .. يحملها بين يديه ، ويحمد عليها ربه ؟

أهذه أمنية ؟

أمنية تعسة يائسة ، يتيمة الأم والأب .. لا عائل لها ، سوى جد ، رجله — كما يقولون — والقبر .

أمنية لم تكن قادمة ، بل كان المفروض ألا تأتى ، لو لا مقامرة أمها ورغبتها فى التضحية ، وإرضاء زوجها .

كانت ككل أمنية مطلوبة .. لا تأتى ، فلما كف طالبها عن طلبها ، أتت ! سحقاً لها .. ما كان أغناها عن هذا كله ، لقد زجت بنفسها فى معركة خاسرة ، لم يكن نصيبها منها سوى التعاسة والحزن والدموع .

والآن خير لها أن تنسحب بهدوء ، وتعود إلى مقرها فى المستشفى .

إنهم لم يعودوا فى حاجة إليها ، وما كان بها من حاجة إلى شهود جنازة أخرى .. إنها منهارة تماماً ، وهى لا تكاد تقف على قدميها .

ووسط بكاء الخدم والعويل والصراخ .. تسللت إلى حجرتها وارتمت فى الفراش دافنة وجهها فى الوسادة كأنها جثة هامدة .

ومضت عليها فترة طويلة فى رقدتها ، والصراخ يطن فى أذنيها .. ثم أخذت تتحامل على نفسها وتناولت حقيبتها وسارت تجر ساقيها متسللة إلى الخارج .. كالهاربة .

و لم تكد تهبط بضع درجات حتى سمعت صوتاً يهتف باسمها .

وتوقفت .. لقد كان صوت الأب .. كان الله فى عونه وصبره على ما بلاه .. لشد ما قاسى الرجل ، ولكن ماذا يريد منها ؟ لعله ينوى أن ينقدها أجرها .. ليس هذا وقته .. ليس الآن .. إنها تريد أن تفر ، وأن تنأى بنفسها عن هذا المحيط المروع .

وتلفتت بإعياء .. فوجدت الرجل مقبلا عليها ، محطما مهدماً ، مقروح الجفن ، متثاقل الساقين .. وسألها فى صوت يائس :

— إلى أين ؟

ــ عائدة إلى المستشفى .. لم يعد هناك من حاجة إلىّ .

ــ عائدة إلى المستشفى ؟ وتتركينا وحدنا ؟!

تتركهم وحدهم » ، وما صفتها هى .. حتى لا تتركهم وحدهم ؟. إنها ممرضة مأجورة .. ليس لها من وضع بينهم سوى هذا .. إنها حقاً تشعر أن البيت بيتها ، ولكن هذا شعور فى قرارة نفسها .. لا يشاركها فيه أحد ، ولا يقره أحد ، ولا يعترف به أحد .

ولم تعرف بماذا تجيب ، ولكنها نطقت بضعة كلمات لمجرد الرد قائلة :

ــ أنا آسفة جداً ، وحزينة لما حدث .. البركة فيك .

وعاد الرجل يتساءل فى يأس :

ــ كيف تذهبين وتتركينا ؟

ــ لم يعد لى ما أعمله .

ــ والطفلة ؟

« الطفلة » ؟ كأنها هى التى وضعتها !! إنها تتمنى لو كرست حياتها من أجلها .. إذ تشعر أنها طفلتها هى . أليست ابنته ؟ ألم تكن تتمنى أن تكون أم أولاده ؟!

ولكن هذا مجرد تمنى .. إنها ليست أمها فعلا ، لا صفة رسمية لها ، ولا تستطيع أن تدعى عليها حقاً .

وعاد العجوز يتوسل :

ــ والطفلة من يتولى أمرها ؟ أرجوك ، امكثى معنا ، على « الأقل » حتى نتدبر أمرنا .. إنى خائر القوى .. لقد نفد جهدى ، وتحطمت قواى .. إنى لم أعد أصلح لشىء .. أريد من يتولى أمرى أنا .. لم يعد هناك فائدة ترتجى منى ، وليس لى من أحد أعتمد عليه .. لا أقارب ولا أصدقاء .. بعد أن ذهبا كلاهما وخلفانى وحدى .

وهى أيضاً ، خائرة القوى ، نافدة الجهد

ولكن أهى مثله لم تعد تصلح لشىء ؟! ألم يعد يرتجى منها فائدة ؟

ونظرت إلى الشيخ المتداعى المنهار ، وأحست بالندم يخزها .. كيف سوّلت لها نفسها العاجزة أن تفر هاربة ؟!

كيف سوّلت لها نفسها ، أن تترك أباه وابنته ؟!

وتساقط الدمع من عينيها وأحست بحنين شديد إلى الشيخ والطفلة ، إنهما أقرب الناس إليه ، وبالتالى أقرب الناس إليها ؟ كيف تخذلهما فى محنتهما ؟

أما زالت تتعلق بالأوضاع الرسمية والشكليات ؟! إن ثلاثتهم كل ما بقى منه !

لقد عجزت على أن تكون زوجته .. أيستطيع أحد أن يمنعها أن تكون أرملته ، وأن ترعى أباه وابنته ؟

لا . لا . هنا موضعها ، فى بيته وبين ابنته وأبيه ، إنها لم تكن زوجته شرعاً ، ولكن كانت زوجته روحاً ، وحساً ، ولو أنهم فى السماء يقدرون الأمور بحقيقتها لا بشكلها ، لاعتبروها لا محالة زوجته .

على أية حال . إنها باقية فى الدار .. باقية حتى يدبر الله أمرهم ، أو حتى لو لم يدبره .

لا بد لها أن تحتمل ، وأن تقاوم إعياءها وانهيارها ، وأن تتمالك وتتماسك وتتجلد ، وتضحى سيدة الموقف وربة البيت .

وهكذا استمدت من ضعفها شجاعة وكفكفت دمعها ، وأجابت الشيخ الذى ينتظر متوسلا :

ـــ سأبقى ، سأبقى حتى تقول لى .. اذهبى .. لم نعد فى حاجة إليك .

ـــ لن تذهبى أبداً ، أنت ابنتى والطفلة ابنتك ، ويجب أن تتولى أمرنا .

* * *

وكما يمر كل شىء مرت إجراءات الموت من جنازة ودفن وعزاء .

وكما تهدأ كل عاصفة ، هدأت هذه العاصفة ، وساد الدار سكون عميق أشبه بسكون ما بعد العاصفة

كانت الحوادث تمر بها تباعاً . وكانت تجد نفسها تعمل بطريقة آلية ، لا دخل للذهن فيها ، كانت تكلم هذا وتحدث ذاك .. كانت تأمر وتجيب ، بلا إدراك ولا وعى .. أو بوعى باطنى لا سيطرة لها عليه ، حتى انتهى كل شىء ، واستقرت مرة أخرى ، تفكر فى أمرها ، وتستعيد لذهنها كل ما مر بها .

أين هى الآن ؟!

عجباً !! عجباً !! أبعد هذا يمكن أن يكون عجب !؟

إنها تقطن فى داره ، وحدها ، لا شريكة لها فيها .. إنها ربة بيته ، أم ابنته ، وراعية أبيه .

كل ما له أضحى لها .. من ابنته إلى أبيه .. إلى كتبه إلى فراشه .. إلى .. إلى .. إلى كل شىء .

إنها تملك كل شىء له ، إلا هو .

وما قيمة كل هذا دونه ؟!

ما أشبهها بقاطنة الأطلال الخربة ، والدمن العافية !

إنها تجلس الآن فى داره .. إن كل شىء يبدو كما تركه ، لم يصبه الخراب و لم تمتد إليه يد البلى ، وبالمكان أحياء يتحركون ، وأصوات تسمع ، ومع ذلك ، فهى لا تحس أثراً لتلك الحياة فى نفسها .. إن المكان قد فقد روحه ، وبغير الروح ، لا يبقى سوى الأطلال ، ولو بقى هو فى قفرة جرداء لملأها حياة ، ولكانت لها خيراً من كل هذه الدمن المحيطة بها .

إنها فقدت الروح ، وبقيت لها الأطلال .. أما هى .. الزوجة الراحلة .. فقد لحقت بروحه ، وتركت لها الرماد الخامد والأنقاض الخاوية .

ويحها !. إنها دائماً الرابحة ، فى الحياة ، وفى الممات.أما كان خيراً .. لو أنها هى التى ماتت ؟!

ولكنها لا تملك أن تموت .. إن عليها أن تبقى لتعاود سيرتها فى حمل الأعباء .. أعباء أحزانها ، وحرمانها ، ويأسها . عليها أن تبقى لتقوم بواجبها فى رعاية أبيه وابنته .

ولكن أهذا شيء يستدعى منها الحزن ؟!

أليست الأطلال خيراً من القفرة الجرداء ؟ ألا يقيها الطلل من هجير الوحدة وقر الفراغ ؟ أليس شيء خيراً من لا شيء ؟! ألا تشعر بعزاء جميل ، وهى تجد نفسها قد استقرت فى داره ، ولتجد نفسها تتلقى الأعباء التى كان يمكن أن يتلقاها لو بقى هو حياً ؟

أى شيء يمكن أن تطمع فيه أكثر من أن تتولى أمر ابنته ، وتجعلها ابنتها ؟!

أهناك عزاء لنفسها أجمل من هذا ؟!

وأى شيء يسعدها أكثر من أن تقدم يد المعونة إلى أبيه وأحب الناس إليه ؟! ألا يسعدها أن تخفف لوعته ، وتذهب شجنه ؟

* * *

ومرت بها الأيام .. يوماً بعد يوم ، وفى كل يوم تزداد طمأنينة واستقراراً .. حتى أضحت تحس كأنها تحيا فى بيتها الذى ولدت فيه وقضت بين جدرانه عمرها .

وبدأت تحس بنوع عجيب من المتعة الهادئة .. وهى تضم الطفلة إلى صدرها وتلقمها زجاجة اللبن .. وتجلس فى الشرفة بجوار الجد المتكئ فى سكينة على إحدى الأرائك ، والشمس القانية الحمراء تهوى فى الأفق .. وكأنها تبصر فى قرصها وجهه يبتسم فى رضاء وحبور .. ويكاد يهمس بها : « هذه ابنتنا » !

أجل ! إنها ابنتهما .. إن حقها فيها أكثر من حق أمها ، لقد حملتها أمها تسعة أشهر .. وهى ستحملها وحدها العمر كله .

ولقد رقدت بضعة الأيام الأولى على الفراش الصغير فى الحجرة الصغيرة .. إذ كانت تحس برهبة شديدة من استعمال الحجرة الكبيرة .. ومن الرقاد على الفراش الذى كانا يرقدان فيه .

ولكن الأيام محت الرهبة .. ولم تجد هناك ما يمنعها من استعمالها بعد أن ألح عليها الأب بقوله :

ــ إذا كنت مصرّة على ترك الحجرة خالية .. فخير لنا أن نغلق البيت وننصرف عنه .

وهكذا احتلت الغرفة ورقدت على نفس الفراش . وفى أحضانه .. ليس هو بالذات ، ولكن جزء منه .. ابنته .

وفتحت حجرة المكتب وأزالت الغبار عنها وأعادت ترتيبها وتنظيفها ، وأعادت ملء الزهرية بالزهور ، وحاولت جهدها أن تبعث الحياة بين الأطلال ، أو على الأقل ، تضفى على الأطلال بعض الرونق والبهاء .

وسارت الحياة بالثلاث .. هى والابنة والأب ، وئيدة مترفقة هادئة ، ليس بها ما ينغص ولا ما يسيء .. وكان دخل الأب من ممتلكاته وعقاراته كفيلا بأن يهيىء لهم كل مطلب ويجعلهم فى رغد من العيش .

* * *

وكفت الأم عن الحديث وران على المكان سكون عميق .

وأحست « سامية » بأطرافها تتراخى ... وأعصابها تفتر .. لقد أنهكها طول الاستماع .. ولم تشعر إلا وهى تعلق بقولها :

ــ خاتمة عجيبة ! لقصة عجيبة ! أهذه الأشياء تحدث فى حياتنا هذه ؟ إن تلك المرأة وذلك الحب لا يمكن أن يوجد على ظهر الأرض .. إنها لا شك مجرد قصة .

ولم تنبس الأم ببنت شفة .. ومدت يدها فى الظلمة فتحسست رأس ابنتها وضمتها إلى صدرها برفق .

وكانت القصة قد استرعت كل اهتمام الفتاة واستحوذت على كل تفكيرها .. حتى كادت تنسيها مسألتها الأصلية .

ولكن لم تكد تمضى برهة مستندة إلى صدر أمها حتى عاد السؤال يلح عليها ، وصاحت بأمها فجاة :

ــ ولكنك يا أماه .. لم تجيبى بعد ، على ما سألتك عنه .. لم تنبئينى بعد

بحقيقة ما أقض مضجعى

وصمتت الأم ، ولم تجب فى أول الأمر ، ورفعت الفتاة رأسها إليها متوسلة بقولها :

— أريحينى يا أماه .. قولى أى شىء !.. إنى لن أقتل نفسى .. أهو ابنك حقاً ؟

وأخيراً جداً .. وببساطة عجيبة أجابت الأم :

— نعم !

وندت عن الفتاة صرخة دهش وعادت تردد فى ذهول :

— نعم !

وأحست بأنها تنهار تماماً ، ولم تستطع المقاومة فاندفعت تنشج فى بكاء عنيف دافنة رأسها فى صدر أمها .

وهتفت بها الأم :

— كفى عن البكاء .. فليس هناك ما يدعو إليه .. إنه ابنى .. وليس ابنى .. وأنتى ابنتى ولست ابنتى .. إن هذه المرأة التى تقولين عنها لا يمكن أن توجد على ظهر الأرض هى أنا .. أنا تلك المخلوقة العجيبة الشاذة .. التى أفنت عمرها بين الأطلال ، والتى ترملت دون أن تتزوج ، والتى أنجبت ابنة دون أن تحمل أو تلد .. لقد واصلنا الحياة سوياً .. أنا وأنت وجدك .. حتى حانت منية جدك بعد عام أو بعض عام ، وبقينا فى الحياة وحيدتين أنا وأنت .

بقينا وحدنا فى الدار الطويلة العريضة ، وبقى لنا من الدخل ما أعاننا على الحياة ، وما أعاننى على تربيتك تربية مثلى .. ولقد تركنا الدار ، فما كان بنا من حاجة إلى تلك الحجرات الفسيحة .. ومكثنا فى هذه الفيلا الصغيرة .. وانقطعت كل صلة لى عن بقية الناس .. لا أزور ولا أزار ، حتى صاحبتى لم أعد أراها بعد أن تزوجت .. وانشغلت ببيتها وأولادها .

كنت أنت هدفى فى الحياة وكانت سعادتك هى بغيتى ومطلبى .. وكنت أنت عوضى عن كل شىء .. عوضى عن الأهل القساة ، والحياة المضطربة

المنهكة ! عوضى عن أبيك الحبيب الراحل ، وجدك الطيب الحنون .. عوضى عن أمك الطيبة التى عاشت غريمتى ، وماتت وهى أعز الناس لدىّ .

لقد كرست حياتى من أجلك .. ولأول مرة شعرت أن القدر كافأنى وأن جهدى لم يذهب سدى .

إنى لم أر ابنى الحقيقى منذ تركته ، فلقد تعاونت ظروف أبيه وقسوته على حرمانى منه .. كان دائما مع أبيه خارج القطر ، أو يبدو لى أن أباه قد قصد ذلك ، وأنه لم يرغب فى البقاء فى مصر بعد أن هجرته ، أو بعد أن طردنى ، واستمر ممعناً فى السفر

ولست أظننى أشعر بشوق كبير إلى رؤيته .. ولا بحنين إلى لقائه .

الدم يحن .. هراء .. ذلك الذى يقولون عن الدم الذى يحن .. إنها مسألة عشرة لا أكثر ولا أقل .. إننى لم ألدك .. ومع ذلك لا أطيق عن فرقتك صبراً .. وإنى ولدته ، ومع ذلك فإنى واثقة أننا لو التقينا و لم أعرف أنه ابنى و لم يعرف أنى أمه .. لمرّ أحدنا بالآخر مرّ الكرام .

إنى إذا أحببته الآن .. فسأحبه كزوج ابنتى .

وأحست « سامية » بسعادة عجيبة ، وهى تسمع أمها تدعوه بزوج ابنتى .

إن المسألة إذاً تعتبر منتهية .

ولكنها ما لبثت حتى تجهم وجهها .. وداخلها خاطر أوجست منه خيفة ، وملأها بالوساوس والشكوك .

ماذا يقول أبوه إذا علم بأمها ؟. أما زال يكرهها ؟ لقد رفض فيما مضى عودتها ، وحرّم عليها رؤية ابنها .. أيقبل بعد هذا أن يزوّجه ابنتها ؟

واتخذ السؤال طريقه إلى شفتيها متردداً حائراً .. وأخيراً لفظت به متسائلة :

ــــ ولكن يا أماه . أترين أباه سيقبل أن يزوجه لى ؟

وقالت الأم فى حدة :

ــــ يقبل؟ طبعاً يقبل .. أهناك خير منك على ظهر الأرض .. إن أباك خير

منه .. وأنت مثل للزوجة .

ــ ولكن أترينه قد نسى ؟

ــ وما شأنه بى .. إذا لم يكن قد نسى فإنك تستطيعين التبرؤ منى ، ومن أمومتى .

ــ لا تقولى مثل هذا القول يا أماه .. إنك لدىّ خير من الدنيا بأسرها .

ــ على أية حال لا تتعبى رأسك كثيراً .. دعى الأمر للغد .. فقد يدبره الله بحكمته .

الخاتمة

١٦

استيقظت « سامية » فى الصباح ، أو على الأصح غادرت فراشها ، فما نظن أن النوم قد قارب جفنيها من فرط ما كان فى نفسها من انفعالات صارخة صاخبة .

كانت أفكارها مختلطة مشوشة .. لا تكاد تستبين منها شيئاً محدداً واضحاً .. فقد هزتها الصدمة التى تلقتها فى ليلتها الماضية هزّة عنيفة .. كانت أشبه بزلزال يقلب أسفل الأرض عاليها ، وعاليها أسفلها .

ما كل هذه الخفايا التى كان يخفيها سطح حياتها الهادئ الراكد ؟. أحقاً قد احتوى الماضى المطوى كل هذه العجائب ؟!

أباها ، ومذكراته .. أمها الأولى ، وأمها الثانية ، أو الراحلة والباقية .. الميتة والحية .. الصحيحة والزائفة .

زائفة ؟! حاشا لله ، إنها ما أحست بحبها لها أقوى منه الآن .. لقد صدقت فى قولها ، إن صلات القربى لا تقوم على صلات الدم ، بل على العشرة الطويلة والحب الصادق العميق .

لقد كانت أمها خلال تلك الفترة الماضية من حياتها ، وستبقى أمها إلى الأبد .

وابنها ؟!

عجباً ! أن يكون ابنها !

ولكن لا .. ليس عجباً ! إنها أحبته — دون بقية خلق الله — حباً جنونياً . ألا يحتمل أن يكون ذلك مرجعه لأنه ابن أعز مخلوقة لديها ؟

إنهما يستطيعان الآن الزواج !

حمداً لله .

ماذا كان يمكن أن يحدث لو كان هو فعلا أخاها ؟! لا . لا . إن هذا أمر لم يكن يمكن حدوثه ، لأنها تحبه حباً عنيفاً ، والقلوب تستطيع أن تميز الشخص الذى يجب أن نحبه والمحرّم عليها حبه .

إن العقدة قد حلت .. لقد عقدها القدر ثم أسرع بحلّها ، عقَّدها بطريقة روائية مفاجئة ، وحلَّها بنفس الطريقة .

كل شىء على ما يرام .. إنه يستطيع أن يتقدم الآن لخطبتها رسمياً .. وفى بضعة أيام ينتهى الأمر .

ولكن .. هناك أبوه ، و « الحاجة » !

إن « الحاجة » لا بد قد أنبأت أباه بالأمر ، وإذا كان قد سبق أن رفض عودة أمها إلى بيته ، وحرّم عليها رؤية ابنها .. أيعقل بعد ذلك أن يرضى بهذا النسب ؟!

أيمكن أن يقبل هذا الوضع العجيب والصلة الجديدة ؟ أيرضى بأمها .. حماة لابنه ؟ أيرضى بأن تعود المياه إلى مجاريها بعد هذه القطيعة الطويلة ؟

لِمَ لا ؟!

ولِمَ نعم ؟! إنه عنيد .

ولكن ابنه سيصر .. سيتزوجها رغم كل شىء سيضحى بأبيه من أجلها ، وستضحى هى بالعالم كله من أجله .

وأمها !! أمها ! لا ! لا ! إن أمها أولا .

وهكذا استمرت الأفكار تصطخب فى رأسها حتى تركته يكاد ينفجر .

وجلست وأمها إلى الأفطار ، ولم تتناول كل منهما إلا لقمات معدودات ، ورشفة من فنجان الشاى .

ولم تجرؤ « سامية » على أن تبدأ الحديث ، رغم أنها كانت تتلهف على ما تنوى أمها عمله .

وأخيراً تحدثت الأم محاولة أن تضفى على قولها شيئاً من المرح وأن تزيل عن نفسها ذلك العبء الجاثم من ليلة أمس ، قالت :

— أظن من الخير أن أقوم بزيارة لهم لتسوية الأمور مع أبيه .. لا بد من الذهاب حتى أقنعه بأن يسدل ستاراً كثيفاً على ما مضى ، وألا يجعل من ماضينا معاً عقبة فى سبيل مستقبلكما ، سأرجو منه أن يعتبرنى غير كائنة ، وألا يعتبر أن هناك أية صلة بيننا ، وأنا بعد كل شىء .. لست أمك الحقيقية ، فمن الجنون أن يأخذك بجريرتى نحوه .

— ما هذا الذى تقولين يا أماه ؟ لقد قلت لك ، إنى أفضلك على كل شىء .. إنى أستطيع أن أجد زوجاً آخر ، ولكنى لا أستطيع أن أجد أماً أخرى !

— يا حبيبتى .. هذه حياتك ، وهذا مستقبلك ، وأنا لم أبلغ من الأنانية إلى الحد الذى يجعلنى أحرمك نصيبك من السعادة والهناء .. لقد كان كل هدفى فى الحياة هو أن أبقى بجوارك لأسعدك ، والآن يجب أن أتنحى عنك لنفس السبب . إن غرضى أولا هو سعادتك أنت .

— على أية حال . ليس هناك ما يمنع من زيارتى له .. فربما يكون الزمن قد أزال ما علق به منى .. وقد تكون السنون أنسته الذكريات المريرة .

— لا .. لا .. لن تذهبى .. إنهم هم الذين يجب أن يأتوا أنا لم أرخص بهذا القدر حتى تذهب أمى لكى تخطب لى .. إنك ستبقين هنا مكرمة .. وإذا كان هو يريدنى حقاً .. فليأت إليك .

— أؤكد لك أنى لن أشعر مطلقاً بأية غضاضة فى الذهاب إليه .

— ولكنى أنا أشعر .. إنك أمى ، ولا أحتمل قط أن تقفى من أى أحد موقف الرجاء والسؤال .. حتى ولو كان من أجل مستقبلى .. لقد عودتنى دائماً أن أحصل بنفسى على أريد .. فدعى الأمر لى .

— هذا أمر أخطر من أن أدعه لك .. إنه واجبى نحوك .

— على أية حال دعينا ننتظر اليوم .. فقد يدبرها الله كما قلت بالأمس .

وسمعت كلتاهما صوت عربة تقف بالباب .. وأحست « سامية » برجفة شديدة .. أيمكن أن يكون قد أتى هو لإنهاء الأمر .. بعد أن سواه مع أبيه ؟ ليته

يكون قد فعل .. ليته يأتى .. حتى يجنب أمها مرارة الرجاء وذل الاستغفار .

ونهضت إلى الباب لترى القادم ، فأبصرت سيدة كبيرة فى مثل سن أمها تنزل من العربة وتجتاز الممر المؤدى إلى الدرج ، ثم ترفع بصرها إليها متسائلة فى رفق وبشاشة :

ــ أظنك سامية ؟

ــ أجل يافندم .. أنا سامية .. تفضلى .

ــ ماما موجودة ؟

ــ أجل ! موجودة .. تفضلى .

وصعدت السيدة الدرج . وقادتها « سامية » إلى حجرة الصالون ، وعادت إلى القاعة فسألتها أمها :

ــ من ؟

ــ سيدة تسأل عنك .

وبعد لحظات قصار كانت الأم تقف بباب حجرة الصالون وتهتف فى دهشة شديدة ، وفرحة بالغة :

ــ أنت ؟ بعد هذه الغيبة الطويلة ، أراك أخيراً .. أهلا وسهلا .. حمداً لله على السلامة .. كيف حالك ؟ وما أخبارك ؟ وكيف حال أولادك وزوجك ؟

ــ بخير كلهم .

ــ أى ريح طيبة قذفت بك إلىّ .. بعد طول غياب ؟

وأجابت الضيفة ضاحكة :

ــ إنها ريح طيبة حقاً .. إنى قد أتيت إليك .. طالبة القرب .. أتصدقين هذا ؟

وبلغ هذا القول الضاحك مسامع « سامية » ، وهى تقف فى القاعة تعد أكواب المرطبات لتقديمها إلى الضيفة .. وتملكتها الدهشة وأرهفت أذنيها فسمعت أمها تتساءل :

ـــ طالبة القرب ؟ حقيقة ؟

ـــ أجل حقيقية ! بعد هذا الفراق الطويل يشاء الله أن يجمعنا مرة ثانية ، وفى هذه المرة برباط نسب متنين .

وكانت الأم فى حالة دهشة وعجب لم تمكنها من أن تقول شيئاً .

واستمرت الضيفة فى حديثها قائلة :

ـــ لقد دهشت أكثر منك .. فقد كان يحدثنى عنها ، وأنا خالية الذهن تماماً ، عن أنها « سامية » التى أعرفها .. ولقد أصرّ على أن آتى لخطبتها .. ولكن لم أشأ أن أتقدم إلا بعد البحث والاستقصاء .. ولشد ما أدهشنى أن أعرف أن المسألة فى بيتها .. وأنى لن أخطب غريبة .. بل حبيبة ، وابنة حبيبة .. إنها لا تعرفنى .. وأنا أيضاً لم أكن أعرفها إلا بالتخمين .. إنى لم أرها منذ أن كانت طفلة ، لقد أصبحت فتاة يافعة مكتملة .. إنه معذور فى لهفته عليها .

من هو ؟

كانت « سامية » تنصت مشدوهة مذهولة .

أيمكن أن يكون حبيبها « كمال » ؟

ولكن من هى ؟ وما صلتها به ؟

أمعقول أن تكون هذه هى « الحاجة » ؟

لا .. لا .. إن هذه سيدة أرستقراطية .. و « الحاجة » مجرد « دادة » لا تزيد عن خادمة .

إذاً من تكون هذه ؟ وما تلك الأحاجى والألغاز ؟

وكانت الأم صامتة مطرقة الرأس ، والضيفة مستمرة فى حديثها :

ـــ لقد قال لى إنه مذ رآها فى أول مرة فى المعهد .. أحس أن هذه هى زوجته .

المعهد !! عجباً !! لا بد أن يكون « كمال » ، ولعل السيدة خالته أو إحدى قريباته .

أجل ! أجل ! لقد وضح الشك .

واستمرت السيدة تقول :

ـ لقد كان « أنور » دائم الإعراض عن الزواج !! كان يفضل دائماً أن يكون حراً طليقاً .

أنور !! أنور !! أنور من ؟

زميلها فى المعهد .. المحامى المهذب الرقيق .. الذى ظل يوصلها بعربته كل يوم إلى البيت ، والذى سألها مرة أن يقبل يدها .. عجباً له ! أكان جاداً فى شعوره نحوها إلى هذا الحد ؟

لشد ما يسوءها أن تخذله ، ولكنها لا تستطيع إلا أن تفعل .. إن هناك من احتل قلبها وذهنها ونفسها .. إنها لا ترضى به بديلا ، ولا تقبل عنه عوضاً

يا للفتى الطيب اللطيف .. لشد ما يحزنها أن ترده فاشلا .

ولكن من تكون أمه ؟ وما سر صلتها الوثيقة بأمها ؟

وعاد صوت السيارة يقرع أذنها مرة أخرى :

ـ من كان يخطر له ببال .. أنى سآتى إليك فى يوم ما خاطبة ؟

« ومن كان يخطر له ببال ، أنى سأردك خائبة ؟ » .

بهذا حدثت الأم نفسها ، والأسى ملء جوانحها . ولا حظت السيدة ما يبدو على الأم من حزن ووجوم .. فسألتها فى عجب :

ـ ما بالك مطرقة ؟ أهناك شىء يزعجك ؟

وصمتت الأم فترة قبل أن تجيب فى صوت ملؤه الأسى :

ـ الواقع أن لا أدرى كيف أجيبك .. يبدو لى أن القدر يأبى إلا أن يعيد مفاجآته وسخرياته بعد طول هدوء وسكينة .. ما كنت أظن أن هناك شيئاً يسعدنى قدر أن أرتبط معك بصلة نسب وأقدر أن ألبى لك طلباً .. أى طلب .. مهما كان عسيراً . ولكنى الآن بعد هذا العمر الطويل .. أجد نفسى عاجزة عن تلبية أبسط طلباتك . الطلب الذى أعتبره جميلا منك وفضلا لك علىّ .

وصمتت الأم برهة ثم أردفت قائلة فى أسف شديد :

— إن ابنتى قد خطبت .

ووجمت السيدة ، وفغرت من العجب فاها ، وتمتمت قائلة :

— خطبت ؟. مبروك .. كان يجب أن أعرف ذلك . منذ متى خطبت ؟

— منذ أيام قلائل .. ليست خطوبة تامة .. إنها شبه خطوبة ، أو أمل فى خطوبة .

— لست أدرى ما تعنين ؟

— قبل أن أشرح لك .. أظن أن من الخير أن أنبئك من يكون الخطيب ؟ ومن تظنينه ؟

— من يكون ؟

— كمال ؟

— كمال مَنْ ؟

— كمال .. ابن عبد الرحمن بك .. أو ابنى أنا ، الذى أنبأك أبوه عندما ذهبت لتسأليه الصفح والمغفرة أنه سيحرم علّى رؤيته ، وقد فعل ، فلم أره حتى الآن .. ولكنه رأى « سامية » وخطبها . أرأيت أشد من هذا سخرية من القدر ؟!

وهتفت الضيفة تقول مشدوهة :

— ماذا تقولين ؟.. خطب « سامية » ؟ وأين التقى بها ؟ وكيف رآها ؟

— رآها فى المعهد .. كما رآها « أنور » .. لقد اشتغل معيداً فى الجامعة عقب عودته من كمبردج .. وكان يقوم بتدريس الإنجليزية لها .

— مدهش ! ما سمعت أعجب من هذا قط .. هذا شيء لا يمكن تصديقه .

— هذا هو ما حدث .. لقد سألها الزواج منذ أيام .

— وماذا قال أبوه ؟

— لا أحد يعرف بعد .. من يدرى ماذا يمكن أن يقول !

— أتظنينه سيقبل ؟

ـــ الله أعلم .

وعاد ذهن الضيفة القهقرى إلى أعوام خلت ، وتذكرت ذهابها إلى الرجل فى بيته وترجوه إعادة زوجته والعفو عنها ، وكيف صدها ونهرها وازدراها واحتقرها .. ونظرت إلى الأم المطرقة الجالسة أمامها فى وجوم ، وأحست لها برثاء شديد عندما سمعتها تهمس قائلة :

ـــ هذه المرة .. لا يعنينى الأمر وحدى .. بل يعنى مخلوقة أعز علىّ من نفسى .. لقد ضربت به عرض الحائط لأن الأمر كان أمرى .. أما هذه المرة .. فإنه أمرها هى .. أمر سعادتها ومستقبلها وهنائها .. ولست أطيق أن أراها تشقى .. لا بد أن أطاطئ الرأس .. وأرجو وأتوسل .. ولا أظنه سيظل حاقداً علىّ بعد هذا العمر الطويل .. ولا أعتقد أنه سيأخذها بجريرتى .

وساد الصمت مرة أخرى .. وعادت السيدة ترقبها فى عطف شديد .

مسكينة !.. إن القدر يأبى أن يتركها تهدأ وتستريح .. كيف تذهب لتتذلل إليه بعد هذا العمر الطويل !! إنه رجل حقود ممرور ، ولن يتورع عن صدها وخذلانها وإذلالها .

ولم تملك إلا أن تلقى إليها ببضع كلمات على سبيل المواساة والتشجيع قائلة :

ـــ لا تحزنى ولا تيئسى .. دعى الأمور لله يدبرها .

ـــ الله يدبر أمورى أنا ؟.. أمورى أنا ؟.. يبدو لى أنه قد تخلى عنى تماماً !

ـــ لا .. لا .. لا تيئسى من رحمة الله أبداً .. إنى آسفة من أجلك .

ـــ أنا الأشد أسفاً .. ماذا ستقولين لأنور ؟

ـــ لا شىء .. سأقول له إنها ليست لك ، فدعك منهاولكن أين سامية ؟لِمَ لم تحضر لأراها !

ونادتها أمها .. فأقبلت وهى تحاول أن تخفى عنها ذلك الوجوم الذى تملكها .

إذاً فهذه هى الصديقة القديمة لأمها .. التى كانت لها خير العون ونعم النصير ، والتى لم تخذلها عندما خذلها سائر الأهل والأقرباء .

يا للسخرية !! لقد خذلتها هى فى أول مطلب لها !

ورحبت السيدة بها ، وجرى الحديث فى أمور عادية ، فسألتها عن الدراسة والجامعة ، و لم تشر إحداهما إلى ما جرى قبل ذلك من حديث .

وأخيراً نهضت منصرفة وودعتهما قائلة :

ـــ أرجو أن أراكما قريباً ، هذه فرصة سعيدة لإعادة الصلة بيننا مرة أخرى .

وجلست الأم وابنتها وحدهما وقد ران عليهما صمت ، وبدا عليهما الشرود .

وأخيراً قالت الأم :

ـــ أتعرفين من هذه ؟

ـــ أجل أعرف كل شىء ، وسمعت كل شىء !

وصمتت الأم برهة ثم عادت تقول :

ـــ لقد ساءنى منها فيما مضى أن ذهبت إليه ترجوه الغفران .. أما الآن فكم أتمنى لو تعاود الكرة ، إن الأيام تجبرنا دائماً على أن نتلهف على ما كنا نسخر منه .. إنها خير من تقوم بمهمة الوساطة ، ولكن كيف أسألها ذلك ، وهى قد . كيف أسألها أن تذهب لتخطب لك ؟

وبعد الغداء نهضت الفتاة إلى حجرتها ، وجلست وحدها شاردة الذهن .

ترى ماذا حدث لكمال ؟ هل أنبأت الحاجة أباه بحقيقة الأمر ؟ وهل ثار أبوه ؟ ولكن « الحاجة » نفسها لا تعرف الأمر على وضعه الصحيح .. إنها تظن ا وكمال إخوة ، وهى ستنبىء أباه بالخبر ، وسيؤكده له أبوه بالطبع ويقص عليه قصة أمه بحذافيرها .

أترى سيحاول « كمال » بعد ذاك لقاءها ؟ أتراه سيجىء فى الموعد بعد أن أقنعوه بأنها أخته ؟

أمه، ولكن. لا. لا نظنه يفعل ذلك، فلا شك أن أباه والحاجة، سوف يسممان أفكاره ويقنعانه بمقاطعتها كما أقنعاه من قبل .أنها ميتة.

وعلى ذلك فلن يأتى إليها .

إذاً فلا بد أن تحاول هى لقاءه وإحاطته بجلية الأمر .

ولكن .. ماذا سيكون رأيه ؟. هل سيستمر على حبها كما كان ؟

لا . لا . إنه لا شك سيعرض عنها .

أف لهذه الأفكار التى تكاد تفجر رأسها ، لو استطاعت النوم ، أو الكف عن التفكير .

واستلقت على الفراش .. إنها لن تذهب إلى الموعد .

ولن تذهب إلى الجامعة ، ولن تفعل شيئاً أبداً .. إنها ستظل راقدة هكذا .. إنها جد منهكة .. جد منهارة .

وأغمضت عينيها ، وكان الجهد والسهر قد أخذا منها كل مأخذ ، فتسلل النوم إلى عينيها وراحت فى إغفاءة طويلة ..

ورأت فيما يرى النائم أحلاماً مضطربة مشوشة ما لبثت حتى استبانت ووضحت ، فوجدت نفسها تجلس بجواره فى العربة وقد سارت تطوى بهما الأرض فى طريق الهرم . وما لبثت حتى أحست بالطريق قد غمره الماء حتى صار نهراً متدفقاً ، وإذا بالعربة قد أضحت قارباً ، وجلسا كلاهما متجاورين متلاصقين ، وقد سار القارب بهما فى رفق ينساب على سطح الماء ، وهب النسيم عليلا هادئاً ، ولكنه أخذ يشتد شيئا فشيئا حتى انقلب إلى عاصفة هوجاء، أخذت تدفع القارب أمامها بشدة ، وعلى حين غرّة ضربته موجة عالية فقلبته رأساً على عقب .. وأمسك كل منهما بالآخر يضمه بشدة ، وأحست بجسديهما يهويان فى الماء وكأن يداً قاسية تجذبهما إلى أسفل ، ونظرت وراءها فإذا بوجه عجوز تكشر عن أنيابها كأنها عفريت وقد تشبثت بهما وأخذت تدفعهما إلى جوف الماء .

وحاولت الصراخ ولكن صوتها خرج متحشرجاً مبحوحاً .. وفجأة أبصرت أمها تعدو على الشاطئ وهى تقترب منهما مادة إليهما يدها .. لإخراجهما ، ولكنها لم تكد تصل إليهما حتى أبصرت برجل يطبق عليها ويحاول أن يصرعها وأحست بنفسها تتهاوى هى وصاحبها ، وبلغ بها اليأس مبلغه وهى

ترى أمها تقاوم الرجل محاولة الإفلات لإنقاذهما .. وأخيراً كادت تغلب على أمرها لولا أن بدت فى الأفق امرأة تعدو إلى أمها فتشاركها فى صراعها مع الرجل حتى تتغلبا عليه ثم تهبطا إلى النهر لإنقاذهما ، وتصل إليها الأم وهى فى الرمق الأخير وتتشبث بها صائحة :

ـــ أماه ؟. أنقذينى !

وأحست بذراعين حنونين يضمانها وسمعت صوت أمها تقول فى لهفة :

ـــ لا تصرخى يا حبيبتى .. إنى بجوارك !

وفتحت عينيها فوجدت أمها تضمها برفق وتهتف بها فى حنان :

ـــ لا تبكى .. أنبئينى عما أزعجك ؟

وجلست الفتاة فى الفراش وهى تحس بفرط التعب من الحلم المزعج ومن صراعها فى الماء .

ووجدت على وجه أمها فرحة ظاهرة ، وأدهشها ألا تجد به أثراً لذلك العبء الذى كان يثقل كاهلها منذ ليلة أمس .. لقد بدت سعيدة قريرة ضاحكة وهى تقول لها :

ـــ انهضى يا سامية ، والبسى ثيابك بسرعة .

ـــ لمه ؟

ـــ هناك ضيوف فى حجرة الصالون .. يريدون رؤيتك .

وبدت الدهشة على وجه سامية ، وهتفت :

ـــ ضيوف ؟ يريدوننى أنا ؟ من يكونون ؟

ـــ إنها أم أنور .

ـــ أم أنور ؟ مرة ثانية ؟ لمه ؟

ـــ أسرعى يا سامية .. ليس هناك وقت للسؤال .

وغسلت وجهها وأبدلت ثيابها ، وسارت إلى حجرة الصالون ، وقبل أن تبلغها فاجأ أذنيها صوت حبيب إليها .. صوت « كمال » .

وأصابتها هزّة فرح ، واجتازت الباب ، فإذا بها تبصر صديقة والدتها ، و « كمال » ، وكهلا آخر لم تره من قبل .

ومدت يدها محيية ، وقال « كمال » على سبيل التعريف يشير إليها وإلى الكهل :

ـــ سامية خطيبتى .. عبد الرحمن بك أبى .

وازدردت « سامية » ريقها وهى تتلفت حولها فى دهشة !

وقال « كمال » موضحاً فى اختصار وهو يبتسم فى جذل :

ـــ لقد أنبأت الحاجة أبى بالخبر ، وأرته الصورة . ولم يكن هناك مجال للشك بعد ذلك ، ولقد أصبحت فى حالة يائسة وحيرة شديدة . بعد أن علمت أنك أختى ، ولم أكن أعرف كيف أتصرف .. حتى أقبلت علينا السيدة والدة الأستاذ « أنور » ، وطلبت مقابلة أبى ، وذكرته بنفسها وقالت له إنها تزوره للمرة الثانية بنفس الرجاء ، وهو الصفح والغفران .. ثم شرحت له جلية الأمر ، ولم نجد هناك ما نفعل بعد ذلك أفضل من أن ننتقل إليكما لننهى المسألة نهائياً .. حالا .. وبلا أقل انتظار .

وضحك أبوه قائلا :

ـــ أمتعجل إلى هذا الحد ؟

ـــ أجل متعجل جداً .. خشية أن يظهر القدر بمفاجأة جديدة .. سآخذها معى الآن وسنرحل عنكم ، وقانا الله شر مفاجآتكم .

ـــ إن مفاجآتنا ستكون سارة .. لا تخش شيئاً .

واستمر الحديث يجرى بينهم مرحاً ضاحكاً .. حتى نهض « كمال » قائلا :

ـــ أظن قد آن لنا الانصراف .. سآخذ سامية معى لألبسها « الدبلة » !.

وقامت السيدة والدة « أنور » وشدت على يدهم فى حرارة وقالت لصديقتها :

ـــ إنى أحس الآن بمنتهى السعادة .. سعادة أكبر كثيراً مما لو كنت قد خطبتها

إلى ابنى .. سأذهب إليه الآن وأقول له إنى خطبتها لغيره .

واتجهت السيدة إلى عربتها ، ووراءها « كمال » و « سامية » ، وفى المؤخرة سار الأب بخطوات متباطئة ، وقد أخذ ينظر إلى الأم نظرات مترددة كأنه يود أن يقول شيئاً .. وأخيراً همس :

— أستبقين وحدك ؟! إنى على استعداد لعودتك .. إنى آسف على ما مضى .. هيا بنا ، ودعينا ننس كل شىء .

وأجابته فى صوت خافت يائس :

— بعد هذا العمر الطويل ؟.. لا .. لم تعد هناك فائدة .. لقد تعوّدت الوحدة ، والنهاية لم تعد بعيدة .

ونظر إليها نظرة ملؤها التوسل ، ولكنها هزت راسها فى أسف ويأس .

وتحرك الركب ووقفت فى الشرفة ترمقهم وتلوح لهم .

عندما اختفى الركب .. كان هناك شىء آخر يوشك أن يختفى

كان هناك القرص الأحمر الدامى يغيب ببطء وراء الأفق .

ووقفت ترمق القرص ينساب فى هدوء ، وأحست كأن ذيول الأشعة الحمراء يد تمر على جبينها برفق وحنان .. وبدا لها فى الشفق الأرجوانى شبح ابتسامة رقيقة .

وهبت نسمة سرت فى أطراف الشجر ، فأرسلت من الورق حفيفاً خيل إليها أنه يهمس بها :

« .. وأنت .. أنت ياتوءم الروح .. يا منية النفس الدائمة الخالدة .. يا أنشودة القلب فى كل زمان ومكان .. مهما هجرت .. ومهما نأيت » .

وعندما أوشك القرص الدامى على الاختفاء .. عاد الحفيف يردد :

« ارقبيه جيداً .. وإذا رأيت مغيبه وراء الأفق فاذكرينى » .

واختفى القرص ، فاستدارت ببطء عائدة إلى الدار الخالية ... وفى حجرتها مدت يدها إلى أحد الأدراج فأخرجت منه صندوقاً صغيراً .. أخذت تتحسس

محتوياته بحنان شديد .

كانت المحتويات رسائل قديمة ، وصورة باهتة ، وفتاتاً من الشكولاتـه ، وهشيما من زهور البنفسج .

كانت بقاياه .. أو اطلاله .

كانت تلك هى كل ما بقى لها من سلوان فى الأرض .. وفى السماء .

إن عزاء اليائسين من الحياة ، هو أمل فى لقاء فى السماء . أما هى .. فلن يكون لها حق اللقاء .. حتى فى السماء .

إن زوجته قد سبقتها هناك إلى اللقاء .

يا للعمر الضائع سدى .. الذاهب هباء !

أيخلق التوءمان فى هذا الوجود ، فلا يلتقيان إلا لقاء مسافرين فى قطارين متضادين .. لا يبصر كلاهما الآخر إلا لحظة يطويهما بعدها الفراغ ويلفهما العدم .. بلا أمل فى عودة أو رجاء فى لقاء ؟

لحظة واحدة .. تعادل العمر كله .. ورب لحظة كيوم ، ويوم كعام .. وعام كدهر .

لحظة واحدة .. تخلد فى النفس أبد الدهر .. هى ذخيرة الحياة ، وما بعد الحياة ، لو كانت هناك ، بعد الحياة ، حياة .

وأمسكت بالرسائل والزهور ، فرفعتها ببطء إلى شفتيها ، وبدا وجهها الحزين ، وقد نشر عليه الأسى ظلاله ، وهبطت من مقلتيها قطرات من دمع جموح شرود .. أطلقتها الذكرى ، وألهبها اليأس والجوى .

وانسابت الدموع فامتزجت بهشيم الزهور ، واختلطت بالسطور .. كأنها تؤكد اختلاط الروحين ، وامتزاج المهجتين .. وإن كانت إحداهما فى الأرض والأخرى فى السماء .

وسقطت الظلمة .. فلفت فى حناياها الجسد الواهن ، والنفس المضناة .. التى لا تملك من عزاء .. فى حياتها الفانية والباقية ، سوى العيش بين الأطلال .

[تمت]

فهرس

رقم الإيداع : ٧٧٤٧ / ٨٦

الترقيم الدولى : ٩ ــ ٠٢٧٢ ــ ١١ ــ ٩٧٧

